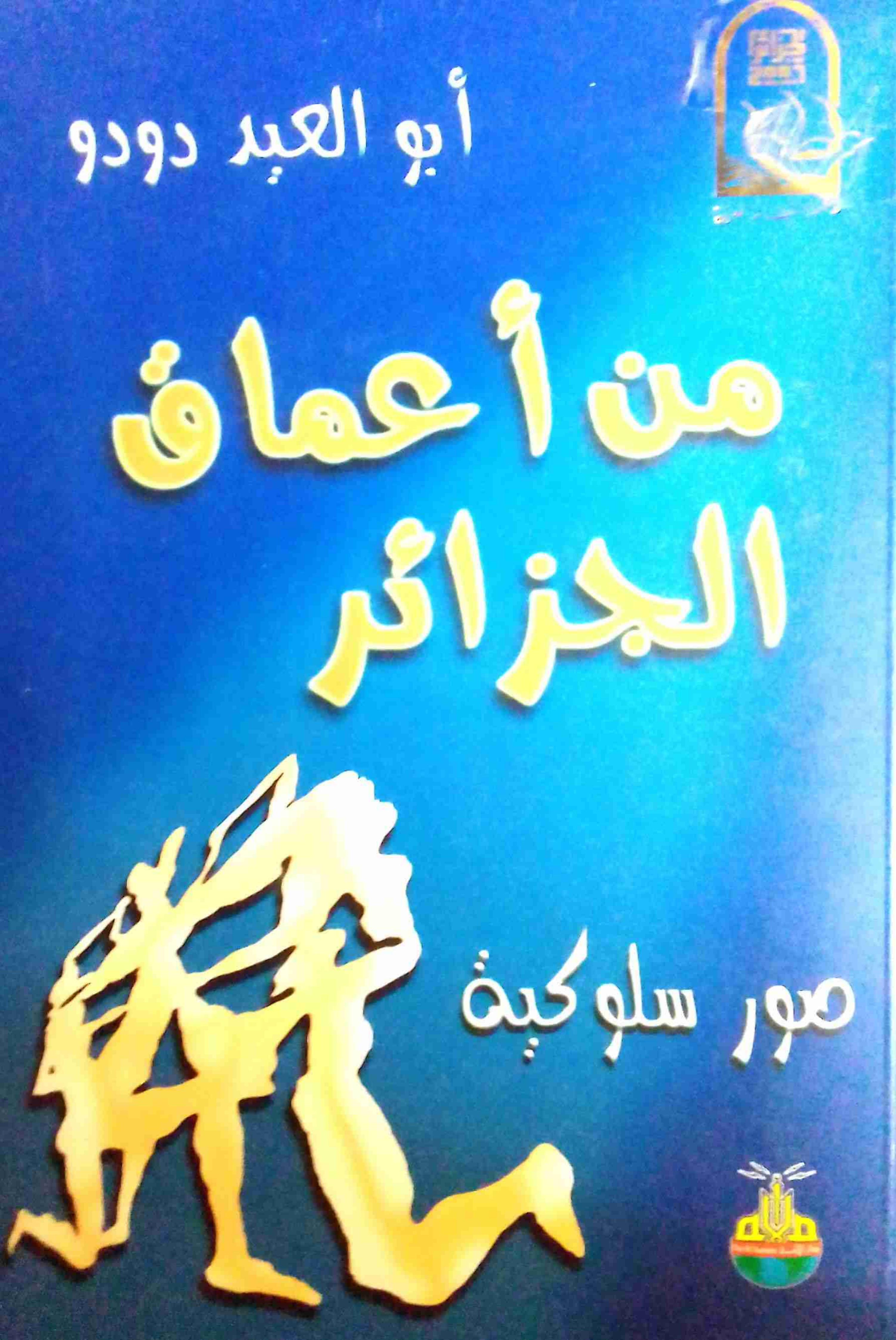
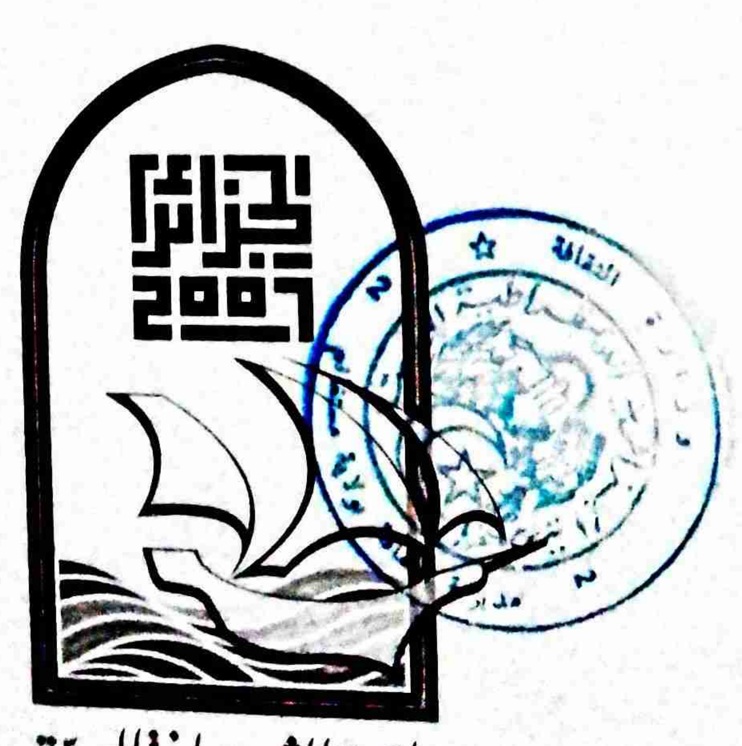

أبو العيد دودو
من أعماق الجزائر
صور سلوكية


الجزائر
2007
عاصمة الثقافة العربية

د. أبو العيد دودو

من أعماق الجزائر

صور سلوكية



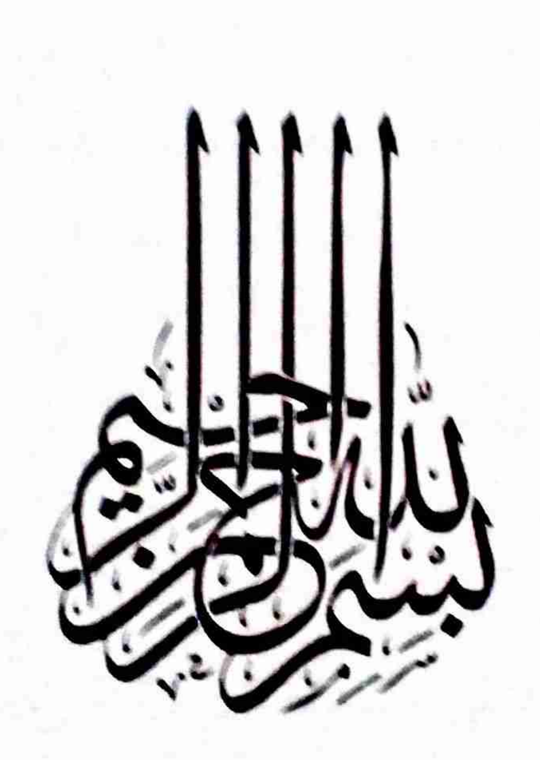
شركة دار الأمة
للطباعة والنشر والتوزيع
ص. ب 109 برج الكيفان
16120 الجزائر
E-Mail: Dar-el-Oumma @ mail.com

الطبعة الثانية
2006

إيداع قانوني: 3354/ 2006
ردمك: 9961-67-202-X

ردمك EAN : 9789961672020

ديسمبر 2006


بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمـــــة

من عادتي أن أدع كتبي الابداعية تقدّم نفسها بنفسها، لأني كنت -ولا أزال- مقتنعاً بأن العمل الابداعي، كيفما كان نوعه، لا يحتاج إلى وساطة أحد، وخاصة وساطة المؤلف نفسه. وذلك حتى لا أفرض على القارىء فهما أو تفسيرا معينا لهذا العمل أو ذلك، وحتى أعفيه من التنازل عن حريته في التحليل والتأويل بدافع المجاملة لصاحبه أو لأسباب أخرى تتصل بتكوينه هو وطبيعته. على أنني سأخرج في هذه المرة عن هذه القاعدة (...)

إن للصورة السلوكية عندي خصائص ومميزات أريد أن أشير إلى بعضها هاهنا باختصار شديد دون أن أفرض على القارىء الواعي متابعتي فيها، فالمهم بالنسبة إلي هو ما يكتشفه هو فيها من سمات خاصة، قد لا تكون في صالحها على الدوام!

تختلف طبيعة الصور السلوكية من صورة إلى أخرى. إلا أنني أستطيع أن أقول عموماً إنها تقوم على المفارقة، ابتداء من العنوان، كما تقوم على التقمص، وهذه السمة أساسية فيها، بمعنى أني أتقمص فيها شخصية من الشخصيات وأتناولها من الداخل وعلى لسانها بالنقد والسخرية، وكأنها هي التي تتحدث عن نفسها بنفسها، بعبارة أخرى تعترف لنفسها بأشياء، ليس من السهل عليها أن تعترف بها لغيرها في ظروف أخرى، لأنها مقتنعة في أعماقها بعدم شرعيتها. وهذه الطريقة جعلت بعض القراء يخطئون في فهم طبيعة الصورة السلوكية.. ويتصورون أن المؤلف هو الذي يعترف، ويصبح عندهم معادلاً للشخصية المتقمصة! كل الناس يعرفون أنني أكتب بالعربية

واعتز بأنني أكتب بها لا بغيرها، ومع ذلك حين تقمصت شخصية مواطن مسلوب حاقد على العربية حقداً شنيعا وكشفت أعماقه، هاجمني أكثر من قارىء متهما أياي بالعداء للغة العربية!

وتقوم الصورة السلوكية على الواقع الفني أكثر مما تقوم على الواقع الحقيقي، فكثيراً ما يكون مصدرها مجرد فكرة عابرة، ولكنها ترتكز على الدوام على ماهو ممكن وما يصح أن يحدث فعلاً في كل مجالات الحياة.

ومن هنا فإن الصورة السلوكية ابداعية بالدرجة الأولى، فالظروف التي يتم فيها الحدث ليست بالضرورة ما يرى حقيقة في هذا المكان أو ذاك.. غير أن هناك حرصًا على الا تكون هناك غرابة في الأمر.. بمعنى الحديث عن أشياء غير موجودة عندنا مثلاً. والصورة تقوم في جميع الحالات على حدث ما.. واقعا كان أو متخيّلا.

ومن العناصر الأساسية في الصورة أيضا التلاعب بالألفاظ، وتوظيف معاني الكلمات في العديد من الاستعمالات.. غير المألوفة قدر ما يسمح به التعبير العربي، والتشويق تمهيدا للوصول إلى مفاجأة القارىء بما لم يكن يتوقعه من خلال القص أو الرواية. وهذا كله يدفع إلى البحث -أثناء العملية الابداعية- عن المواقف المتأزمة والمرحة والساخرة على حد سواء، إلا أن هذه المواقف ليست مقصودة دائما لذاتها، فقد تكون تعبيراً عن فكرة معينة أو اتجاه معين أو عبرة معتبرة بوجه من الوجوه. وإذا ما استطاع القاريء أن يتوصل إلى الشعور بما في ذلك.. بما وراء ذلك كله من مرارة، فقد حققت الصورة السلوكية هدفها!

الجزائر 29 / 9 / 1993

ابـو العيـد دودو
(جامعـة الجزائـر)

الـوسـاطـة.. حـليب!

في يوم من أيام رمضان الكريم، وقد كان رمضان أبدا كريما، ذهبت الى بئر الخادم، ولم أكن أريد أن يخدمني أحد.. فزمان الخدمة قد ولى! ولم أذهب اليه في هذه المرة لأبحث عن الماء المرتبط بالبئر، ولو أن الماء يحتاج في بعض الاحيان الى أن نبحث عنه كما نبحث عن حبة ضاعت في الرمل، وانما ذهبت أبحث عن الحليب! ولعل الصحيح أن أقول.. ذهبت أتسول الحليب، والسبب؟ لقد تساوى التسول والشراء عندنا والدراهم لم تعد تغني فتيلا! ذهبت لأشتري الحليب الذي افتقدناه في الأيام الأولى من.. رمضان الكريم!

مضيت بأملي وبلهفتي الى بئر العادم.. مقر شركة الحليب ومشتقاته، وكانت مشتقاته ثانوية بالنسبة لي، فالأصل.. الحليب الأساس! وكنت أتوقع أن تخلصني الشركة من الأزمة.. أزمة الحليب في البيت، على اعتبار أن هذه الشركة هي المقر والأصل و.. المصدر! وإلا فما معنى أن يكون لها مقر للحليب! وكان للشركة طبعا متجر.. سبق لي أن اشتريت منه الحليب قبل فترة، وهو عبارة عن كشك من البناء الجاهز.. وقد تصورت، كالعادة، أنه جاهز لكل شيء!

وقد عرفت هذا المتجر، وله فسحة على اليمين، يتجه اليه كل من يشاء بسهولة كبيرة. ولكني وجدت الفسحة قد سدت في ذلك اليوم أو قبل ذلك اليوم بصفائح القصدير. فظننته في بداية الأمر مغلقا، غير أني لا حظت بعد قليل.. أن الناس، أن الزبائن يتجهون الى الخلف.. ويخرجون من الخلف! فاتجهت مثلهم الى الخلف، لأنه الطريق الوحيد للوصول الى.. المصدر! وكنت أقول لنفسي.. لأمر ما أرادوه كذلك!

والغريب أنني لم أجد، عندما اتجهت الى الخلف، بابا مثل أي باب.. معهود، وانما وجدت ممرا ضيقا بين كشكين من البناء الجاهز، يشكل أحدهما المتجر، لا يمكنك أن تصل منه الى فسحة المتجر الكشكي إلا اذا أنت سحبت بطنك وكل مصارينك.. وخاصة المصران الغليظ! هذا ان كنت ممتلئا بمقدار.. وعلى أصحاب الضخامات.. السلام! فرمضان لا يسل البطون بمثل هذه السرعة! وقد يضطرون الى الشراء مثلنا.. وان كانوا من أصحاب المقامات!

ومررت عبر الكشكين على أية حال، ولكنني شعرت، أثناء مروري، أن جداريهما يضغطان مقدمتي ومؤخرتي وكأنهما -على ملاستهما- مجرفة عنيدة! وكان لي -ورمضان شهر كريم- مظهر بلدي. وكل أنيق عندنا بلدي. ذلك ما تريده الوظيفة، وذلك ما يريده.. العصر! لقد كان لي البدلة، وربطة العنق والحذاء الأسود ولو كان.. مغبرا! ورأسا توجهت بأناقتي الى البائع.. بعد أن تأكدت من وجود علب الحليب الخضراء، التي كنت أبحث عنها، فهي مفضلة على الأكياس البيضاء لأسباب يعرفها.. الخبراء! وطلبت منها ما رغبت في الحصول عليه.

ورأسا كذلك فقدت أناقتي البلدية، عندما أخبرني البائع بكلمات لا تخلو من تأنق مصطنع.. لا يخلو هو الآخر من سخرية.. نحن لا نبيع الا للخدام لأننا في بئر.. الخادم! وعند ما قلت له.. لم يكن الأمر كذلك من قبل، أجابني.. القبل قبل! هذا مكتوب على الباب! وفي الحين استولت على ذهني البزة الرسمية، التي كنت قد رأيتها خارج.. الممر! وتذكرت أنها نظرت الي.. والابتسامة تعلوها لسبب لم أدرك جوهره عند المرور بها. هي اذن ابتسامة تشف مدركة!

وصعب علي أن أعود الى بيتي دون حليب.. وأطفالي في انتظاره. وجدتني أسأله في شبه غضب.. البزة الواقفة هناك من الخدام أيضا! فوضع الخادم سبابته على فمه.. طالبا مني ألا أسمع البزة صوتي. فتوسلت الى عدد

من الخدام، ولم يكونوا يقلون عن عشرة.. توسلت اليهم أن يشتروا لي، في يوم رمضاني كريم.. يوم الأجرة المحتسبة!، بضعة أكياس من الحليب، وكانت علب الحليب الخضراء قد أصبحت بعيدة المنال جدا، وتصورتها، بعد أن تخطفتها أيدي الخدام، بعيدة بعدا خاصا في.. بئر الخادم! ولكنهم رفضوا كلهم بدون استثناء! وكأن يوما رمضانيا، أجهل طبيعة كرمه، قد تكرم عليهم بهذا الرفض كله!

وكان لكل منهم عذره أو.. رفضه الخاص تمثل بشكل جلي في جوابه البارد، أو في ملامحه المتحفزة، أو في حركاته المتعبة، أو في صمته الحانق، أو في مظهره المزهو، أو في انصرافه الشامت! وبما أن توسلي قد تم خارج الممر، فان البزة الرسمية كانت تنظر الي.. والابتسامة تعلوها، وقد شعرت أنها قد ازدادت اتساعا بطريقة من الطرق.. ربما لأنها كانت قد كومت أمامها الحليب بنوعيه وبكل.. مشتقاته! أخذت من ذلك ما يكفي لأيام عديدة.. ولم أكن أنا أريده لأكثر من يوم واحد.. والله ورمضان كريمان!

واقتربت من البزة الرسمية، اقتربت منها ببدلتي غير الرسمية، دون أن تكون أية رغبة في الرد على ابتسامتها، التي جعلها الحليب ومشتقاته تبدو أكثر سطوعا، وقلت بصوت عال لتسمع صوتي المعذب، وكان بشكل ما نصف باك.. قلت.. حتى المذلة لم تعد لها قيمة في بئر.. الحليب! وكنت في الحقيقة أريد أن أقول.. بئر الخادم، ولكني لساني سبق من شوقه أيضا الى.. الحليب! فانصرفت البزة الرسمية عني، وأساحت نظراتها فوق مشترياتها، وقد جعلتها مذلتي ثمينة عندها، بل ربما خلقت في أعماقها متعة رسمية.. خاصة، لا تتوفر عليها البدلة و.. ربطة العنق!

وانصرفت عن البزة بدوري، وأنا أشعر، وكان شعوري أكثر من صادق، أنني.. أنني لم أفقد أناقتي فحسب، وانما فقدت كل ما كان فوق جسدي من ثياب.. وأصبحت عاريا أبيض.. كالحليب!

المـــرأة.. وردة!

أحب أولا أن أقدم نفسي، وهذا الحب نوع من المجاملة المتحضرة، لأنني في أعماقي خجول جدا، رغم أني لم أعرف الخجل قبل، فقد كنت دائما أعبر عن أفكاري وعن رأيي في نفسي في ثقة وبصراحة تامة.. وأعبر عن رأيي في الآخرين بنوع من السخرية وبكثير من الاستعلاء دون.. مجاملة! كنت دائما أريد أن أؤكد ذاتي، والذات عند ذوي الشخصية أساس الوجود! كنت أريد أن أضم ذاتي.. أضع اسمي فوق العديد من الأسماء اللامعة! وكان هذا بغض النظر.. بغض النظر عن الأعمال الفنية التي تبدعها مثل هذه الأسماء.. ولو كانت في مجال الكيف.. والكيف نوع من الممارسة الخلاقة! ولا بأس أن يخالفني بعضكم في هذا الرأي.. وهو رأيي على أية حال!

أحب اذن أن أقدم نفسي بصفتي.. كاتبا، والكتابة نوع رائع من الحياة! وقد تكون هي الحياة نفسها.. كما هو الأمر بالنسبة لي وبالنسبة لمن أعترف لهم بجمال التعبير و.. روعة الكتابة! فقد وضعت عدة كتب، ولا أخفي حتى عن نفسي أنني قد وضعتها بشكل عويص مثل أي خالق، مثل أي فنان مبدع، بل مثل أي عامل يبدع –من فرط حبه للجمال– في مهنته، ويخلق شيئا ما من كل ما تمتد اليه يده الفنانة.. في إطار عمله! وكل عمل –مهما كان بسيطا– هو خلق بشكل من الأشكال. والخلق فرحة جذلى لا يعرف حدودها حتى الفنان.. العامل نفسه.

وكان من الطبيعي.. من الطبيعي جدا جدا.. أن أجعل للمرأة مكانا واسعا في كتبي، فجعلتها بطلة ثائرة، وفرشت لها قلبي بساطا أخضر تخطر فوقه في دلال وتمنع تارة، وفي تهتك تارة أخرى. وأكثر من ذلك جعلتها نجمة،

تطمح الى وصالها كل الكواكب، وكان كل كوكب يعرب -بكل الوسائل- عن رغبة طاغية في أن يكون مدارها في مجال شعاعه، ومجال الشعاع الخاص دائرة ضيقة على الدوام! لكني منحتها حرية المدار، كما منحتها حرية الاختيار.. اختيار الكواكب! الا أن الاختيار كان مشروطا بحدود الوطنية.. فالوطنية في لغتنا مؤنثة مثل.. النجمة! وفي هذه الحدود استطاعت أن تختار بكل حرية كواكبها ومواكبها السيارة!

وذات يوم شاءت الظروف، وللظروف مشيئتها خارج حدود الجبر والاختيار، ولها هذه المشيئة سلبا وايجابا! شاءت هذه الظروف أن تجمعني بصديق لي فنان أيضا، ولكن فنه يختلف عن فني، على ما بينهما، بين فني وفنه، من تقارب في مجال الصورة والتشكيل والايحاء! شاءت أن تجمعني به في مقهى شعبي، والفنان الأصيل لا يجلس الا في مقهى شعبي! المقاهي الراقية تترك لمن نبذهم الشعب في حالة.. مخاضه! الشعب وحده طريقنا - نحن الكتاب.. والفنانين- الى الفن، كل فن واع يعرف مواقع خطاه بكل دقة! وكل فن يفقد أصالته وتضيع منه قيمته حين يبتعد عن الشعب ويهيم في الآفاق البعيدة عنه، الآفاق التي تصب في نهر الخيال والوهم.. هذا ان لم تصب في عالم غير معقول!

والعالم المعقول كان حتى تلك الفترة، والفترة رحلة فنية بشكل أو بآخر.. تبعا للموهبة المتميزة، كان العالم المعقول في حوزتي كما كان في حوزة صديقي، والحوزة نوع من الملكية! وتعبيرك عن شيء.. تصويرك له امتلاك لذلك الشيء.. من الوجهة الفنية على الأقل! ومن ثم كنا في جلستنا تلك بمقهانا الشعبي نتحدث عن نصيبنا من هذا المعقول.. وماذا استطعنا أن نحققه للشعب في أعمالنا الفنية، وان صعب على الشعب -لجهله- في كثير من الأحيان أن يفهم فننا فهما صحيحا ويدركه ادراكا سليما! وفي مثل هذا الموضوع يجب أن يكون حديث الفنان للفنان!

وبينما كنا في هذا الحديث الفني، وقد كان فنيا فعلا، اقتربت منا متسولة.. ولم تكن تحمل طفلا في هذه المرة! وكان اقترابها منا يعني انصرافنا عن الحديث الذي كنا نخوض فيه، حديث الأدب والفن والثقافة. وكم كبيرة هي حاجتنا الى الثقافة في هذا العصر الصاروخي! وكانت المتسولة قذرة الثياب الى حد ما.. وان كانت القذارة لا تدل على الفقر في دنيا.. الكسالى! وكان لها شعر ووجه جميلان جدا! وفي الحين فكرت في نفسي.. ما أروعها بطلة لرواية! انها هي الأخرى نجمة لامست كوكبي الأدبي، والاحساس كوكب يضيء أعماق الكاتب الفنان!

هذا الاحساس.. يضاف اليه تعاطفي مع الفقر.. جعلني أمد يدي الى جيبي، وكان جيبي خفيفا، وأخرج منه عشرين دينارا وأقدمها لها. فأخذتها مني دون أن تتغير ملامح وجهها، ودون أن تقول كلمة واحدة، وكأني لم أقدم لها شيئا! وراحت تنظر الى صديقي.. مادة يدها اليمنى نحوه. ورحت أنظر اليه بدوري.. منتظرا منه أن يتذكر حديثنا عن الشعب وأن يؤدي واجبه نحو المرأة المتسولة! ولكن صديقي لم يفعل فعلي.. كان له رأي آخر في الموضوع، لعله استمده من قناعاته الخاصة! فقد دعا بائع الورد، الذي كان على مقربة منا، واشترى منه باقة ورد وقدمها لها، فأشرق وجهها واستنار بشكل غريب، وابتسمت له وشكرته.. وعيناها تلتمعان بحدة. ورفع صديقي رأسه، وكان فنانا حتى في حركة رأسه.. هكذا خيل الي في تلك اللحظة، وابتسم ابتسامة عريضة، وقال لي، وهو يتابع نشاط خطواتها المبتعدة:

– لقد كتبت، يا صديقي، عن المرأة، ولكنك لم تفهم.. الوردة!

المحاضرة.. وجه!

دخلت المدرج كالعادة، والعادة قد تكون أكثر من.. عادة! وما من مرة أدخل فيها المدرج الا أحس أنني أرتفع درجات في لباسي ومشيتي وفي نظراتي وحركاتي.. في نظراتي بالدرجة الأولى.. الى أن أصل الى المنصة ويتخطفني مرج العيون. هناك.. فوق المنصة تتوزع نظراتي في مدى المدرج المحدود. هل شعر أحد منكم مرة بتوزع نظراته.. على نحو يجعله يشعر بنوع من الحول ويرى اليمين والوسط واليسار في آن واحد؟ هل أحس أحد منكم بأن نظراته مرايا تعكس ما تعكس من أشعة؟ هل شعر أحد منكم بالأشعة البنفسجية؟

لا أظن أن أحدا منكم شعر بذلك.. فلم يصل أحد بعد الى الدرجة التي وصلت اليها أنا في عالم الرؤى وفي عالم العيون.. وهي العيون المرايا في الوقت نفسه! والعيون.. المرايا في تجليها كانت دائما درجات النفس والضمير! ولكن أشعة رؤياي ليست على الدوام بنفسجية. لقد أصبحت في هذا المرج.. مرج العيون فوق.. البنفسجية! وتصوروا الآن معي.. في نظراتي وفي رؤياي.. وجها جميلا، ساحرا، باهرا يجلس في مكان ما أمامي.. أعتدت أن أراه بنفسجيا، ولكنه في لحظات وجدي به فوق بنفسجي.. ولحظاتي وجد كامل!

وقد تعجبون لهذه البنفسجيات التي أتحدث عنها، وقد يصعب على بعضكم.. تصورها! الا أنها في تصوري وفي نظرات عيوني شىء واحد.. شىء عادي جدا. والفرق.. آه دائما الفرق! الفرق هو الغرق في مرج عيون.. يبرز من بينها وجه فريد كالجنة! لهذا الوجه وفي هذا الوجه أحاضر وأحتضر و.. أموت! فعلا.. لهذا الوجه اعتدت أن أحاضر وأشعر بنشوة لاحد لها..

حين أرى هذا الوجه المتسلط علي يحتضن كلماتي ومعلوماتي وأحتضنه أنا بنظراتي.. بكل حركاتي المقصودة والعفوية.. وهو هناك في بعده الحيادي، في تكسر نظرته، في ألق ابتسامته.. احتضنه حتى في تثاؤبه البنفسجي.. حين يبعده حبه الخاص عني!

هل عرفتم الآن سبب نظراتي؟ أجل.. هو ما عرفتم! نظراتي تتوزع بحثا عنه. فمنه واليه المحاضرة، والاشارة، والرمشة الشجية.. وكذلك النكتة! الوحي كله منه واليه. وحين لا أجده.. حين يفقد ما حولي أمله في رؤيته، تحضرني أغنية الويل.. الويل.. الويل! ويعروني الارتباك في الحين، وتضطرب جلستي أو وقفتي، وتضيق بي المنصة في مرج العيون. ويغمروني احساس فارغ، وأظل صامتا فترة وفترة.. ويعاودني الحول مرة أخرى! ثم لا أجد في النهاية مناصا من القاء المحاضرة.. وأبدأ محاضرتي على الشكل التالي على وجه التقريب..

.. وكانت المحاضرة الماضية.. محاضرة ماضية! وعلى أية حال كان موضوعها الأدب في عمومه. وقد يكون هناك داع لاعادة بعض فقراتها وايحاءاتها ومفرداتها البارزة. ولكن لا داعي لاعادة ذلك في هذه اللحظة بالذات.. والذات في الأدب.. في الأدب –بالمناسبة– جوهر انساني حي. وكل حي يتحرك وفي حركته ابداع.. وكل حركة من حركاته خلق.. ولو كان محض تصور! ومن ثم يجب أن يتعلم فقرات عضوية وايحاءات اسفنجية.. أعني لها قدرة على امتصاص المعلومات المنبثقة عن المحاضرة الماضية في وقت سابق لوقتنا هذا. ومعلوم طبعا أن كل محاضرة ماضية تعتبر –ولا ريب– مفتاحا لمحاضرة مرتبطة بوجه جميل.. بل بشيء فريد يطل من خلال مفردات أو.. أو أو محتويات المحاضرة الماضية، وقد كان لها –كما لاحظتم– عمق ما، وكانت ممهدة لاشعاعات أدبية قادمة. تلك هي اذن.. بناء على ما هو واضح.. المحاضرة المتوقفة على الوجه السابق!

وتمر بي فترات حرجة، وأنا أردد مثل هذه الأمور، وأتحدث عن أشياء قريبة منها قربا قريبا أو بعيدا، ونظراتي عالقة بالباب أو موزعة من جديد هنا وهناك خشية أن يكون وجهي.. وجه ما أحمل من وجد كبير قد دخل دون أن تنتبه الى دخوله حيرتي.. الحائرة! وأتوقف عن المحاضرة بين الحين والحين لأتساءل، وقد أغرق التوزع ذهني أيضا، ما الذي حدث له؟ ماذا جرى له؟ لماذا تأخر حتى الآن؟ أتراه فعل ذلك عمدا.. بعد أن أدرك أن وجوده ضروري لمحاضرتي؟ أتراه طلب من زميل له أن ينقل اليه اضطرابي وحيرتي وارتباكي وتعثر لساني في.. غيبته؟!

وحين يحضر الوجه الفريد أخيرا.. وهالته تسبقه لتفتح له القلوب والعيون.. حين يحضر تمتلىء أعماقي به، وتهلل لحضوره، وتهيم في أشعة ابتسامته البنفسجية.. تلك الابتسامة التي تختص بادراكها عيناي.. وحدهما! وعندها أجدني أتحرر تماما.. أتحرر من عقال المحاضرة الماضية، وأتغلب على اضطرابي بصورة مذهلة، أصبح سيد الموقف.. كل الموقف! وانطلق انطلاقة واثقة.. فلم يعد ثمة ما يحول بيني وبين رؤية وجهي أمامي. أنطلق.. الأدب في خصوصه.. هذا هو الموضوع الذي سنتحدث فيه اليوم. هذا هو موضوع محاضرتنا اليوم وغدا.. حاضرا ومستقبلا. الأدب عاطفة انسانية صادقة.. ولا يمكن الا أن تكون صادقة.. تزرع في قلوبنا التواصل والمحبة والوئام والسلام والانسانية.. و.. و!

الموت.. سهرة!

شعرت بآلام في جسدي كله، خيل الي معها أنني عاجز عن الحركة. وبما أنني كنت أعرف أن مثل هذا الشعور قد يكون إنذارا، فقد ذهبت الى طبيب، اشتهر بممارسة الطب التقليدي الى جانب الطب الحديث.. وفقا لطبيعة بلاده الطبية! والطب عنده ليس أكثر من أعشاب طبية ناجعة ومفيدة! وبعد أن فحصني لفترة قصيرة نوعا ما، قال لي بدون مقدمة.. مع أني كنت أحب المقدمة في مثل هذه الحالة تجنبا لأية. صدمة! قال لي بلغة مكسورة:

– هو بعد يومين يموت.. على الأكثر!

وكانت كلمة هو.. تعني هنا.. أنت وأنا. وبذلك تساوت الضمائر الثلاثة في مدلولها. اذن.. هو أنت أنا بعد غد، بعد يومين يموت! هكذا بشكل مجاني! أيمكن حقا أن يموت انسان في عز كهولته؟ طبعا.. هذا ممكن، ولكن.. كيف أموت أنا بالذات مع هذا العز الكهولي.. يضاف اليه العز الوظيفي؟! كلا! لا أستطيع أن أرضى بذلك. قد يكون الموت.. رضا، ولكني أنا لا أرضى بمثل هذه السهولة! وحاولت أن أفهم. لم أكن أريد أن أموت بلا سبب. هناك سبب للحياة وآخر للموت. وصرخت معترضا.. أريد معرفة سبب موتي:

– لماذا أموت، أيها الطبيب؟

ولكن الطبيب ردد مع شيء من التغيير.. بصوت قدري حاسم:

– يموت بعد يومين.. أنت! ربما غدا. الدواء لا نفع فيه!

أنا أموت غدا! آه! لا مرحبا بغد ولا أهلا به.. ان كان يحمل لي هذا الموت المجاني! وما له ولهذه النهاية المستعجلة؟ وخرجت من عيادته وكلمة.. لا نفع.. تحدث صليلا مرعبا في رأسي. يا للعجب! كل الأعشاب لا نفع فيها، وكذا الأدوية.. كل الأدوية. وتبقى عشبة الموت أقوى، يبقى لها

الغد أو ما بعده! لابد من انتفاضة تعيد للقلب هدوءه، وللنفس اطمئنانها، وللاعصاب راحتها.. وتبقى للكهولة عزتها!

ووصلت الى مقر عملي منهارا.. أحس من حين لآخر أني أرافق الموت، وأسير على وقع خطاه المتلصصة، ثم أصحو وكأني قد صحوت من.. العدم! لابد من انتفاضة اذن. وفي الحين امتدت يدي الى الهاتف.. هذه مؤسسة الضمان الاجتماعي، وهذه الخطوط الجوية الجزائرية، وهذه.. باريس! فلا علاج الا في باريس! فيه وحدها العلاج لكل الأمراض والأحوال. وما أكثر ما نصح بمجرد الوصول اليها.. ونبرأ من مجاميع أمراضنا الحقيقية والوهمية.. إلا من حبها على القرب والبعد!

وفي باريس اتصلت هاتفيا بأحد أصدقائي، فجاء الي يسعى سعي محب وفي. وبسطت أمامه مصيري في.. غده، وللمصير غد أو هو الغد نفسه! فحاول أن يطرد عن تفكيري الموت.. وأن ينسيني مخاوفه. وعندئذ طلبت من وفائه –بسبب مخاوفي– سهرة أخيرة! فاستجاب الصديق الوفي لرغبتي وهيأ بالفعل سهرة.. وأحضر لي عددا من الضيوف. من بينهم امرأة، تجتمع فيها باقة فنية من.. النساء! فهي كاتبة، ومغنية، ورسامة، وممثلة، ومؤلفة أغاني.. وقمة ذلك كله أنها كانت.. امرأة!

كانت رغبتي اذن أن أنعم بالحياة.. بما بقي من الحياة في ليلة واحدة. وكانت النعمة تعني أن أجرب اليوم كل مشروب، وكل محبوب، وكل وضع ممتع! فهذا شيء لا تقدمه الا باريس.. العافية والهناء.. مع الموسيقى! كنت قد أدركت عندئذ، وبصورة مسبقة، معنى أن يكون الانسان عابر سبيل، معنى أن تصبح الحياة خلاصة، يكون بعدها الموت، كل الموت.. ولا امتداد فيه لحياة. وكنت أفكر، وأنا مقبل على السهرة، أن لصديقي الوفي أن يقول عني بعد أن يصحو في غد: لقد مات وهو يحب الحياة. كان شعاره.. هو بعد يومين يموت.. وياله من شعار!

ومع هذا كله نسيت الموت المتربص.. عندما انسجمت مع المرأة.. الفنانة! وخاصة حين راحت تشرح لي لوحاتها في بيت صديقي: هذه اللوحة التي تبدو فيها مئات الأضواء تمثل الانوار المنبعثة من البيوت القصديرية المقهورة! وعندما عبرت لها عن اعجابي باللوحة، قالت.. انها لا شيء. الفنان يشعر أنه فنان في كل مرة ينجز فيها عمله القادم! وفكرت حينئذ.. أنها حقا فنانة!

وأخذ الدبيب يخطو في رأسي وئيدا وئيدا، وقد زاد من حدته صوت أغنية الليل.. الليل.. يا ليل! فغامرت.. ونقلتها الى حديث الحب و.. الموت! فانطلقت تقول لي.. الحب أعمق من الوحدة و.. الوصال. للحب فلسفة تتجاوز الجسد. وان كان لابد من الموت غدا أو بعد غد. كما تقول.. فمت بحب فلسفي! ولم أجد في نفسي استعدادا لفلسفة ما، ولكني مددت يدي الى كأسي لا شعوريا. أهذه هي فلسفتي الآن؟! وانقطعت بعد ذلك صلتي الواعية بمن حولي من.. النساء!

وعندما صحوت في الغد ووجدتني فوق فراش وثير.. ولا أدري كيف صحوت، خيل الي لأول وهلة أنني كنت مع حورية، كل ما فيها واضح شفاف.. ينضح بعبير أزرق كالسماء. وقد تركت عبيرها في جسدي كله! ولست أدري لماذا كنت أشعر برغبة في الاعتذار اليها في عالمها.. الفنان! ولكنها في احساسي الواعي كانت بعيدة عني بقدر امتداد.. الموت!

ونهضت لأذهب مع صديقي الى المستشفى.. بل ليذهب معي وفقا للموعد السابق. ان أمت فليكن موتي بين أطباء المستشفى في باريس. لكن الفحوص، التي توالت عدة أيام، أثبتت أن باريس سهرة و.. عافية!

الكتابة.. لغوة!

اليوم أريد، وعندما أريد أنا أريد.. ولا أبالي، فالارادة لا مبالاة بشكل ما.. والشكل نفسه يقرره من يريد! أريد أن أفجر احساسكم اللغوي عن طريق تفجير اللغة الأدبية! وكل أدب لغة خاصة الى أبعد حد! والتفجير أفضل الكلمات عندي وأكثرها اصطخابا في رأسي.. وكم جميل هو أن تنفجر و.. تفجر! ذلك هو الأسمى! وأحس أنكم في صمتكم هذا تنتظرون مني أن أريكم كيف أفجر اللغة. وهذا من حقكم علي. سأريكم كيف أفجر اللغة تفجيرا ذاتيا وأفجر معها أفكاركم ومسامعكم المرهفة.. حتى تألف لغة التفجير وتتعود على جرح لغوي من نوع آخر؟

انصتوا الي اذن، فهأنذا أهامسكم، والمهامسة محاولة اقتراب من القناعات الأخرى دفعا وجذبا. أهامسكم بصفتي انسانا، بصفتي مخلوقا بشريا، بصفتي آدميا صائتا بنوع من التفرد وبصفتي عبدا طائعا لارادته! باختصار.. بصفتي انسانا يعي معنى هذه الصفات المعرفية المتعددة، وتنوع الصفات دليل على هوية التعدد بما له من مرتكزات خاصة. وكل هذا مقدمة لمعرفة تعددي الذاتي، فلا قيمة للتعدد إن لم يكن ذاتيا باهرا! وحمدا للعصر الحديث الذي أباح لنا التعدد المتزامن مع قدراتنا وميولنا ومواهبنا المتفجرة في عصر الكتابة الملتزمة!

والكتابة مجرد صفة من صفاتي طبعا. وقد لا تعلمون.. أنتم يا من تعيشون هناك على عتبات الأحداث والأحاديث التي تفرزها الأرصفة المثقلة بالأخبار الناضجة.. قد لا تعلمون أن لي أنا المفعم بالمواهب الخصبة -صفات أخرى كثيرة، أعفيكم في هذه المرة، والمرة تعني هنا أنني قد تكون لي معكم في المستقبل مرة أخرى.. والمستقبل ارتعاشة مقبلة بكل ما.. لها

من زخم أو فراغ- أعفيكم من تعدادها اليوم أو الآن.. فالآن جزء من اليوم.. يسير معه بنفس الوتيرة. وأنتم تعلمون أن التعداد نفسه.. تعدد.. ولو لم يكن الأمر كذلك لتوقف الزمن عند أبينا آدم.. الانسان الوحيد الذي لم تشكوا بعد في وجوده، واعترفتم به في عصر لا يعرف -الى حد كبير- غير تعدد الاجناس والصفات والقناعات والمواهب والألوان!

قلت لنباهتكم سالفا أن الكتابة صفة من صفاتي وأضيف الآن أنها -أي الكتابة- في حد ذاتها متعددة الصفات، متنوعة الآفاق. انها في عرفي زهرة ياسمين تضخ عبيرها في مرافىء القلب الهنيء. وزهرة الياسمين متعددة الأرواق ومتنوعة الصفات. فهي بياض وانشراح ومنظر مغرو.. عطر! وكذلك كتابتي. الا أن كتابتي تنضر وتزهر دائما، لا تذبل ولا تسقط في غبار الموسم، وتعلو وتعلو لتضارع قوس قزح. كتابتي اذن قزحية. ولا ينبغي أن يفزعكم هذا الوصف القزحي.. فهو من خيالات شيطان عبقر!

واليكم الآن تعدد الكتابة.. والكتابة المتعددة، وكل ذلك أنا المتعدد الصفات! فأنا كاتب رواية تسجد الكلمات الملهمة على شفتيه، وكاتب قصة تأكل المسافات المترعة بعدا نور عينيه بصورة مجانية، وشاعر تنبت الخضرة على مشارف نظراته الحالمة، وناقد تقتات المعايير من مصارف ثقافته، ومسرحي تظهر الأدوار من حركات.. أنامله! ألم أقل لكم أن الكتابة عندي زهرة ياسمين.. مورقة حسب الطبيعة الفواحة، وأنا مورق حسب الموهبة المشعة.. فلي أوراقي الخمس كزهرة الياسمين!

ولا أستطيع طبعا أن أقدم لتجليكم في الاستماع الي نموذجا واحدا من رواياتي، فقد تستدعي الصفة صفحات وصفحات.. قبل أن تقول شيئا محددا عن موضوع الرواية.. لكثرة النقط، والفواصل، وعلامات التعجب والاستفهام و.. الجمل الاعتراضية! وليس في وسعي كذلك أن أقرأ لكم قصيدة من قصائدي المورقة.. فالقصيدة يجب أن تكون طويلة طول تجربة الهم في

القلب المبدع، ولا أن أقدم شيئا مما كتبته من نقد خلاق.. يلغي كل القيم السابقة ويدعو الى تأصيل قيم أخرى جديدة. ويصعب علي أخيرا أن أعرض عليكم مسرحية، تثير الغافي والصاحي على حد سواء وتؤلبه حتى على نفسه!

ولهذا تكتفي كتابتي الواعية.. تكتفي بتقديم قصة تهتم بالسرد وتهمل الحوار:

امتصت الوحدة أيامي، وتقلص امتداد قلبي من شدة العشق.. فعشت سنوات وسنوات بلا فجر ولا.. شفق! وضاعت كل آمالي في البحث عن.. القرينة! وعندما بلغت شفة اليأس.. تذكرت كما لو أن اسفنجة منعشة تمسحت بسطح ذهني الملتهب، تذكرت ظل طفولتي وشبابي.. صديقي القديم، الذي فرقت بيني وبينه الأيام حتى نسيته، وربما نسيني هو أيضا.. هذا على قرب الحارة! أخذت نفسي اليه.. وكان غرضي أن أمزق شفة اليأس على عتبات بابه. فقد كانت له أخت عانس، كنت أعلم أنها لا تزال عنده مقيمة.. أشد مما يقيم عسيب! أردت أن أتخذها في نهاية النهايات.. قرينة بعد أن عزت وتأبت بشكل غير منظور.. قرينة القلب الملائمة! وسردت له الأمر باختصار، أي نقلت اليه رغبتي مباشرة، وكنت أظن أن زواج أخته أخيرا أسمى ما تطمح اليه أيامه. ولكن ظل شبابي القديم راح يتشرط.. وكأنه يبيع بقرة حلوبا! فطلب لأخته المفعمة بالعناس المتفجر ثمنا باهضا.. حتى من الناحية العاطفية! واشترط لها تلبية كل تداعيات قلبها وقلبه المشوقين الى كل ثروة ورفاه! طلب لها مسكنا.. يساكنني فيه، وذهبا كثيرا.. وسيارة من أحدث نوع. ترفع السمعة، وتعوض العانس عما فاتها، وتجري أحاديث الناس بذكرها! ولم يكن لي الا أن أترك له العانس القعيد و.. أعود لأصاحب وحدتي وأضيع فيما بين الشفق والسحر!

التمنع.. نظارة!

صعدت الى جانبها في امتحان.. السياقة! وفي الحين نظرت الى وجهها. وإنه لشيء طبيعي جدا أن نتطلع الى الوجوه عندما نتعرف على أناس لأول مرة أو نهيء أنفسنا لوصال وتواصل جديدين! فمن وظيفة النظرة الأولى أن تقرأ الملامح، وتسبر الأغوار، وتستطلع الخفايا، وعلى أساس ذلك توضع المشاريع، وتخطط الآفاق، مؤقتة كانت أو دائمة. المهم أن توضع وتخطط مشروعا لغد أو لما بعد غد، وكل ذلك من أجل.. الصلة! وقد شعرت في لحظة.. تزامنت مع النظرة.. أن لي معها مشروعا، ولو كان في بدايته من جانب واحد، وكل مشروع يبدأ عادة من جانب واحد.. جانب الرجل.. وخاصة اذا كان ممتحنا كما هو الأمر في حالتي هذه، فالمشروع.. رجل!

وساقت بي السيارة، وأفكاري تسير معها.. مع السائقة لا مع السيارة، وتتحرك بحركاتها. وكنت انظر الى صفحة وجهها المتاحة لي وأرسل اليها أنفاسي الحارة، والأنفاس حارة دواما، من بعيد، وقد زاد الخوف والاضطراب.. من إشراق صفحة.. الخد! كنت أرى الصفحة مشرقة على أية حال، وكان هذا الاشراق المضطرب ينعكس على نفسي فيملأها.. أملا وتطلعا الى حدود المدى القريب! وما قيمة الحياة اذا لم تتوفر على نصيب من الانفعال والاندفاع.. والمغامرة؟ وبهرني فجأة ذلك الإشراق، فطلبت منها أن تتوقف الى اليمين. ومع أن التوقف الى اليمين كان أمرا طبيعيا وقانونيا، فقد ذكرني ذلك بأنني في أهوائي وبدواتي يميني حتى.. النخاع! وهل النخاع الا افراز لزج؟ ولكي أقدم الدليل لها ولنفسي على اتجاهي اليميني.. أخبرتها أن اشراقة وجهها ناجحة منذ الآن.. تضمن لها رخصة.. السياقة!

وعندما توقفت أدارت وجهها نحوي.. بكامل اشراقته الخائفة، فقد تصورت أنني أريد أن أمتحنها. وكانت لي حقا رغبة في امتحانها، ولكن امتحاني هذا من نوع آخر طبعا! ونظرت في عينيها طويلا، فلم تستطع مقاومة نظرتي النافذة، فأسبلت جفنيها، فتصورت أني أضع عيني فوق عينيها في.. امتلاء. فالتلاصق استراحة ودبيب، أخذ ورد، وتلمس وعطاء.. حتى في مجالي التصور! وبعد هذه الاستراحة اللذيذة، المتأملة، كان لابد أن أعبر لها عن رغبتي، أن أبوح لها بما تعبر عنه.. إن صعب عليها أن تكتشف ما تنم عليه كل جوارحي. وكانت رغبتي محددة بصورة مسبقة، واذا بها تدرك ما كنت أريد منها.. بسرعة! وسرني الذكاء الأنثوي! فحين طلبت منها أن تخرج معي ليلا لتناول طعام العشاء في مطعم جديد فاخر.. وافقت! وأنا أحب المطاعم الجديدة الفاخرة!

وقدمت لي رقم هاتفيا، فسجلته بعناية وبلهفة، وأنا أقول بيني وبين نفسي بصوت داخلي هادىء.. استريحي أيتها النفس، واطمئني، فقد أخذت الأمور تسير في الطريق السوي، وأنت تحبين أن تتم الأمور بشكل سوي! وطلبت منها أن تعود بي الى مكان الانطلاق.. قرب موقف سيارتي.. الفاخرة. ومن المهم جدا أن تكون السيارة في عصرنا.. فاخرة كالمطاعم والنساء! وصرفتها بعد ذلك على موعد، مشيعا أياها بنظرة و.. ابتسامة مشرقة كاشراقة وجهها بالنجاح في امتحان.. السياقة! وكان من العادي في عرفي ألا أتركها تنتظر إشراقة ابتسامتي مدة طويلة، فاتصلت بها في اليوم الثاني لنضع موعدنا موضع التنفيذ، وقد حاولت أن أجعلها.. من خلال رقة الصوت، وسورة اللهفة.. تشعر باشراقة ابتسامتي عبر الخط الهاتفي المترقب! الا أن هذه الابتسامة المشرقة انتكست بعنف شديد عندما أخبرتني أن زوجها مسافر وأنها لا تستطيع الخروج معي قبل.. عودته!

بعد هذا الخبر، ويا له من خبر! وجدتني أصرخ فيها بصوت عال عبر الهاتف.. ماذا تقولين؟ تنتظرين عودة زوجك؟ ما هذا بكلام يقبل منك. لا أقبل أن تخدعيني وقد جعلت النجاح حليفك في.. السياقة! لماذا لم تخبريني أنك امرأة متزوجة؟ أكنت تتصورين أن دعوتي اياك لتناول طعام العشاء معي صداقة من جانبي لك ولزوجك؟! يا لغرابة هذه الخديعة الفاجعة! وسددت الخط بقوة دون أن أضيف شيئا آخر، فقد كانت أعصابي مستفزة.. ثائرة، أنا الذي كنت قد وضعت مشروعا، وضبطت في نظرتي خطة محكمة من أجل العشاء والاستراحة و.. المناجاة الفاخرة! تم كل ذلك دون أن أعرف أن الأمر سيتم على نحو آخر.. بشكل مغاير حددته هي ولم أساهم في تحديده أنا.. الرجل! لم أدرك لماذا ترفض الخروج معي للعشاء.. بدعوى انتظار عودة الزوج السعيدة، وما كانت بي أنا حاجة الى حضوره؟ وحيرتني.. فلتكن الحيرة من نصيبها على مدى الأيام والسنين! ولسوف تنالها مني أنا نفسي حيرة مرعبة!

وبعد أسبوع قدمت الى دار الولاية لتأخذ رخصة.. السياقة! كانت تعتقد أن قضيتنا قد انتهت عند عذرها الهاتفي وغضبي. كانت تتصور أنني سأتوقف من جانبي أيضا عند هذا الحد. لقد نسيت مخادعتها أياي، ونسيت وضعي في موقف حرج أمام اشراقة ابتسامتي، واشراقتها عزيزة علي جدا.. فهي بالنسبة لي العطاء والاسترخاء! نسيت أنها لم تقدني كما كنت أريد منها ذلك في واقع الأمر.. وتصورت أنها تصرفت معي تصورا سويا، لأنها لسوء حظها لم تكن تعرفني في.. بدواتي! لذلك كان الهول في انتظارها.. هي التي كانت تنتظر الحصول على رخصة السياقة بصبر نافد. ولو كانت تعرفني لتوقعت ذلك مني.. فمشروعي من جانب واحد! وليس من عادتي أن أفرط في قضية أستطيع التحكم فيها!

حين طلبت رخصة السياقة من دار الولاية، قيل لها.. ان عليها أن تحضر خمس صور و.. نظارة! وحاولت أن تدافع عن نفسها بكل ما كان لديها من

قدرة على الكلام، ورغبة في الاقناع.. مؤكدة أن نظرها سليم.. عشرة على عشرة.. وأنها لم تكن بها في حياتها كلها حاجة الى.. نظارة! وهي تستطيع أن ترى وتميز كل شيء بوضوح تام. لكن الكاتبة أكدت لها هي الأخرى -بناء على توصيتي طبعا- أن الممتحن قد وضع خطا أحمر.. ليشير بذلك الى أن السياقة تلزمك الحصول على.. نظارة، ولا رخصة للسياقة بدون اظهارها! وبذلك جعلت رخصتها مرتبطة بضعف البصر ومتوقفة على نظارة.. قد تمتنع عليها فترة محددة بأيام أو.. باشهر!

المــــرض.. خصـــم!

لست ممن يتمنى لك المرض من أي نوع كان.. ومن ذلك الأمراض الخفيفة، التي لا تشغل البال بحدة، ولكنها تتطلب مع ذلك مراجعة الطبيب، ومراجعة الطبيب في عرفنا أمر محبب الى النفس، مريح للضمير، عند الشعور بأصغر وخزة في الصدر، وأهون نبضة في الرأس.. الى درجة أننا كثيرا ما نحرم المرضى الحقيقيين من تلقي العلاج السريع، وهذا لمجرد أننا كنا أسبق منهم الى عيادة الطبيب لا الى.. المرض الموجع! ولعل حبنا لمراجعة الطبيب في الظرفين المذكورين، وقد تكون هناك ظروف أخرى.. ولو كانت مهيأة بطريقة من الطرق، يعود الى احساسنا بما في عقولنا من ضعف، وما في أعضائنا من وهن كسول.. من حيث المصدر على الأقل!

قلت صادقا.. لا أتمنى لك المرض، ولا أرغبه لك، إلا أن المرض لا علاقة له برغبتي، ولهذا فقد يحدث أن تمرض بين ليلة وأخرى، بل بين ساعة وأخرى، مرضا فعليا.. أبعد الله عنك كل شر ومكروه! فأنا أومن بالصحة، وأحرص على العافية، وأرغب في صفاء المزاج، وأميل الى إعداد النفس للعمل.. باعتباره فرحة الحياة عندي! وما دمت لا أتمنى لك المرض، فاني أتمنى لك الصحة ضمنيا.. بشكل عام. فاذا مرضت اذن فانه لا ينبغي لك أن تمرض أقل من أسبوعين أو.. ستة عشر يوما على التحديد! وفيما عدا ذلك فان عدد الأيام المرضية سيخصم من راتبك، سواء أكان راتبك صغيرا أم كبيرا. أما اذا أنت مرضت شهرا كاملا، مرضا حقيقيا أو مفتعلا -فان انقطاعك عن العمل يعد.. عملا له أجرته الكاملة!

نعم.. يومك المريض –يا مريضي، والنسبة هنا من باب التعاطف المحض – له أجرته الكاملة.. فلا تعجب! مرضك يعتبر انتاجا فعلا.. اذا كنت موظفا طبعا! وقد لا يخلو اعتبار المرض الوظيفي انتاجا من.. الخيال الأدبي. ومن ثم لابد أن أوضح لك ما أردت تسجيله: لقد حدث فعلا أن ارتفع ضغطي ـ أنا الموظف، وليس من الضروري أن أكون مثيلا لكل قارىء موظف، فأمراض هذا العصر عديدة ـ ووصل الى أربع وعشرين درجة، بل الى مائتين وأربع وعشرين درجة، فذلك ما تشير اليه إبرة مقياس الضغط، لكننا نختصر حتى في هذا.. لأن الفرنسيين يختصرون، وهل يمكن أن نختصر في شيء لم يختصروه؟ وهل الاختصار يقلل من خفقان قلب المريض، وقد كنت أنا المريض؟!

ارتفع ضغطي اذن فجأة، فأوقفت سيارتي بأعجوبة، وأخذت أردد اسم زميل لي في المؤسسة، وقد أسندت رأسي الى حرف النافذة، ولحسن حظي اقترب مني أحد معارفي ومعارفه وسمعني، فأسرع الى استدعائه. وأقبل في الحال وحملني الطبيب، الذي فحصني فحصا دقيقا، وقاس ضغطي، ثم منحني عطلة مرضية مدة أسبوع واحد، أخلد فيه الى الراحة وانتظر مرور الأزمة بسلام كلي! ولزمت بيتي، ولكني لم أعتبر هذه المدة راحة بالمفهوم المرضي، فقد شغلت نفسي بأعمال وظيفية معينة، لأني كنت في الحقيقة مسؤول فرع في المؤسسة، وكانت لي امتيازات خاصة بحكم المسؤولية المسؤولة.. على مستوى الوظيفة التي أشغلها.. ربما عن تجربة!

وحملت الى المؤسسة ما قمت به من عمل مجد كما حملت شهادة العطلة المرضية الى الادارة.. لإرسالها الى مكتب المحاسبة! وكنت فرحا بما أنتجته خلال عطلتي المرضية وبارسال شهادتي المرضية.. مثل أي عامل من العمال، لأني لم تكن لي رغبة في الامتياز عنهم في شيء! كنت أعتبر نفسي واحدا منهم، فالعامل عامل، وكل من يعمل عامل ـ بغض النظر عن الوظيفة ـ

من القمة الى القاعدة. وأكبر أمنياتي ـ بصفتي مواطنا عاديا.. بعيدا عن كل مسؤولية مؤقتة.. الا مسؤولية حب الوطن، والدفاع عن قيمه، والعمل على تقدمه وازدهاره ـ أن تكون القاعدة عاملة.. وهل تقوم دولة في هذا العصر بلا قاعدة عاملة، هي أساس القمة والقاعدة؟!

ومع كل هذا العمل النشيط، والشعور الصادق، والحب الخالص للوطن.. فوجئت بعد عودتي الى ممارسة عملي العادي بصفتي مسؤولا، فوجئت بخصم من مرتبي! وكان الخصم أياما معدودة.. أسبوعا واحدا حسب الشهادة المرضية، ولكن المبلغ المخصوم كان.. موجعا! بلغ حوالي ألف وخمسمائة دينار.. وكان الوجع في نفسي ثلاثة أضعاف ما بلغه مستوى المعيشة المختل! لقد شعرت أنني قد أهنت! ووقع على حقوقي المرضية، فتوجهت رأسا الى مكتب.. المحاسبة! وذلك لأعبر للموظف عن استيائي من وقوع هذا الخصم الذي تم وأنا في موقع المسؤولية.. فلا ينبغي أن تحدث مثل هذا الأمور دون أن يكون لها أي مبرر!

وما أن حدثت السيد المحاسب ـ والمحاسب من السادة ـ في أمر هذا الخصم، حتى بدأ شاربه المدبب ـ وكانت لي معرفة به ـ يرتعد. ولم أعرف أكان شاربه يرتعد خجلا واضطرابا أم بهجة وارتياحا! وقال لي، والكلمات تخرج من فمه مدببة كشاربه:

ـ كان عليك أن تخبرني بذلك بصفة شخصية، مادمت قد حرصت على إرسال الشهادة المرضية!

فقلت له، والدبيب ينتقل الى كلماتي تدريجيا:

ـ ولماذا أخبرك بذلك؟ الأمر طبيعي. عطلة مرضية مشروعة بلا.. خصم. تلك هي العادة!

فرفع شاربه من الجهة اليمنى، ثم قال:

ـ العادة ليست قانونا. وايمانك بالعادة برهان قياسي ضدك!

بدأت الحرارة ترتفع الى رأسي مع.. الضغط! وقلت له:

– أنا لا أتعامل بالقياس، وانما أحب أن أتعامل بالقانون!

فضحك ضحكة طويلة نوعا ما، وقد خيل الي أن جانبي شاربه يتبادلان الصعود والهبوط كميزان متحرك، وقال:

– القانون قياسي.. يقاس على الجميع. وهذا هو القانون!

قلت مفزوعا:

– ان العاملين معي في المؤسسة يرسلون شهاداتهم المرضية اليكم ولا يخصم شيء من رواتبهم!

حرك رأسه، وهو يلقي علي نظرة، لم أشعر بما فيها من سخرية الا فيما بعد، وأجاب قائلا:

– ان ما تقوله صحيح، الا أن العاملين معك يحضرون شهادتين مرضيتين، لكل ثمانية أيام شهادة. واذا هم لم يفعلوا ذلك فانهم يقدمون الشهادة المرضية الواحدة الى صندوق الضمان الاجتماعي خلال فترة زمنية قصيرة.. ليتلقوا تعويضا منه. وهذا ما لم تفعله أنت، وما كان لأي واحد منا في مصلحة المحاسبة أن يطالبك ـ لأنك مسؤول ـ بارسال أية شهادة مرضية! وكان في وسع كتبة مؤسستك أن يحتفظوا بها أيضا.. لكنهم أطاعوا أمرك في هذه المرة من باب التشفي!

قلت وأنا أحس بموجة من غبائي الاداري.. في مركز المسؤولية.. تجتاح رأسي كشارب مدبب:

– أكنت اذن ضحية القانون القياسي، الذي تحدثت عنه؟

فحرك رأسه الى الأمام عدة مرات، وهو يثبت نظره في:

– الجهل بقانون المرض الجديد.. خصم!

الموقع.. مطبة!

لم يبق في حياتنا ما يدعو إلى العجب، فقد أصبحت الحياة نفسها عجبا، ولا سيما بعد أن كثرت عندنا الدهاليز والمغارات.. أعني الأحزاب والجمعيات، ومن يدرك يا ترى ظلمات الدهاليز ومتاهات المغارات.. مع ما لها من مواقع، ومع ما فيها من.. وخم! ورغم ذلك دعوني أخبركم بأمر قد يغدو من الثوابت.. لما بين البدو والغدو من علاقة، والواو تجمع بين الكلمتين أصلا و.. عطفا! فلا شيء في عرفنا يبدو ولا يغدو، لأننا كنا نتصور الخلاص والحرية شيئا آخر، وإذا الأيام تظهر شيئا.. آخر! وهذه الشيء الآخر سعادة لي وشقاء لك، كراهية لي وحب لك، والعكس في كلتا الحالتين صحيح كل الصحة.. صحة الأزمات التي نعيشها معا، جنبا إلى جنب!

وهذا الأمر الذي أريد أن أحدثك عنه، إن كنت ممن لا يزال يرغب في مواصلة الاستماع الى حديث ما، هو أن أمام بيتي، وقد شاء حظي أن يكون بيتي وظيفيا.. والوظيفة قيذ بالنسبة لمثلي، وكل من يدعو الى جملة مفيدة وحرف نبيل مثلي في.. الوظيفة! ـ أمام بيتي مطبة قديمة، تقع أمام المدخل تماما، ورقم المدخل ثلاثة.. عشر! وهذا الرقم من الأعداد التي يتشاءم منها بعض بني آدم.. سيان أكانوا من الوزن الثقيل أم من الوزن.. المريش! وأعترف أنني، حينما انتقلت اليه بعد إحباطات متتالية، لم أكن أعتبر نفسي كامل.. الآدمية! فالمحيط في بعض مراحله يفقد الانسان كل شيء حتى.. آدميته، ويفرض عليه، وخاصة اذا كان ممن يجنح الى.. السلم!، أن يعتبر نفسه أقرب الى ما دون.. ذلك!

وليعلم من يحب منكم أن يعلم، والعلم طريق الفهم والادراك العميق كما هو طريق الادراك السطحي، أن بيتي ليس دارة، وانما هو شقة في عمارة،

أصبح منظر مدخلها وما يليه شبه محنط، وذلك لما يوحي به من وحشة في النهار، لا تماثلها إلا وحشة ممرات قبر الرومية.. والرومية مصدر تمزقنا في العصر الحديث كما كانت مصدر انقسامنا في العصر القديم شرقا وغربا، سهلا وجبلا، بداوة و.. حضارة! ـ ولما يوحي به من ظلام، لا يشبهه الا ظلام الجهل بلغة الوطن وتاريخه و.. حضارته! فقد فعلت الأيدي بالمدخل ما فعلت.. الأيدي الملازمة له والغريبة عنه.. وعبثت حتى بحاجزه وسلمه وقضبانه.. الحديدية وكأنها قد صنعت من مادة رخوة!

وكانت المطبة، وهي أساس حديثي، ومن حقكم أن تفهموا منها ما تريدون، صغيرة.. في حجم عيني، أو عينك أنت، لا فرق اطلاقا، لابد أن يكون الأمر كذلك، ولكني لم ألحظ وجودها، وهنا يكمن الخطأ الذي نرتكبه في معظم الأحيان، فنحن نوجه دائما اهتمامنا الى الأشياء الكبيرة.. ونعتبر الصغيرة عديمة الجدوى، خالية من كل خطر، بل قد نعدها من المحقرات! وهكذا لم ألحظ وجودها إلا حين اتخذت شكل الحفنة! وللحفنة تاريخ.. ولها ماض عندي، فأنا انسان يعيش ماضيه كله، ويتحرك معه فكرة فكرة وخطوة خطوة! فقد كنت في وقت مضى ـ بَعُد عني وعنكم بمختلف أشكاله الفعلية! ـ أعيش من الحفنة.. حفنة الشعير، وحفنة الذرة، ولا أقول حفنة القمح ـ دامت نعمته! ـ فقد كان القمح آنذاك عزيز المنال.. وقد كاد جيلنا ينسى معنى.. الحفنة!

وذات يوم وقعت في.. الحفنة، سقطت رجلي اليمنى في المطبة، ابتلعت الحفنة كعبها ولوته ليًّا خاصا، ولعل ذلك حدث لأني ـ كما قلت ـ مرتبط بذكرى.. الحفنة! وكانت نتيجة تلك الوقعة أني قضيت حوالي شهر ونصف مع حكة.. الجبس في ساقي كلها.. من الركبة حتى جذور الأصابع، وما هي بحكة لذيذة، لاسيما وأن الأصابع اليدوية لا تصلها، ومن ثم كان لابد أن تُمد المسطرة في بطن الجبس البارد.. للوصول الى نوع من الارتياح يحدث في

غضون الكتلة الجبسية! وشكوت باسمي الدافىء، فقد كان لأسمي في الحي دفؤه!، وباسم جيراني، ومن الضروري أن يكون لي جيران!، الى مسؤول الحي، ثم الى رئيس البلدية، ثم و.. ثم! وظل مسؤول الحي حيا ورئيس البلدية.. بلدية!

وتآكل البلاط في أثناء ذلك من أطراف الحفنة، فأخذت تتسع شيئا فشيئا، وتمتد في كل الاتجاهات.. وتسرب الحفر الى ما تحت المدخل نفسه بهدف الوصول الى أساس العمارة و.. جذورها! وعدت مرة أخرى الى الاتصال بأصحاب النفوذ، واتصل الجيران كل من جهته بمن يعرفه عن قرب وبمن يعرفه بواسطة، وحصدنا، كل من جهته أيضا، ملفا من الوعود.. اتسمت في معظمها بالجدية والاهتمام و.. المسؤولية! وتوالى الحفر والفرم والتقعير، الأرجل تحفر عند كل خطوة تخطوها، والامطار تتجمع في الحفرة.. بل في البركة لتعمق الأغوار، وتبسط الآفاق، والأطفال يطوفون في جنباتها بأحذيتهم المطاطية، يقفزون الى داخلها حينا، ويرقصون في وسطها حينا آخر لاهين، ضاحكين مسرورين بلعبة الماء العكر!

ولم يكن من المتوقع طبعا أن أظل وحيدا في.. الجبس! فهذا متعاون أجنبي.. قادته المصادفة الى المدخل للبحث عن زميل له، فوقع وهو يحاول تجنب البركة، والتوت رجله بشكل محترم، وهذا مواطن يأتي لزيارة صديق من أصدقائه، فيتعثر هو الآخر، فيحمل في سيارة الى بيته.. بل الى المستشفى مباشرة، وهذا دبلوماسي عربي يزور أسرة يعرفها، فيقع وهو يغادرالمدخل، ويصطدم وجهه بجدار جانبي، ويتلقى صدمة قوية في حاجبه، تستلزم نقله الى المستشفى كذلك، وهذا وهذا، وذاك و.. ذلك! فقد ازدادت البركة شراهة عندما سدت المدخل تقريبا وملأها الأطفال بحجارة في حجم الحفنة أيضا، ومن ثمة سرعة انتقابها تحت الأرجل الباحثة عن مستقر لها! لقد مر على ذلك سبعة أشهر، من السهل أن نعدها سبع سنوات، فهي بالغة ذلك ولا ريب، فالحفرة حفرة والموقع.. مطبة، وباب الزيارة مفتوح لكل.. راجل!

البيروقراطية.. شهادة!

عندما وقف أمام شباكي في قامة التحويل الضيقة، ونظر الي نظرة قلقة.. متعالية نوعا ما، ولكل نظرة متعالية عندي حساب لا يحول اطلاقا! لقد أوحت الي نظرته هذه بعدم اتاحة الفرصة له لينعم بلقائي على صعيد الكرامة والمعاملة.. لن يتم له ذلك معي بسهولة على أية حال، والحال، حاله! اللقاء معي صعب، وقد كان وقوفه أمام شباكي صعبا حتى بالنسبة الي، لأنه كان في غير موعده.. وأنا ممن يحترم الموعد في الوظيفة، أعني فتح الشباك، أما الشروع في العمل فشيء آخر.. هناك دائما تراخ ومهلة! والمجيء قبل الموعد و.. طلب انجاز المعاملة مضايقة للموظف.. وتفتيت لرأسه وأعصابه!

لكن أعصابي أنا قوية الى حد ما، قويت ـ زادتها الأيام قوة! ـ بحكم التعود والممارسة والضغط، ومع ذلك فكثيرا ما تضايق من غباء فيئة من الزبائن والحاحهم، وكل الحاح ثقل وغباء! لهذا لم يكن من الممكن أن ألتقي معه من وجهة نظري، فقد كان يحمل أوراقا كنت قد طلبتها منه قبل ما يزيد عن شهرين، قضاهما في جمع هذه الأوراق ولا شك. قد تسألون.. ماذا كان يطلب مني وما هي طبيعة رغبته؟ الحق أنه كان يطلب تحويل مبلغا من المال الى ابنه الذي كان يدرس خارج.. الوطن! كنت قد أدركت مسبقا أنه لا يعلم أن تحويل العمر قد يكون أيسر من تحويل العملة الصعبة.. بعد المآدب الفاخرة هنا و.. هناك! وهذا لا يمنع من أن يكون تحويل العملة طريقا الى تحويل.. العمر!

وقدم لي عند حلول الموعد شهادة مدرسية وشهادة براءة الذمة من.. المنحة ـ فالتحويل مع المنحة.. جنحة. ـ في ورقة واحدة.. وكان الى جانبها شهادة سكن وبطاقة الحالة العائلية. وكان علي أن أدرس مع زميل لي هذه

الوثائق، التي تتعلق بتحويل العملة الصعبة.. ومثل هذا التحويل أمر خطير طبعا، رغم أن قانون المالية يسمح به ضمن حدود معينة. وخلال ذلك كان ينتظر جوابي بصبر نافد، بل لعله كان ينتظر البدء في إجراء المعاملة! وغمرتني الغبطة عندما عثرت على أول اعتراض على الوثيقة الأساسية! الجمع بين وثيقتين في وثيقة واحدة لا يصح، حتى ولو كانت هذه الوثيقة عن بلد متقدم، فأيسر من ذلك الجمع بين وظيفتين أو عدة وظائف في بلدنا!

التقدم لا يعني في نظري تبسيط الأمور وتسهيلها كما لا يعني التطرف! فمن التطرف في الوظيفة مثلا.. الجمع بين وثيقتين في ورقة واحدة. فالموظف له قانون، بل له قوانين يستضيء بها، ويسير على نهجها ولو كان لسيره هذا طبيعة خاصة. واذا كانت هذه القوانين غامضة في كثير من الأحيان، عندنا وعند غيرنا على حد سواء، فان الغموض في الواقع مرونة! غير أن هذه المرونة لا ينبغي أن تصل الى حد الجمع بين الوثائق والصادرات وكل أنواع.. المستندات الرسمية، والا أصبحت المرونة.. تطرفا! أنا مع التطرف في كل شيء الا في المعاملات المصرفية التي أقوم بها وأمارسها يوميا في أوقات محددة!

واستقر رأينا، أنا وزميلي، ولا أقول زميلي وأنا، فذلك تعبير غريب أولا، على ما فيه من ايثار، والأثرة عادة محمودة، وأنا المسؤول في الشباك.. ثانيا! استقر رأينا على رفض الطلب.. رفض التحويل المبلغ المسموح به شهريا! وناديته.. ناديته عدة مرات، لأنه كان قد ابتعد في تعاليه وثورته وغيابه مع أفكاره في.. القاعة الضيقة! كان قد أثاره الانتظار.. الانتظار وحده، ولم يكن يبدو عليه أنه تعلم الانتظار! الذي أصبح أكثر من ممارسة طيعة! لقد أصبح هو الذي ينتظرنا في كل مكان نتجه اليه في أوقات النهار المتباينة. نحن أحياء بوجوده، وهو حي بوجودنا في المكان والزمان و.. الفرصة، وقلما يخلف وعده وعهده،!

وحضر بعد أن نبه الى الصوت الذي يناديه، وظهر وجهه على الشباك ـ وما كنت لأتمنى في ظرف آخر حضوره ولا ظهوره ـ بكل تعاليه، وقد يكون هذا التعالي فيه طبيعة مكتسبة، فرميت الأوراق أمام وجهه فوق سطح شباكي، وهل الشباك شيء آخر غير السطح؟ الشباك يتلقى الوثائق فوق سطحه ليتم فتحها و.. تسطيحها. فما من مواطن متعال ـ وقد يكون غير مواطن ـ إلا يسطح على شباكي هنا وشبابيك أمثالي.. هناك، فيبدو له تقدمه بأوراقه ووثائقه سطحا عموديا! وسطوح الشبابيك تقاوم، مثل السطوح الأخرى، الامطار والعواصف والرعود و.. مختلف الردود والسلوكات البشرية.. وتفرح بلقاء كل مواطن مسطح!

ودفعت الأوراق برؤوس أصابعي نحوه، لأنه لم يلمسها وظل ينظر اليها في ذهول و.. غياب! وقلت له بصوت واضح.. ومصدر قولي ـ كالعادة ـ القانون طورا والاجتهاد والمرونة طورا آخر وفقا للفهم والتمثل و.. الرغبة! قلت له.. هذه الوثيقة ليست مشطرة.. ولم ترق لي هذه الكلمة، كلمة التشطير، فأوضحت.. إنها ليست منفصلة، هي، يعني الوثيقة، تجمع بين شيئين لا يجوز الجمع بينهما، فالقانون لا يسمح بجمعهما. ولهذا يجب أن تصبح هذه الوثيقة الواحدة وثيقتين اثنتين! عليك أن تفصل بينهما، على الجهة المسؤولة أن تفصل بينهما. لا، لا، لا فائدة من الاعتراض، يهمني أن تكون هذه الجهة في الطرف الآخر من الدنيا! القانون في هذه الحالة ـ وفي حالات أخرى ـ مع الانفصال! الشهادة المدرسية ـ وأنا أكلمك بالعربية ـ في ورقة، وبراءة.. الذمة في ورقة أخرى منفصلة. هذا لا كلام عليه! افصل الورقة واجعلها ورقتين و.. مرحبا بك!

وقبل الأمر في همهمة، واستسلم في تعال، وقد شعرت أنه لم يعجبه منطقي ولا منطق قانوني الفردي.. وقانون المالية يبيح تحويل مبلغ معين دون رخصة خاصة. إلا أنه قانون أصبح فرديا. وانصرف دون أن يتخلى عنه تعاليه، ولم يعد الي منذ ذلك اليوم، ويبدو أن استسلامه لقانوني الانفصالي كان.. شهادة!

اللؤم.. فرحة!

كرهته، والكراهية موقف انفعالي لذيذ، كرهته.. ومع التكرار اليومي لهذه الكلمة تنامت كراهيتي له.. حتى أصبحت أحس حروف اسمه قريبة من فمي، بل تكاد تكون ملتصقة بشفتي، رغم أن هذه الحروف، حروف اسمه، ليست مشابهة لحروف الكراهية، فكنت أجمعها من مخارجها المختلفة و.. أدرجها، لعجز فطري في حركة فكي، بين شفتي ولساني، وأمصمصها مرارا، ثم أنطق بها أمام نفسي.. كراهية.. وقد أرسل وراءها تفلة! فعندما تكره اسما، وتكره حتى الحروف التي يتكون منها، حتى الحركات التي تتوالى عليه نصبا وخفضا ـ ولا يطيب لي أن أرفعه أبدا! ـ وإمالة، فان النطق بها يصبح ذا نبرة متميزة، ذا نبرة خاصة تماما، وأكاد أقول ذا نبرة.. لسانية.. تشبه الغناء!

ولقد كرهته لأسباب عديدة، ومن السهل يعثر المرء اليوم على أسباب الكراهية. فكما قد يكون سببها الانتماء والمظهر والمعتقد قد يكون كذلك السلوك والزي والتطرف و.. المنصب! ومع هذا فقد ينتابكم العجب والدهشة، عندما تعرفون أن هذه الأسباب كلها ليست مما يشغل ذهني الى حد.. الكراهية! وقد تعتبرون أسبابي أنا غير منطقية وغير صائبة، ولكنها في نظري أسباب مبدئية و.. مبدئية جدا! والجد لا يخلو من مبدأ ما من مبادىء العصر.. أية صورة اتخذ، المهم اكتشاف ما فيه من حق و.. صواب! وأول هذه الأسباب أنني لغوي.. وكنت أشير الى هذا من طرف خفي عندما تحدثت عن النبرة.. اللسانية! وهو أدبي!

نعم، هو كذلك. العقدة اذن أنه أدبي! ومع أن هناك تعبيرا شائعا، بكثير استعماله عند مراجعة الأعمال الابداعية ومحاولة تقويمها من وجهة نظر عامة أو خاصة.. قد يمكن اعتباره مصطلحا، ويتمثل هذا التعبير في عبارة.. اللغة

الأدبية! مع وجود هذا التعبير فإني أرفضه وأدعو الى تعبير آخر معاكس له هو.. الأدب اللغوي! اللغة هي أساس الأدب! فلا أدب بدون لغة، وليس صحيحا أبدا أنها مجرد وسيلة. هي جوهر كل فكر، هي الفعل والحدث ماضيا وحاضرا ومستقبلا، هي بعبارة أخرى وسيلة وهدف في آن واحد. الفكرة الصافية لغة شفافة، فضاء صحو أزرق.. في صحوه.. تخطر الفكرة والحركة و.. الحياة!

وأرجو ألا يعترض على دعوتي هذه، فأنا أعتقد أنها جديرة بكل اعتبار، فاللغة، أية لغة كانت، تستغني عن الأدب استغناء كليا حين تصبح وسيلة تواصل.. حتى ولو اتخذت طبيعة الأصوات المبهمة والدالة على نوع من التفاهم عند بعض الفيئات الخاصة! أما الأدب فأنه لا يستطيع أن يستغني عن اللغة. وعلى هذا ينبغي أن تكون الغلبة للغة. اللغة أولا ثم.. الأدب، ولا أقبل شخصيا بأي شكل آخر من أشكال الترتيب والتبويب و.. التفضيل! والحقيقة أننا في مستواها اللغوي في غنى عن الأدب! فالمهم عندنا وجود كلمات ذات نسق لغوي محدد، يخضع للطبيعة الصوتية، وليس هناك ما يمنع من بلوغه درجة.. الهمس! ونحن نفضل الهمس في كثير من الأحيان، لأنه يخفي هفواتنا.. النحوية، وقد تكون لغوية من حين لآخر!

ويتفرع عن هذا السبب المذكور سبب آخر، لا أرى ـ هنا أيضا ـ ما يمنع من اعتباره سببا ثانيا وجيها جدا. ولعلكم قد لاحظتم فيما سبق شيئا من الإشارة اليه، وأعني بهذا أن كوني متخصصا في اللغة و.. كونه متخصصا في الأدب، هذا التخصص المختلف يتطلب ـ بحكم الغلبة المذكورة، ومن الواضح أن الغلبة هنا غلبة لغوية محضة، لا علاقة لها بالأفراد أو التكتلات الفكرية والمذهبية والجهوية ـ أن أكون أنا المسؤول عنه المؤسسة، غير أن الذي حدث هو العكس! لقد أصبح مسؤولا عني.. يتحكم في.. وعلى لطفه لا أتصوره، وهو ملتصق بالكرسي، إلا متجبرا متعنتا.. إمساكه بالكرسي وحده كاف لإدانته ومعاداته ومحاربته و.. كراهيته! أكره ما يصدر عنه من أوامر ونواه!

وكنت أنظر اليه، حين يتاح لي ـ والنظر اليه إتاحة! ـ أن أزوره في مكتبه لأمر ما، في تحد، لكنه لم يكن يهتم بهذا التحدي، وكأنه يعتبره جزءا من سحنتي، ويظل ظهره ملتصقا بالكرسي العالي الأنيق.. لما لصدره من اتساع، ولما لجلسته من.. مهابة! هكذا تراه عيناي دائما. وياله من منظر بشع كل.. البشاعة! ولم أستطع هضم وجوده ذاك فوق.. الكرسي، وأضحى هما ثقيلا بالنسبة الي، أحمله في كل حواسي وجوارحي. كل حاسة في، كل جارحة تحن حنينا رهيبا الى.. الاساءة اليه! وكم كان محرقا حنيني هذا.. لا يعرف مداه إلا من جربه! وكان أبرز ما فيه جبينه، ولكم ودت مقدمة رأسي القوية كسر ذلك الجبين!

ولم تكن له من نجاة في خيالي، فكنت أضربه في كل مرة خطر فيها اسمه بذهني، وأي مكان أشعر فيه بوطأة هذا الاسم الأدبي على لساني.. أنا اللغوي المهزوم؟ أواه، أواه، ما أشد هزيمة اللغة على القلب! فأي مدار سلكت أيتها الصاعقة، خبريني.. فإن الكرسي وصاحبه لا يزالان قائمين، شامخين، ماثلين في أفخم مظهر، وأبهى منظر وأبعد.. صيت! لكم جعلتني هذه الاستمرارية في الكرسي أتمنى لو أن لي رقي.. استحضر بها الرعد والبرق والبرد والعاصفة وأرمي بذلك كله في وجهه الألق من.. بعدي المعتاد! ولما طالت علي فترة كرسيه، مدة رئاسته، تطورت في مشاعري، وليس هناك ما يطور الانسان مثلما تطوره الأزمات الحادة، و.. كل ما يقلقك الى حد الجنون يعد أزمة حادة!

لقد رفضته مشاعري اللغوية من أساسه، وأخذت ـ بوصولي الى هذا الرفض، ولو أن الرفض ابتذل.. كما ابتذلت الديمقراطية ولم يكد يمر على ميلادها عندنا عام واحد! ـ أخذت أتهجم عليه بمناسبة ومن غير مناسبة، وأنشر الدعايات عنه بكل أصنافها في المحيط القريب والبعيد. أخذت أخترع له أسماء وأهمس بها في آذان الجامعة اللغوية، ولم أعد أفكر في اسمه الحقيقي، وهذا في الوقت الذي كان فيه يدعونني باسمي في احترام

ويمازحني.. ضاحكا من لغتي.. الناعمة في رأيه! فكنت أعتبر احترامه لي وممازحته.. إهانة لي في موقفي العاطفي واللغوي! وبذلك أصبحت كراهيتي له سافرة، واضحة. مكشوفة أصبحت كل الأوراق مقلوبة!

ولم يبق لي أخيرا الا أن أفصل شخصه عن الكرسي.. ففصلته، وتعرى لي وجوده بعيدا عن الكرسي، وهذا البعد ضروري حتى يكون للشجاعة ما يبررها. صار وجوده نفسه اساءة الي.. الى درجة أن فكي أخذا يتناطحان كلما شمت وجوده في المؤسسة، في الشارع.. باختصار في كل مكان! وفي لقاء عام حضره وجوده مصادفة.. تغلبت على بعدي وهاجمته بحدة لغوية لم يكن يتوقعها، فثارت أعصابه وشرايينه و.. انهار انهيارا أدبيا حقا.. وفرحتي تقتفي انهياره في.. كراهية!

الهجرة.. بومة!

آه، آه، آه.. والتمس منكم في هذه المرة ـ وليس من عادتي أن ألتمس ـ أن تدعوني أرسل، أنا المرسل عبر الزمن ـ مثلكم ـ الى نهاية! ـ أرسل آهاتي هذه، فالآه مفردة كانت أم جمعا! صديقة البشرية منذ الأزل وستبقى كذلك الى الأبد.. أرسل هذه الآه قبل أن أحدثكم عن قصتي.. فلي كبني آدم قصة! ولست أنكر أنكم من بني آدم أيضا، وهو ما يشجعني على أن أطلب منكم ـ والطلب أقل درجة من الالتماس ـ التفهم.. بعيدا عن الخوف من الصراحة، فالطلب رجاء، والخوف هرب و.. في تعرية الجراح راحة وجدان ونعومة بال! وستجدون قصتي غريبة ولا ريب، وغرابتها مشروعة، لأنها تنتمي الى ما بقي في غرابة العصر من.. غرابة!

لذلك سأرويها لكم، وثقوا بأنني سأكون صادقا في روايتي، فالصدق في الرواية اليوم غرابة.. غرابة إيمان وحدث وشعور وفكر و.. آه! وفي تكرار الآه هذه دليل وأمارة على ثقلها علي ثقلا كبيرا كثقل الأشجار المثمرة، ولكن هذا الثقل ليس ثقلا طيبا خيريا كالثمار و.. روحي به شجرة مثقلة! وقصتي تبدأ من الشجرة! ولا يمكنني أن أقول عنها ـ وقد يظن أحدكم ذلك! ـ أنها شجرة حياة. فهي في الحقيقة شجرة.. بومة! البومة اذن مدار قصتي ومحورها الواقعي والنفسي، وقليل منكم ـ وأنتم من بني آدم أيضا كما أكدت ذلك لكم سابقا ـ من يدرك معنى البومة وما تسببه للنفس من وهن وانكسار.. وفتور. قليل منكم ـ بتعبير آخر دون مبالغة ـ من يستجلي هذا المعنى كما أستجليه أنا.. رهين البومة!

قد يتصورني بعضكم ـ وكم من خبيث ووغد بينكم! ـ بومة ترتدي ثوب.. الحداثة! ذلك أن لي علاقة حميمة بها.. بالبومة! ويمكنني أن أخبركم من الآن.. تسهيلا لعملية التمثل والسماع، أن البومة قد أصبحت

عندي، سواء شاء الآدميُّ في أم أبى، هاجسا ملازما! واعذروني إن أنا جعلت الهاجس هنا بومة. فقد كان الهاجس قديما ـ وحضرتكم تعلم ذلك علم الشك فيما أتصور ـ شعرا وحقيقة! ولكم أن تتسقطوا أخبار عدد من الشعراء القدامى لتتجلى لكم هذه الحقيقة، غير أن الهاجس لم يعد كذلك اليوم في عصر الهموم والجراح! الهاجس أصبح كل شيء في حياتنا.. سمكا وسكرا ولحما وزبدة و.. هباء!

عندما يهبط الليل يعتريني هاجس.. البومة! كانت هذه البومة تعيش في مكان قريب.. تصرخ على مقربة من منزلي.. من فوق شجرة من الأشجار. وكنت أسمع صراخها كل ليلة، ولم أكن أسمع صراخها هو هو وووووهو فقط، وانما كنت أراها حين أفتح عيني وحين أغمضهما.. أرى وجهها كما أعرفه من صورها، أرى منقارها المعقوف.. الذي أرعبني، لأنه مصدر الصراخ الى درجة أنني أصبحت أتشاءم عندما أرى.. أنفا معقوفا! وكنت أتصور أن هذه البومة ترهف السمع لتلتقط دقات قلبي الخائف، وتسلط نظرها الحاد على وجهي من وراء حجاب.. لترى تقلصات جبيني، ونبضات صدغي، وحركات شفتي المتمتمتين في خوف وفزع.. وانهيار!

ومع أنني لم أكن أعرف لصراخ البومة سببا محددا، فقد وقر في نفسي دائما أنها تروي ـ بصراخها هذا ـ حكاية الانسان المعذب أبدا في انتظار.. العذاب الآخر! ولعل أهم ما يميز الانسان السوى ذاكرة العذاب فيه.. الذاكرة، التي تدفعه الى البحث عن طريق.. الكرامة! كان صراخها اذن يعذبني، يجعل ليلي صحوا ويقظة و.. صراخا في بعض الأحيان. هكذا كنت أقضي ليالي، وأهلي ينوعون من شخير لياليهم الهادئة.. ولم أكن أجرؤ أن أحدثهم في البداية عن خوفي من صراخ البومة. وبذلك أضعت ما أضعت من نفس منتظم، وليل هادىء، وانبساط وديع.. وكم من مرة تمنيت لو أن الحياة كلها كانت ليلا هادئا وديعا، والانسان يأمل ـ في رعبه ـ أن ينال حتى المستحيل!

كانت البومة تقول لي، أتصورها تقول لي بما يصدر عنها من هو هو وووووهو مرعب.. القدر يهيء لك سفرتك الأخيرة! الموت سيطفيء نور عينيك ويخمد لونهما الحي، اختلاجة شفتيك.. واستغفارا، وقد يحرمك حتى من المهلة اللازمة لذلك! وعندئذ أحس كأن ترابا باردا يطوف بجسمي تحت اللحاف! وأشعر كأن ضبابا نديا يغمر وجهي فأحاول أن أبعده عني بأنفاسي الحارة.. أواجهه ببخار يخرج من فمي وأطارد الضباب بالبخار! ثم أمسك أنفاسي من خشية أن تخرج روحي.. لتبدأ رحلتها الأبدية! كنت أتصور كل هذا وأنا منكمش في الفراش بنوع من الضغط.. كما لو أن أسفلي اختلط بأعلاي! كما لو أني تحولت الى كرة، يستعد القدر.. تستعد البومة للرمي بها بعيدا لتسقط في مدار السفرة الأبدية.

وقمت ذات صباح.. ولما أتخلص من بعض ما رأيته أثناء الليل من سقطات ومحن وأهوال.. بين أرواح غريبة، فأبصرت ما ملأ نفسي بهجة وسرورا. لقد رأيت العمال يسقطون الأشجار، التي اتخذتها البومة سكنا لها.. لتوسيع الطريق الوطني، الذي يخترق قريتي الجميلة. وهل يمكن أن يوسع طريق داخل قرية من غير أن تنهد الأشجار ومعها.. البومة؟ كان هذا يعني أن على البومة أن تكف عن استعجال موتى وأن.. ترحل بدل أن أرحل أنا! أن ترحل هي مادامت تصر على المناداة ليلا برحيلي! وَلِمَ يرحل الانسان وسنة الرحيل لا تزال بعيدة وفقا لمعيار عمر الانسان المتوسط؟ وتم قطع الأشجار وتقطيعها.. فأخذت اليوم كله أحلم بليلي المثقل.. هدوءا!

لكن بومتي كانت، فيما يبدو، كسيرة الجناح، ضعيفة الريش، ثقيلة الذيل والمخالب، أنها لم تحلق بعيدا.. وأخذت أسمع صوتها في أعماقي. والويل كل الويل لمن تدعوه البومة الى الهجرة بصمتها وصراخها في آن واحد! وهكذا جمعت أغراضي وأهلي وانتقلت الى بيت قصديري حقير. أسكنه في أطراف المدينة، فأنا فيه ببومتي الداخلية أفضل من أن أكون في بيت جميل على الطريق.. تصيح في أشجاره الظليلة.. بومة!

التقاعد.. دودة!

لمن لا يعرفني، وهناك العديد منكم لا يعرفونني، أقول ولا فخر.. أنا مجاهد قديم.. قديم! قبل الثورة كنت مناضلا، وأصبحت في أثناء الثورة مجاهدا، لأرجع بعد الاستقلال مناضلا، وأخيرا أنتهي.. كما ينتهي كل مناضل مرسم.. متقاعدا! اذن كنت مجاهدا، والفرق بين الجهاد والنضال طفيف.. لاسيما فيما يتعلق بالخطورة و.. المجازفة! كنت مجاهدا في مراحل كثيرة من حياتي. وأرجو ألا تكونوا، أنتم يا من تستعرضون كلماتي البسيطة هذه، ممن ينفرون من الجهاد! فأنتم في واقع الأمر تنعمون ـ وان لم تعترفوا بذلك، ولا أظنكم تعترفون به في مستقبل الأيام، فالمستقبل لكم.. ولا إثم في ظني مادام جهادا! ـ بجهادي وبجهاد أمثالي.. وأنا فيما يخصني لم أكسب من وراء هذا الجهاد ناقة ولا جملا.. عكس ما فعله غيري!

وكان بودي أن أبقى مناضلا.. ولو في واجبي اليومي المحدود كما تعودت عليه، لكنني حوصرت من كل الجهات.. حوصرت في عملي، في صداقاتي، في مصالحي وفي.. هواياتي! حتى ممارسة الهوايات قد تحتاج عندنا الى اذن، وكل اذن ـ عندنا أيضا ـ علاقات في كل مرافق الحياة! ويندر أن تنعم ـ من غير علاقات حميمة ـ بالموجود وبغير الموجود، فالعلاقة تجعل كل شيء موجودا. ولا يصبح الوجود ممكنا إلا مع الموجود.. دون أن تكون هناك ـ وا أسفاه! ـ علاقة صوفية! والحصار في الوظيف وفي العلاقات الاجتماعية والممارسات الفكرية في كل الأحوال.. عمل لا يليق بانسان بله.. مجاهد نظيف! وتزداد فداحة هذا الحصار حين يتحول الى.. إحالة!

لقد أحالوني على التقاعد.. فخيّروني بربكم كيف يحال على التقاعد المناضل، المجاهد، حامل النار، وجالب الاستقلال؟ وأرجو ألا تعتبروه في

شخصي جلابا، فوطن المجاهد لا.. يباع! إحالة المناضل على التقاعد تعني بالنسبة اليه الاهانة والفصل والابعاد.. وهل هناك ما هو أشد هولا من أن يفقد المناضل سمة النضال وفي يديه قوة المسك والرفع والدفع؟ من لم يناضل لا يمكنه أن يعرف قيمة النضال وسموه وحقيقته و.. قداسته! ولا ينبغي لكم أن تنزعجوا من كلمة القداسة، فحب الوطن من الايمان و.. النظافة من الايمان و.. الايمان قداسة! أتراكم في حاجة الى من يذكركم بكل ذلك؟ أم أنكم أصبحتم ـ في فوضى.. الحرية ـ في غنى عن التذكير؟

ولتغطية غضبي من قضية إحالتي على التقاعد.. غضبي على من كان السبب، وأنا لا أكاد أتجاوز الخمسين من عمري، والخمسون عمر من أعمار الحكمة حتى في حالة.. الجنون! وكم نحن في حاجة إلى كل عاقل مجنون! وما أروعها من حكمة.. تلك التي نسمعها من مجانيننا في الأسواق والطرقات والمنتزهات، وهم في قمة جنون الكلمة والحركة! لتغطية غضبي حاولت أن أقنع نفسي بأنني في حاجة إلى راحة مبكرة، والراحة أفضل طريقة للتخلص من ظرف غير ملائم.. وهي لا تعتبر في حالتي انسحابا أو هروبا، فالهروب من وضع معين قد يكون محمدة، وإنما تعتبر راحة مفروضة.. على ما فيها من عنت وبشاعة!

هكذا مرة أخرى وجدت نفسي مع نفسي، ويصح أن أقول هنا ـ مادام القول عندنا غير ملزم.. مادام اعتباطيا أساسا ـ وجدتني مع نفسي وحيدا. وأعترف أني حمدت الله على ذلك، فالوحدة الفردية، الوحدة مع النفس، أقل قسوة من الوحدة الجماعية.. الوحدة مع أناس تشعر بالغربة بينهم بشكل مريع! وتصوروا أن وحدتي مع نفسي استبدت باليد الطولي وفازت بالغلبة، وجعلتني أضج وأصرخ ـ في أوقات معينة ـ بزوجتي وأطفالي عوض أن أكرس تقاعدي لهم! الناس في غير عالمنا المتخلف يتخذون من التقاعد منطقا لدراسات جديدة وأعمال أخرى في كل المجالات.. تفيد

الفرد وتفيد المجموع، أما عندنا فهو ثورة دائمة على الغير واستسلام لأهواء النفس وحاجات الجسد!

المقاعد يستسلم عندما ينسد باب الكسب، وتنتهي الوظيفة في المؤسسة! فلم يكن من عادتي أن أهتم بشراء ما يحتاجون اليه في المنزل، كنت أترك ذلك للأطفال ولصاحبة البيت.. ذلك كله لم يكن مما يدخل مجال جهادي ونضالي! دائما كنت أفضل أن أكون في وظيفتي كالنحلة.. حيويا نشيطا ملتزما طيعا، لأن ذلك عمل أقوم به وأنفع به.. وأكون مسؤولا.. أمام وظيفتي، وحبّ الوظيفة يصبح مع الوقت كالنفس والضمير، ومسؤولا أمام من أعمل تحت اشرافه. أما التقاعد فلا يرجى منه خير لأحد ولا تقبل منه فائدة.. حتى ولو كانت بدون مقابل! شعار من يحيلك على التقاعد.. أرحنا من وجهك وابتعد عنا ودعنا نعمل! كل واحد يرفع مثل هذا الشعار، وهو لا يعمل.. وكأن بينه وبين العمل عداء!

نعم، يستغنى حتى عن فائدة المناضل المجرب.. والنضال تجربة حية، جديرة بالاحترام و.. العناية! ولكن هل من العناية أن تحيل مجاهد على التقاعد لأنه بلغ سن التقاعد في عرف النضال لا في عرف العمر من جهة، ولأنه رفض النصب والاحتيال و.. مص رؤوس الجمبري مجانا وعلى حساب المؤسسة في مرفأ جميلة الجميل من جهة أخرى؟ قد توافقوني ـ ان كنتم ممن يحب العدل ـ على أن ما حدث ليس عناية، وانما هو نكاية! كان نكاية قصوى بنضالي! وما أمر أن تبعد عن هوايتك المفضلة بحكم القانون، وقد كانت هوايتي العمل ضمن مجموعة.. أن تبعدَ ولا تجد من يعطف على ماضيك و.. حيويتك!

لقد استسلمت ـ كما ذكرت ـ مرغما، على نفسي، وأخذت أهتم بحديقة منزلي و.. أمنحها العناية الكاملة، أنقيها من كل الأعشاب الضارة، وأحاول أن أزرع فيها ما يحلولي، الا أن دودة ما تأكل مغروساتي الطرية و.. أخرى تأكل أيامي.. الفتية!

الطـواف.. حـركـة!

أحرمت فوق مرتفع بظاهر جدة.. فقد كان ذلك من شروط عمرتي.. الأولى! والظاهر درب معتم الى الباطن في معظم الأحيان، ولكنه كان شفافا في هذه المرة، لأنه يقود الى جدة! وجدة مرفأ لكل روح تائبة، قانتة، مطيعة، متعبدة، مستسلمة، ظمآي الى.. المغفرة! والمغفرة ـ وكم سابغة هي ثيابها عنده.. تبارك اسمه وتعالى جده ـ طريق سوي، واضح، بين الى.. الجنة! وهل يمكن أن تكون الجنة مستقرا لشيء آخر غير الأرواح المقرة المعترفة النادمة؟ وهل يمكن أن تكون هناك روح تصل الى جدة بنية العمرة ولا تكون ورعة محتسبة؟ قد يحدث هذا قطعا.. وخاصة في عصرنا، ولكني أنا لم أفكر في ذلك بظاهر جدة، وليس من الضروري أن يكون ظاهرها باطني!

ومضيت نحو هدفي بسيارة متأنية الى حد ما، لا تذكر سرعتها بسير الناقة على الاطلاق! وكان سير السيارة متأنيا، لأن حرارة الشوق الى البقاع المقدسة، والى مهوى القلوب والوجدانات يجب، فيما خيل الي، أن تروي ببطء وهوادة! وكان هدفي مكة، ومكة أسمى هدف في حياة كل مؤمن ورع.. والورع صلاة! وكانت مكة دائمة مكرمة، ولا يمكن الا أن تكون مكرمة.. إذ نحن ننتمي الى عصر، يعيش الانسان فيه ـ طوعا أو كرها ـ في وحدة عنيدة.. وكل شيء عنيد في عصرنا حتى.. الغنى والفقر! وهذا بعد أن فقد إيمانه أو ثقافته أو كليهما معا وتعود على نوع من الانحلال.. ظاهرا حينا ومغلفا حينا آخر، والتغليف يفضي الى.. العمرة! يفضي اليها باعتباره مكاسب وتجاوزات وامتيازات! ولا تعتبر حالتي أنا شاذة!

نزلت في فندق بباطن مكة.. وباطن مكة ظاهر الحرم الشريف، وهنا كان هدفي أيضا أن أصل الى باطن الحرم، وكم في الباطن من تجل.. غامر! لقد

تجلت المغفرة في باطن الحرم، فدخلته قاصدا محتسبا. إنها لروعة منقطة النظير أن يدخل انسان ـ كيفما كانت عقيدته الخاصة ـ حرما يحس فيه أن روحه المهتدية هي التي تقوده؟ كنت بطبيعة الحال حريصا على أن أدخل الحرم، ولو أني لم أكن قد فهمت معناه كما ينبغي.. لم أعرف بشكل خاص ما يقتضيه من مناسك وتعبّدات. فقد تعلّمت إسلامي من كتاب وضعه مسيحي، وتصوروا مسلما يتعلم دينه من مسيحي لجهله بلغة القرآن الكريم؟ وتعلم الاسلام من مسيحي كتعلم تاريخ الوطن من مؤرخ أجنبي مصاب بهوس الحس الاستعماري!

وأي حس استعماري هو!؟ ولا عبرة بالحس الوطني ـ إن كان المؤلف مواطنا ـ مادامت طريقة التعبير عنه أجنبية! وأي حس وطني أو ديني لا تستطيع أن تدعو معه إلهك باللغة التي اختارها لدينه الحنيف؟ إن في ذلك ولا شك بعدا كبيرا عن الحس الأصيل! أُقرُّ بهذا.. وإن كان لي في الجهل بهذه اللغة.. ذنبي الثقيل! وكان حسي أنا صادقا.. وازداد عندما دخلت الحرم الشريف وواجهتني الكعبة.. البيت الحرام والمفخرة والمزار والمطاف.. كل هذا كنت أعرفه مسبقا ـ ثم وجدتني داخل الحركة الدائرة.. أنا الذي لم أتعود ـ بحكم عملي الوثير ـ على كثرة الحركة! ولم تلبث هذه الحركة الدائرة أن نالت إعجابي.. لما فيها من حماس نشيط! واندفاع خاشع، وصوت متعبد!

وارتبطت بالحركة الطائفة ارتباطا تاما، وبما أن هموم الدنيا كانت عندي دائما أقوى من هموم الآخرة، فقد أعاد هذا الارتباط الى ذهني كل آثامي المتمثلة في مظاهرها الصغرى.. في الاختلاسات، والتحايلات والمضاربات حلالها وحرامها، والخيانات، والايقاعات المهلكة دونما سبب، وكل ايقاع بالغير هَلَكَةٌ، وفي مظاهرها الكبرى.. في الاغتصابات الوجدانية والجرائم، بل الجنح ـ فلا ينبغي تكبير الأمور ـ المهنية، والنجاحات الميدانية الخاطفة، والمتاجرات المدرّة وما أشبه.. وكل هذا في مختلف الوظائف العالية التي

أتاحت لي وساطاتي أن أشغلها في الداخل والخارج، في الظاهر والباطن، في السر والعلن وما أشبه ذلك أيضا! فالقوائم العصرية تبيح كل شكل من أشكال الطول والامتداد!

واندفعت بخشوعي في موجة الطائفين.. حول الكعبة الشريفة وهي المغفرة عندي! أردد ما يقوله المطوف بصوته الجوهري.. نعم، الجوهري وليس الجهوري، فقد كان بالنسبة الي جوهريا قبل أن يكون جهوريا.. كنت أحس لصوته رنين الجوهر في أذني والتماعه في أعماق روحي! ولعل ذلك جاء من إيماني الجوهري في تلك اللحظات.. رغم أني لم أكن أتصور ما يقوله المطوّف من كلمات خاشعة، حتى أشعر بالخشوع الصادق على أساسها، فالخشوع كلمات.. وقد كانت هذه الكلمات جزءا من إحساسي وادراكي وتعبدي! أجل.. ولكن بلغة أجنبية لا تنقل صور العقيدة على نحو مرض لا في اللفظ ولا في المعنى! وقد رأيت عيونا تريق دموعا مخلصة.. خشية ورهبة! وقد لاحظت أثناء الطواف أن ترديدي لما كان يقوله المطوف لم ينل رضا جاري.. لم يحرز على إعجاب من كان يطوف بجانبي، فقد كان محمرّ الوجه، متصلب النظرة، يكتم ضحكة تودّ أن تنفجر بعنف، ثم يطلقها على شكل نحنحة حينا، وعلى شكل بقبقة حينا آخر.. دون أن يهتم بانصباب كلمات المطوف واتساقها وايقاعها الساحر! ولم أهتم في البداية بجاري الملاصق لي، ثم نكزته بمرفقي ونظرت اليه بوجه محتقن، فقد كدت أضحك للطريقة، التي كان يضحك أو يكتم ضحكته بها.. وكانت تلك النظرة الواحدة كافية لأن تجعلني أدرك بسرعة أنه من أبناء العمومة الضالين مثلي حتى في الحرم الشريف!

ومع ذلك لم أحاول الابتعاد عن ابن عمي، كانت هناك فرحةٌ ما تشدني اليه، وحرصت على أن أستمد العون ـ بالاستغفار ـ على المقاومة.. طلبا للصبر والقدرة على مواصلة رحلة الطواف الطويلة.. مستلهما الرشد

والمغفرة.. لاسيما عند تقبيل الحجر الأسود والسعي بين الصفا والمروة.. ولست أدري لماذا كنت أتذكر من حين لآخر قصة آساف ونائلة، التي حدثني عنها أحد معارفي قبل القيام بالعمرة! وشعرت بالتعب الشديد.. عكس ما قيل من أن الطائف لا يتعب.. أيرجع ذلك الى قلة معرفتي بمناسك العمرة؟! وسألت جاري بالفرنسية:

ـ ماذا نفعل الآن؟

ـ عليك أن تتبع الحركة!

وما أن حركت رأسي استغرابا، لأن الحركة كانت قد طالت، حتى سمعت خلفي صوت معتمر ـ من أبناء العمومة أيضا! ـ يقول بالفرنسية:

ـ عندما تكمل الطواف سبع مرات، غادر الدائرة مهما اتسعت، فالطواف.. حركة خالدة!

النظـرة.. قــرار!

كنت جالسا في سيارة وظيفتي.. في طريقي الى البيت، وأنا لا أحس بقيمتي الكاملة إلا في سيارة وظيفتي! ولوظيفتي سيارات عديدة بطبيعة الحال، ولكني أختار دائما ـ بنظرة واضحة ـ أكثر هذه السيارات فخامة! حدة الخيال ضرورية لتصور ما في وظيفتي من.. فخامة! ولدى منها أشكال وألوان.. فخامة الدخول والخروج.. وفخامة الاقبال والادبار، وفخامة الجلوس والوقوف.. إضافة الى فخامة الاستقبال والحديث والضحك و.. المزمزة! وليس في فخامتي انتفاخ ولا ترفع ولا تطاول ولا ورم، فقد أصبحت فخامتي تبدو ـ لتمرسي في الوظيفة و.. السيارة ـ بمثابة الحركة العفوية، وكل حركة تصبح عندي بالممارسة والمثابرة أيضا عفوية.. حتى في مط الشفتين تأنقا واعجابا و.. دلالا!

ومن حركاتي العفوية هذه جلوسي.. في الخلف! فمثل هذا الجلوس فخامة الاستراحة و.. الاتكاء! وان أنت رأيت شخصا وظيفيا جالسا الى جانب سائق السيارة الوظيفية فاعلم أنه الى سائق هذه السيارة أقرب منه الى صاحب الوظيفة.. السيارة! وجلوسي في الخلف يتيح لي أن أنظر يمنة ويسرة، وكم أحب أن أنظر في فخامتي يمنة ويسرة.. ورأسي لا يكاد يتماسك من.. تمايله! فحركة النظر المزدوجة هذه عندي.. في وظيفتي الرفض والاباء، وتكرارها يعني ـ بالمناسبة ـ الاصرار على الرفض القاطع، غير أني كنت في هذه المرة أنظر من مجلسي في مؤخرة السيارة يمنة ويسرة لمجرد التسلية واختصار الطريق.. ذهنيا! فمن طبيعة الذهن أن يقلق حين يتباطأ.. الوصول!

ولا ينبغي أن يفهم من هذا أنني لا أنظر الا.. جانبيا! لا أنظر لا الى الأمام ولا الى الخلف، فالحقيقة أن النظر يمنة ويسرة ليس أعز عندي من النظر أماما وخلفا. أنا أحب النظر في كل الاتجاهات، وأفضل الاتجاهات الأربعة، ولا

أقول الجهات الأربع، لأن الاتجاه فيه شيء من.. الذاتية.. بينما الجهات تبقى بشكل ما حيادية! في هذه الاتجاهات تستطيع عيناي أن تأطر -بشغف- كل ما هو جميل رائق من.. قد وخد ووجه وشعر وساق و.. عجيزة! وقد يكون هذا الجميل مجرد شجرة عتيدة أو.. عمارة جميلة! يتوقف النظر والقلب والاتجاه عند مظهرها الفخم!

ذلك ما تستطيعه عيناي في مختلف الاتجاهات، لأن نظراتهما دقيقة الحركة.. تتحرك كالبوصلة وكنظرات الصقر.. هذا التشبيه أنسب لما سأتحدث عنه. ونظراتي تحرص على أن تتقيد بالجهات الأربع وحدها.. لا بالجهات المختلفة، وقد لا يدرك البسطاء منكم معنى هذا.. التقيد! لذلك لا أرى مندوحة لي من توضيح ذلك.. والمشاكل لا تأتي -حين تأتي- الا من كلمة ذلك، التي تعني الآخر كما تعني البعد في الوقت نفسه، وهذا رغم دلاتها على القرب بصفتها السبب المباشر للمشكل.. المشاكل التي أعاني أنا منها أو تعاني منها أنت! ألا نقول ذلك الموظف من أي نوع كان.. فعل هذا الشر أو ذلك مستغلا وظيفته؟ من حقكم أن تتصوروني أنا الآن.. ذلك الموظف!

الجهات الأربع تذكرني بشيء لا يمكن أن يخطر ببال واحد منكم.. ولو كان من الأولياء، وما أكثرهم اليوم في.. القرية والمدينة! سيما هم في وجوههم من أثر.. الآثار! تذكرني حركة اليمنة واليسرة، حركة الامام والخلف برسم.. علامة الصليب. قد يصدم هذا الاعتراف أصحاب.. الولاية! ومع ذلك فهذا هو اعترافي بلا محاباة أو دجل أو نفاق! لست أنكر أني في حقيقة أعماقي من أتباع حضارة الصليب في كل شيء بلا! استثناء! فالنعم كلها منه، الحياة الحقة كلها منه، نعمي في وظيفتي، وحياتي في غير وظيفتي.. هو وحده أخرجني من البطالة الى الوظيف، من الفقر الى الرغد، ومن لا شيء الى شيء، وذلك حين علمني لغته، وحضارته، وأدبه، وتاريخه، وعلمني قبل كل شيء.. عقيدة الايمان بالحياة!

وعصمني بذلك من تعلم لغتي، وحضارتي، وأدبي، وتاريخي و.. عقيدتي! وبفضله أستطيع اليوم أن أتحدث عن هويته بكل تفاصيلها، فهويته هويتي.. بعد أن أخرجني من جلدي.. لأن دباغة جلدي كانت دائما نتنة.. وكانت غير مصقولة، وغير ملساء، والجلد ليس شعرا ولونا ومسام فقط، وانما هو أكثر من ذلك هو الخروج من التخلف ـ ولو كان ذلك مظهريا! ـ ودخول الوظيف و.. السيارة! وعلى هذا فان حركة رأسي في الجهات الأربع كانت اعترافا مني بجميل الصليب علي، وعلي، وعلي! أليس المهم أنا؟ أنا الذي تعلم كيف ينظر ويقرر؟ وفي إحدى النظرات.. نظراتي الصليبية أبصرت عمارة بيضاء.. ذكرتني هي الأخرى ببياض أجنحة الملائكة، ولم أر من الملائكة إلا.. اجنحتها البيضاء! فخفق قلبي.. كالأجنحة!

ورأيت جناحي الابيضين ـ وأنا الساكن المتحرك في خلفية السيارة ـ يرفرفان في فناء العمارة وشرفها! فصحت بالسائق، الذي أدركته حمى السياقة بعد انفراج.. قف، قف، قف، يا رجل، لقد وصلت الى منزلي! فوقف السائق جانبا، مستغربا.. وعلى شفتيه سؤال كبير جدا. ولكن سؤاله الكبير عرف جوابه.. حين أخبرته في ثقة مطلقة أن هذه العمارة البيضاء من نصيب وظيفتي فوق كل اعتبار، وفوق أي مواطن يسكنها! أنا صاحبها الموظف.. ولا أقبل بوظيفة أخرى غير وظيفة امتلاكها والحصول عليها بقوة الأمر وبحد المنطق القوى! والقوة في خدمة الأمر والمنطق و.. الطموح! ولم يبق اذن الا تنفيذ الأمر الصريح!

وأرسلت من يطلب من السكان اخلاءها فورا أو.. الى أجل قريب جدا، فاستجاب البعض، ورفض البعض الآخر في تحد مثير.. رفضوا مغادرة العمارة دون تعويض مناسب! لكن القوة لا تقبل القيد ولا الشرط ولا العوض، ولذلك أرسلت اليهم الحماية المدنية لتخرجهم من عمارتي البيضاء.. فنظرتي الصليبية ـ بناء على ما سبق بسطه ـ قرار حاسم!

العفة.. تهمة!

لا أنكر أن لقصتي أكثر من قصة مماثلة، وذلك نظرا الى ارتباط الموضوع بالهدف داخل أمثال هذه القصص.. الحميمة! الا أن هناك اختلافا بينها كلها بدون استثناء من حيث الطريقة والأداء و.. العاقبة! ومن هنا أرجو ألا تعتبر قصتي هذه تكرارا لغيرها من تلك القصص، التي تدور حول الموضوع المتعلق بالنظر والقلب والروح و.. الجسد! فقد كان لي ـ في قصتي ـ مفاهيمي ومبرراتي الخاصة، ولا يخفى على أحد ما لمعظمنا اليوم من مفاهيم ومبررات، خاصة في الدين والسياسة والسلوك و.. الحياة! وكل واحد منا يحرص على أن تحترم مفاهيمه ومبرراته ولو كانت منافية لكل ما في الحياة الحقة من خير وطهر وقيمة و.. جمال! وأرجو ـ وقيمة الرجاءفي الاعادة مرة ومرة ـ ألا تُقْرأ قصتي هذه إلا على ضوء هذه المقدمة!

تنقلت في سفاراتي بين بلدان عديدة، وكانت لي في كل بلد ـ وفقا لما له من خصائص ومميزات ـ شهوة ونزوة وقهوة.. وهي كلها بمعنى واحد تقريبا، فليس من الضروري أن تكون القهوة سائلا أسود.. القهوة تمثل عندي كل ما يشتهي في كل.. زمان ومكان! وكان آخرها، آخر هذه البلدان، بلد أشقر! وكانت قهوتي المشتهاة فيه.. كاتبتي المتعاقدة! وكانت نزوتي أن أكون وطنيا حتى في اشتهائي وعشقي، أما شهوتي فكانت تقتضي مني أن أنتفض وأحلم ـ والحلم يتبع الانتفاضة ـ بين أحضان.. بلدي! ولا ستر للانسان الا في حدود وطنه المادية والمعنوية، الداخلية والخارجية، النفسية والجسدية، وتلك هي الطريقة الوحيدة للوصول الى التمثيل السليم! فكاتبتي لم تكن بنت البلد الأشقر، وانما كانت بنت.. بلدي! والستر كل الستر في.. الكاتبة وفي السفارة!

لقد أعجبت بها منذ اليوم الأول، الذي التحقت فيه بالبداية.. بداية الوظيف، وكان الوظيف.. اعجابي بها! اعجابي بها هو الذي وظفها.. هي الكاتبة الفاتنة الشقراء! وفيما عدا هذا لم تكن لنا.. لي حاجة كبيرة بها! ولكم أن تتوقفوا فعلا عند صفة.. الشقراء! فبنت بلدي شقراء في بلد.. أجنبي أشقر! والشقرة مشتهى كل قلب.. جنوبي! واقتصر الأمر بيني وبينها.. في بداية القصة ـ وأجمل قصة قصة مع الجنس الآخر ـ اقتصر الأمر على النظرة والبسمة والمزحة والمدحة والغمزة! طبعا الغمزة تتطلب ـ لما تتميز به من وضوح ومباشرة ـ أن ترافقها الضحكة المنطلقة وهزة الرأس.. المتباطئة! كانت اللطافة تتولى ـ في تصوري ـ نوعا من المراسلة بيني وبينها.. وهي سر الميل الخفي!

ولم يبق الاعجاب مع مرور الأيام اعجابا، ولا بقيت اللطافة بالنسبة الي مجرد ميل خفي! وهذا ما أخذ يدفعني الى التردد الى مكتبها حين يكون لديها عمل ما بصفتها كاتبتي الخاصة ومالكة أسراري المهنية.. أو الوقوف بباب المكتب للنظر اليها ثم دعوتها الى مكتبي بعد انتهائي من استقبالاتي اليومية.. بسبب وبدون سبب! ولكنها ـ مع كل هذا ـ لم تفهمني و.. لم تصدر عنها أية كلمة أو التفاتة على أنها فهمتني وعرفت ما أريده منها.. رغم أن سلوكها معي، حديثها الي، اطراؤها لي كان يدل على أنها مستعدة لأن تمنحني شقرتها وتريحني مما بي اليها من رغبة واشتهاء ولهب ونزوع!

وأخذت ألمح لها بنزوتي من طرف خفي، وأجند كل جوارحي للاعراب عن رغبتي فيها.. أنا الذي يريد أن يبقي سمعته ـ فيما يخص هذا الأمر ـ نقية في البلد الأجنبي الأشقر! فكنت أحاول أن أبقي دفء يدها في راحة يدي كلما مدتها لمصافحتي، إلا إنها كانت تسحب يدها بسرعة.. الأمر الذي لم يكن ينسجم مع تصرفاتها الأخرى.. حتى فيما يتعلق ببعض الكلمات التي لا تقال إلا في ظروف معينة! وعندما تكرر هذا الأمر من جانبي أصبحت لا

تخفي امتعاضها من ابقاء يدها في يدي. وعندئذ قررت أن أقوم بعمل توقعت له أن يدفع بها الى حيث أريد! فمنحتها وظيفة كاملة.. رسمتها في هيئة السفارة.. التمثيلية! لاستجابتها.. بل رغبة في استجابتها هيأت لها هذا الظرف، ظرف الترسيم!

لقد هيأت هذا الظرف لنفسي أيضا، وهيأت لي الظروف ظرفا آخر، كان من شأنه أن يخدم رغبتي، هو أن زوجها ـ هنا يقتضي السرد أن أخبركم أنها كانت متزوجة! ـ دعي الى الالتحاق بالجامعة بعد انتهاء المدة المحددة للانتداب! وبذلك أصبحت ـ لتوفر الشرطين الذاتي والظرفي ـ منتدبا لها، لأنها لم يكن في استطاعتها أن تعود معه الى الوطن.. لوجود طفليها في وسط السنة الدراسية باجدى مدارس البلد الأشقر. وكان من الطبيعي والحالة هذه أن أستأنف محاولاتي.. وأن أذكرها بفضلي عليها وبأن زوجها قد عاد لأداء واجبه، وأنها أصبحت مثل امرأة في حاجة أكيدة الى رجل وأنه لابد أن يكون هذا الرجل أنا.. ففي ذلك ستر منا وبقاء سمعة ظاهرة وسر مكين!

وكنت أظن أنها لن ترفض ما يجب عليها وصله على.. أجمل طريق! توقعت أن تتمسح بي قريبا مثل.. القطة، ولاسيما بعد أن قررت أخذها معي في الاستقبالات الرسمية، ولكنها أصرت على الرفض، وتساءت في ضحى أحد الأيام ـ محاولاتي لم ترتبط بوقت محدد من أوقات النهار ـ عما اذا كنت قد نسيت أنها سيدة متزوجة وأن لها طفلين.. ولم تقبل التوظيف في سفارة بلدها الا لرغبتها في أن تكون بين مواطنيها وفي أن تخدمها ـ ولو بشكل مؤقت ـ بما لها من معارف لغوية متعددة، لا يمتلكها أي موظف آخر في السفارة.. وخاصة لغة هذه البلد! وطلبت من شخصي المسؤول عنها أن أحترم فيها الأم ان أنا لم أحترم فيها الأخت.. فكلتاهما تستلزم الاحترام، بل أكثر من الاحترام! وقد كانت تعتقد أنني أكبر مما أطلبه منها.. هي السيدة المتزوجة!

وأنا في الحقيقة أحترم الأم كما أحترم الأخت، ولكني أحترمها خارج وظيف.. الكتابة! خارج مهنة الكاتبة.. ولذلك شعرت أن هذه الأم الكاتبة، هذه الأخت المتعاقدة، التي رسمتها بأصرار مني، تستحق عقابا، من الجائز ألا يكون غيري قد اهتدى اليه، فكتبت بها تقريرا، تحدثت فيه عن ممارسة كاتبي للبغاء ومدى ارتباط ذلك بخروج.. الأسرار! وبينت كيف تصبح المواطنة في الخارج بلا زوج صالحة.. للخارج! وكانت نتيجة تقريري أن استدعيت الكاتبة الى الوطن، فسافرت.. مرغمة، تاركة طفليها عند صديقة لها أجنبية! ولم يسمح لها بعد ذلك بالسفر للعودة بأطفالها، لأنها متهمة، والتهمة تثبت حين تصدر عن.. مسؤول! فاضطر زوجها للسفر الى البلد الأشقر للعودة بالطفلين في نهاية السنة الدراسية، وبهذه الطريقة الكاتبة التي أبت أن توفر لي.. متعة الشقرة الوطنية!

النفـخ.. مهنــة!

مصيبة قف لها شعر رأسي قفة عجيبة.. فزعا! والقفة في هذه الحالة، في احساسي بها، ليست وقفة في الشعر، وانما هي شبه رعدة تغمر جلدة مؤخر الرأس.. وهي تشبه - بشكل ما - ما قد تشعر به أنت - مثلي - حين ينبحك كلب أو كلاب مجتمعة على حين غرة! وهذه الرعدة تمتد في الجسد بصورة لا يكاد تدرك.. لأنها آتية من الرأس.. ومن المخيخ، والجسد تابع للرأس في حركة الانقباض والانبساط! وكل رعدة في الحقيقة حركة مزعجة، وخاصة اذا كانت في حالة برد أو في حالة حمى أو في.. طائرة! وأنا أرتعد في الطائرة.. فيها تعترني رعدة تستمر معي حتى بعد العودة الى الأرض سالما! ولا شك أن فيكم من عاش هذه الرعدة أيضا.. بأشكالها المختلفة قبل أن يتعود عليها، وهناك من لا يستطيع أن يجعل من الشجاعة.. عادة!

لم يقف شعر رأسي لهذه المصيبة وحده، وانما جف لها ريقي أيضا.. مثل من أسقط في يده، وذلك حين أصبحت المصيبة أكيدة.. والجفاف تقلص! كل شيء يتقلص حين يعتريه الجفاف.. المصيبة! وأود من أعماق قلبي الوارم - ويا ليتكم تدركون ما في أعماقه من ثروات - ألا تزعجكم كلمة ريقي، حتى وان ذكركم بالرضاب، فالريق ري الحياة كما أن القلب نبض الوجود.. وكم متينة هي الصلة بين الري والنبض! كانت مصيبتي اذن.. مصيبة، ولا أظن أن هناك لحظة من لحظات البشرية خلت من مصيبة أو ما يتصوره الواحد منا مصيبة.. منذ خطيئة آدم حتى الآن، وقد يحدث في المستقبل أن تسجل البشرية مصائبها النهائية كلها -أو بعضها على الأقل-

في لحظة واحدة. ولعل الأمر كله سيقتصر عندئذ على استعمال زر من الأزرار ينهي في فترة وجيزة كل حركات الوجود و.. مصائبه!

وكلمة المصيبة ـ ولا تعتبوا علي ما قد تجدونه في وصفي لاحساسي بها من اطالة ـ متميزة، مهيمنة، مسيطرة، تعيش في نظراتنا، وفي حركاتنا، وفي همساتنا، وفي أصواتنا الداخلية والخارجية، وفي أعماقنا المتورمة، ولو أتيح لنا أن نرى ورم هذه الأعماق -أعماقنا- لبدت لنا منتفخة كعنق الضفدعة! ولا يغرنكم ما ترونه في عنق بعض المواطنين من انتفاخ.. فهو ورم من نوع آخر، الورم الحقيقي في الأعماق! وكلما كانت هذه الأعماق أكثر اخلاصا ازداد الورم ضخامة.. وليس هناك ما هو أشد وطأة من المصيبة التي تصيب الأعماق، وقد أصبت في أعماقي، وأعماقي هي لغتي، أصالتي، هويتي وحقيقتي! ولا يسع الأصيل الا أن يفهم.. مصيبتي!

مصيبتي أنني حرمت من عمل فرعي، أردت أن أباشره بعد أن فقدت كل أمل في الحصول على وظيفة في عملي الأصلي! عملي الأصلي الذي كنت أود أن أمارسه بنشوة منتشية، وكم جميل هو أن يمارس الإنسان العمل الذي يتقنه ويشعر بعد الانتهاء منه أنه قد أنجز شيئا ساميا.. أضاف شيئا جديدا إلى منتجات الحياة اليومية، واليوم أساس الغد، والغد أساس.. المستقبل! كنت أريد وظيفة في.. قم للمعلم! كنت أريد أن أكون معلما، أقوم بعمل، هيأت نفسي له بصورة جيدة.. التعليم رسالة! ولم أستطع الحصول على.. هذه الوظيفة، مع أني كنت طالبا ممنوحا.. منحة خارجية، كنت بها أكثر من جدير! الإنسان جدير بكل منحة وهبة.. حين يجعل من هواية ما رسالته في الحياة!

وحاولت بعد فشلي في الحصول على الوظيفة المشتهاة.. حاولت أن ألتحق بإدارة من الادارات، ولكني لم أستطع.. لأن الظروف شاءت أن أكون معربا، ولا عمل لمعرب في ادارة رسمية الا بفعل.. المصادفة، ولم تكن

المصادفة من نصيبي! هذا رغم أن وظيفة المصادفة كثيرا ما تكون عبارة عن بطالة وراحة مكتبية مملة الى أبعد حد.. بالنسبة لمن يهوى العمل طبعا! فالادارة مفرنسة.. ذلك أن الظروف التاريخية جعلت المفرنسين يعضون على الوظائف الادارية بنواجذ حديدية.. وما أصلبها من نواجذ ساحقة! وتوصت هذه الظروف التاريخية بأنها ظروف.. استعمارية! ولكن كيف يمكن أن يكون الأمر كذلك و.. الحال أن الكثير من أصحاب النواجذ الساقة متخرجون من المدرسة.. الوطنية.. للادارة! وبذلك استولوا على الظروف التاريخية والاستعمارية والوطنية، ولم يتركوا لي الا الظروف.. التاريخية، فهل يحق لي يا ترى أن أقول.. ان الظروف التاريخية والوطنية هي التي جعلتني.. معربا! مفارقة تهوى المفارقة!

آه، علي أن أعود الى موضوعي قبل أن أنفجر.. وتحرمون بذلك من ظرف تاريخي أو ظروف تاريخية من نوع آخر! لقد بدأت أفكر في محاولة الحصول على عمل من أي نوع كان.. خارج الوظيفة الأصلية وخارج الادارة. فعندما تضيق الدنيا بالانسان يجد نفسه بين أمرين.. اما البكاء والنحيب واما الضحك والاستخفاف، اما الجد والاتزان واما المزاح والتوازن! وقد فضلت أن أضحك وامزح! فقد قرأت في احدى الجرائد الوطنية.. اعلانا عن توظيف موسيقيين في فرقة رسمية، فقدمت طلبا من باب السأم والمزاح لا غير. ولست أدري كيف قبل طلبي برغبة موسيقية، اذ كنت متأكدا أن طلبي لن يقبل، لأني لم أبين الآلة التي أعزف عليها!

وبعد أسبوع دعيت للمشاركة في أول تجربة موسيقية.. أنا الذي لا يعرف غير موسيقى.. العربية! وذلك طبعا لمعرفة قدراتي الموسيقية في الميدان الذي اخترته لنفسي.. ويتمثل في آلات النفخ، لأن لي رئة قوية وخدين ممتلئين! ووجدتني ضائعا - بين المشاركين - في جو يدوي بمصطلحات فرنسية ومفردات شعبية محلية عريقة! وكانت الشبابة آلتي المفضلة، فالريفي

لا يعرف من آلات العزف غير الشبابة وما أشبهها! لكني لم أر الشبابة بين آلاتهم أيضا! وكان من الطبيعي أن أسقط في أول تجربة موسيقية! فقد كان في استطاعتي أن أنفخ في كل الآلات الحديثة، غير أني لم أكن قادرا على العزف عليها! ولم أشعر باليأس من أول وهلة فقلت لرئيس الفرقة:

- لا بأس أن أنفخ وأحدكم يعزف!

ففتح فمه حتى بدت نواجذه، وقال في غضب ساحق:

- كل واحد منا ينفخ ويعزف بنفسه!

ولم تسرع الظروف التاريخية لنجدتي ولتتيح لي فرصة النفخ والعزف.. بنفسي، فانصرفت واصابعي تداعب شبابتي، فينطلق منها لحن ريفي بعيد الصدى!

السـراب.. هـدف!

في الخارج عشت، وعشت في الخارج، والجملة الأولى أقرب الى نفسي من الجملة الثانية، لأن تركيبها يوحي بكثير من التصورات.. الخارجية! في أيام الظلام عشت في الخارج، وفي أيام النور عشت في الخارج، ولا تنتظروا مني أن أقدم الفعل ـ مع ما لتقديم الفعل من عادات حميدة ـ وأقول.. عشت في أيام النور في الخارج، فتقديم الفعل ـ نحويا ـ قاعدة عربية، ولم يتح لأية قاعدة عربية في يوم من الأيام أن تثير.. مشاعري الخارجية! والفعل العربي نفسه في أسمى ظروفه ذو مدلول خارجي! ولهذا لا ينبغي لأحد أن يطالبني ـ مهما امتد به الزمن في.. الخارجية ـ باستعمال مدلولات الفعل الداخلية، فمن صفات الداخل أن يكون مدخولا.. داخليا كتصريف العملة الصعبة! وهي حلم كل داخلي!

أكرر اذن.. في الخارج عشت، وعشت فترة طويلة، على.. مدى أربعين سنة، والأربعين عمر.. الحكمة والرفاه! ولم يكن لي من عمل مفضل غير ركوب المهرات في المحطة الأولى، وركوب الخيل في المحطة الثانية، ثم التزحلق على الثلج وعلى الجليد هنا وهناك و.. هنالك! فالتزحلق على الثلج ـ وتذكرني تثنيات الجسم أثناء ممارسته بتعرجات الثعبان تحت شفافية الماء! ـ له حقيقتان، حقيقة موقعية، وهي وجودي في بلدان أجنبية معينة على.. الاختيار، والاختيار علاقات وصداقات مع شخصيات متنوعة، وحقيقة وظيفية، وهي وجودي في سفارات وقنصليات خاصة.. وفقا للطلب أيضا، وما أكثر ما أفكر ـ دون مبرر منطقي ـ أن لفظة القنصلية مستمدة من القنص ليه.. بتشديد ياء النسبة وزيادة الهاء.. الوهرانية!

والتزحلق على الجليد وعلى.. الثلج يرتبط في كثير من الأحيان بالمشي الى المحطة، ومن ثم اكتسبت عادة المشي كذلك.. وأصبحت رياضة السير

على الأقدام من رياضاتي المفضلة أيضا. وهي رياضة كنت قد مارستها أيام الصغر في الجبال والتلال والمنحدرات سارحا، ومارسها أبي صائدا.. كما مارستها أمي في البدايات الأولى.. محتطبة! وقتها كانت هذه الرياضة تعني بالنسبة الى والدي ووالدتي التعب والعناء والجهد، أما في وقتي - قديمه وحديثه - فهي تعني في معظم الأحيان المتعة، بل الرغبة في تقليل الوزن، فأنا أميل بطبيعتي الى الضخامة والسمنة! ثم ان المشي يهدىء لدي المشاعر الثائرة والأفكار الجامحة، فمعاشرة الناس في يومنا ثورة مشاعر وجموح فكر!

ولم يكن مشيي مجرد مشي في الخارج، وانما كان مشيا خاصا.. يمتاز بايقاعات معينة، لأني كنت أمارسه في مدن كبيرة، كل مدينة منها تعتبر عالما قائما بذاته.. بكل ما فيه من سطح وقاع، وظاهر وباطن، وجهر وسر، والجهر بخلفيات الأمور.. خاصة المعتقدات الحقيقية.. قليل الحظ في أيامنا هذه! وأقل من ذلك الجهر بالاهداف الحقيقية لخفيات الأمور والمذاهب والمعتقدات! لقد تطلب مني عملي الخارجي أن أمارس المشي، ولا أحب أن أقول أمشي، لأن ممارسة المشي الوظيفي تتوفر على أشياء لا يتوفر عليها المشي العادي لشخص.. عادي! وكانت البداية بالنسبة الي.. حدائق باريس، وكل العالم باريس! وبعد ذلك وجدتني أستجيب لاغراءات نيويورك، ولندن، وفيينا، وطوكيو، وبيرن، وسان باولو وغيرها، ولم أذكر هذه المدن الكبيرة على الترتيب، لأن مدار الحديث عادة المشي و.. كفى!

ومع هذا فلا شيء يبقى! فقد جاء اليوم –قد يكون من الأفضل أن أقول.. جيء به– الذي انتهت فيه كل مهماتي الخارجية المنتقلة في أطراف.. المعمورة.. وكنت الى حد ما معمرها! انتهت المحطات التي كانت بالنسبة الى الوطن خارجية فعلا، وحين أقول الوطن أعني الدبلوماسية، لأن الدبلوماسية في نظري ذاتية، والذات في العالم الثالث قلما تكون غير.. خارجية! ذلك أن كل شيء فيها خارجي حتى.. الرواتب والمصادر المالية! وهذا ما نعده –نحن

الدبلوماسيين الخارجيين.. وقد تكون في الصفة الأخيرة كفاية- **رياضات** ومطايب ومتعا متعددة صافية! ولا عيب في كل هذا، فهو من مستلزمات **الوظيفة** الخارجية في كل البلدان.. مع اعادة الفوارق الخاصة بالرواتب ومبررات المالية!

كان انتهاء المهمة الخارجية في العواصم العالمية يعني اذن العودة الى عاصمة الوطن، وهي عاصمة قد لا يكون لها من العاصمة غير الموقع المتميز! فلا حدائق ولا منتزهات شبيهة بالتيه ولا شوارع عريضة.. تسير فيها دون أن تفاجئك جاذبية المناكب والصدمات، ولا أرصفة نظيفة.. تقيك بصقة بعيدة المدى تصلك من جانب ما وقد تهبط عليك كالمظلة من شرفة أو نافذة! وهكذا حرمت من الإقامة الجميلة ومن رياضة المشي في الحديقة الخاصة، والحديقة العمومية الواسعة، التي كنت أدخلها وقتما شئت وكأنها حديقتي الخاصة! ومن عاش في العواصم الكبرى يدرك معنى أن تكون لك سلطة حتى على.. الحدائق العامة تدخلها في الأوقات التي تريدها أنت.. في رضاك وفي غضبك!

وأصبحت بعد عودتي.. عودتي بعد الأحداث المرعبة، بعد الكابوس الذي سيشكل أحلامنا في النوم واليقظة مدة طويلة ـ أصبحت بلا عمل، كل ما بقي لي الوظيفة والراتب الداخلي المختزل! فاتقاضي مرتبي وأنا في منزلي الذي بنيته من.. وظيفتي الخارجية! وبقي لي من نعيم أو متعة الخارج.. رياضة المشي! فصرت أخرج لأذرع شوارع المدينة، وقد كان من عادتي أن أسرع في مشيي، ذلك ما علمتني أياه المدن الكبيرة، أذرعها بسرعة أكثر، لأني لا أكاد أجد فيها ما يستوقفني.. فأسير وكأني هارب من شيء ما، هارب من مناظرها القبيحة، وأوساخها الظاهرة والباطنة! وكثيرا ما أشعر أنني أعيش ـ أنا بمفردي ـ ظروفا خاصة، وأعاني من حالات معينة، وقد يحدث أن ألتقي بزميل خارجي، فيسألني:

– ما لك تسرع في سيرك هكذا؟

فأجيبه بلهفة معينة:

– أخشى أن أصل متأخرا!

الحضارة.. لغة!

جرت محاورة غريبة من نوعها بيني وبين فتاة فرنسية، وكانت المحاورة في الحقيقة من جانب واحد.. من جانبها! وكان من الممكن أن أنسى تلك المحاورة.. الموجعة بالنسبة الي، وأن ألتزم الصمت كما فعلت أثناء مخاطبتها أياي.. الا أنه من الصعب أن يصمت الانسان حين يحاور نفسه، لذلك سأروي حديثها بكل ما تضمنه من ثورة واندفاع و.. نرفزة:

.. دعني أولا أتحدث اليك بأفكاري، وأوضح لك ما أحس به في أعماق ذاتي، أطلب منك هذا مع أني لا أعرف طبيعة موقفك.. هذا وان كنت أميل الى أن.. أتصور أنك منهم.. من أولئك الذين يثيرون مشاعري.. الثائرة نوعا ما، مادمت تتحدث بالفرنسية بكل هذا الصفاء، وهذه الاناقة، وبكل هذه الاستعمالات الحديثة المتبحرة، وقد يكون هذا التبحر مجرد زخرفة فقط، بل من المؤكد أنه طلاء خارجي جميل لا يخفي وراءه شيئا له خطورته في ميدان من الميادين المتميزة! وهذا ما يجعلني أعتقد أنك لست من دعاة العربية، يجعلني على يقين من أنك مسلوب.. وأعتذر لكل من يحمل اسم مسلوب.. اسما لا صفة! ويبدو أنك لا تعرف أن الاستلاب من الأسلحة الخطيرة في عصرنا هذا. لا تقاطعني أرجوك.. دعني أفرغ ما في نفسي، ونفسي كما قلت لك.. ثائرة! وكان ينبغي لي ألا أثور في هذه الحفلة الرائعة، التي أقامها صديقك وصديقي على شرفك، وهذا في أجمل جيب من جيوب أجمل شارع في.. باريس!

أطلب منك ألا تقاطعني، لأني أعرف مسبقا أنك ستقول لي ـ ان سمحت لك أن تقاطعني ـ بأنك بريء من الذنب الذي أحس به أنا ولا تحس به أنت! أنت تعتقد أنك بريء من الذنب، لأن الحرية التي حصلت عليها بلادك بعد

كفاح مرير هي التي فرنستك. كلا، ان الحرية لم تفرنسك، وانما فرنسك أمثالك من المسلوبين، فأصبحت أنت الآخر مسلوبا تابعا ذليلا مهزوما، وان تصورت الأمر غير ذلك! أنا أشعر بذنب لا تشعر به أنت كما قلت لك.. لان فرنسيتي سلبتك شخصيتك وهويتك وذاتيتك! واسمح لي أن أخاطب في شخصك - وهو لا يحمل غير ظاهرك على أية حال - كل أمثالك! أنا أتصور أن الانسان لا يستطيع الا أن يكون ذاته.. فلم الهروب اذن الى ذات.. الغير والحال أن هناك ألف مانع ومانعا من بلوغها! التيس لا يريد الا أن يكون تيسا.. هويته في صنينه، وحين يخصى - وهذا احتمال من الاحتمالات - فان أعماقه تظل تنضح بصنينه!

انني كما ترى.. ثائرة أو مثارة اذا شئت، لأنني لا أستطيع أن أفهم، ولعلي لن أفهم ذلك أبدا، باعتبار ما لدي من قناعات خاصة، كيف تتركون لغتكم، كيف تهجرون أمجادكم، كيف تهملون حضارتكم، وتتنصلون من قيمكم.. لتتمسكوا بلغتنا وأمجادنا وحضارتنا وقيمنا.. وكأنكم لم توجدوا الا بوجودنا! تفعلون كل ذلك ونحن في غنى عنكم! هذا ما نعتقده نحن الفرنسيين من أبناء الجيل الحديث. الجزائر بالنسبة الينا دولة مستقلة.. كانت في وقت من الأوقات مستعمرة فرنسية، والاستقلال معناه الشخصية الهوية الذاتية! عندما أتحدث مع واحد منكم يحاول أن يتقرب الي بالاشادة بكتابنا وشعرائنا.. هو غوولا مارتين وبودلير وأراغون وسارتر وكامي.. ويريد بذلك اثارة اعجابي، وهو في الواقع يضحكني ويثير سخريتي، لأني أنتظر منه أن يحدثني عن المتنبي والمعري وشوقي ومحمد العيد ومفدي زكريا، وبدر شاكر السياب ونزار قباني وأدونيس وغيرهم من الشعراء الكبار.. وكم أتألم حين أكتشف أنه يجهل ذلك كل الجهل، ولا يجد ما يقدمه لي من غذاء فكري غير.. ثقافتي وثقافة من ينتمي اليها!

يقول أحد كتابنا.. ولا أظن أنك قرأت ذلك، والا.. لكان لك موقف آخر، يقول.. اللغة هي لغة الشعب، هي الثوب الذي يعرض فيه الشعب حقيقته. فالجوهر والكلمة شيئان متلازمان، لا ينفصل أحدها عن الآخر.. لا من حيث الشكل ولا من حيث المضمون، فما من كلمة تستعمل الا وتعبر عن الجوهر! فقل لي: كيف يمنك أن تحدثني بلغتي عن جوهري.. وأنا أعرف الناس بلغتي وجوهري؟ ألم يكن من المفروض أن تكون أنت أيضا أعرف بجوهرك ولغتك حتى تستطيع أن تحدثني عن جوهرك بلغتك؟ ان للعربية أيضا شعراءها وكتابها الذين يتميزون في نتاجهم الشعري والنثري بالاصالة والشخصية والعمق! لست أشك في أنني أعرف منك بلغتك وأدبها وحضارها.. ألا تجد هذا أمرا مخزيا؟ لكم كنت أشعر أنا بالخزى لو أني لم أكن أعرف من ذكرت من الكتاب والشعراء الفرنسيين.. فهم فخري وعزتي وكبريائي!

قد تستغرب أن أكون قد تعلمت العربية. ولكني تعلمتها هواية، ولم أتعلمها على حساب لغتي القومية.. بل تعلمتها لاثراء لغتي، وأنا الآن بصدد نقل بعض روائعها الى الفرنسية. وهكذا ترى أنني أتعلم لغتك لا من أجل لغتك وانما من أجل لغتي وفكري، وفي لغتك ما فيها من الفكر والشعر على نحو يكاد يبلغ حدود الوهم! فأنا أتعصب أيضا للغتي، ولكن ليس على حساب اللغات الأخرى، فما أقرؤه في لغتي قد لا يفيدني ما تفيدني اياه قراءتي له في لغته الأصلية. لذلك أحاول أن ألم بكل لغة تفيدني.. دون أن أكتب بها! فمن يكتب لشعبه لا يكتب له الا بلغته!

لقد اختار شعبكم حريته وهويته، ومن واجبكم أن تعيدوا اليه جوهره.. لغته! وانه لمن أعجب العجب أن يختار الانسان العبودية الثقافية.. وهو حر مستقل بيده السلطة والقرار! والا فقل لي بربك.. كيف أصبحتم، وهذا في فترة كانت كافية للعثور على ذاتيتكم الخاصة واستعادة ما كان لكم من أمجاد

ماضية ـ كيف أصبحتم تقلدوننا في كل شيء حتى في سلوكاتنا.. **بل حتى** في ابتساماتنا الساخرة منكم وحركات أيدينا الصاعدة في وجوهكم وهي الأصل منكم ومن.. جملة ما تعلمناه من تقاليدكم للتعبير الجنسي عن.. الرفض والاباء! كيف أصبحتم تقبلون ما يسيء الى الشخصية واللغة والوطن؟ اني لا أطلب منك المعذرة ها هنا.. فأنا في ثورتي أتحدث بصراحة كاملة.. ولست ممن يستطيع السيطرة على ثورته!

اسمعني، ولا تدر وجهك عني، فاني لم أنته من حديثي! لعلك تعتقد أنني ثملة، ينطبق علي المثل اللاتيني.. في الخمر الحقيقة. ان ما أقوله هو حقيقة ما أعتقده، ومع ذلك أقول.. انني لست ثملة. انني عكس ما تتصور تماما. ومن المؤلم أن يتصور الثمل أن الآخرين كلهم ثملون مثله! أنا أعي كل كلمة أقولها، وأرجو أن تعي أنت أيضا ما أقوله، ذلك أني لا أحب أن أصل الى مرحلة الثمل، لأني أصر على أن أتكلم عن وعي، وأن أدرك الأمور على الوجه الذي يجب أن تدرك به.. حتى أصل الى ما أهواه من تجليات فكرية.. تخاطب فيها ذاتي ذاتا أخرى، وليس الأمر كذلك معك! فأنت فيما يبدو ممثل أصيل للاقدام.. السوداء!

وانصرفت عني قبل أن أثور على كلمتها الأخيرة، فعزيت نفسي قائلا:

ـ عنصرية ثملة ترفض حتى أن يفخر الغير بلغتها وحضارتها!

المستوى.. نقيصة!

الحياة عندي حب، وهي عندك كذلك، إلا أننا، أنا وأنت، نختلف في مفهوم هذا الحب. فأنت مثلا تقول في أصفى لحظات وعيك.. الحب.. حب! بينما أقول أنا، حتى في أشد لحظات وعيي سوادا، الحب.. حياة! وعلى هذا فأنت ـ لضيق أفقك، وهو ضيق مزمن فيما يبدو ـ تحب الحب وتنسى.. الحياة! ويكاد هذا الأمر يكون حقيقة عامة، فلا يحب الحب في الواقع إلا من ينسى الحياة. قد تقول ان الحب عندك لا يخلو من الحياة أيضا، وهذا صحيح، لأن الحياة.. عندك مجرد تنفس، قد يستوجب الحب بشكل من الأشكال.. والضفادع تحب وتتنفس هي الأخرى، أما بالنسبة الي فان التنفس.. حياة! وهو بمثابة الحب سواء بسواء، يوفر لك ما يوفره الشاطىء الرملي من محار!

ومن هذا المنطلق تكون معادلتك أنت.. التنفس حب تتخلله نسمة حياة والحب حب، في حين أن معادلتي أنا تتخذ الصورة التالية: الحب حياة، والحياة.. حياة! واعتمادا على هذه المعادلة بدأت أبني حبي و.. حياتي، وهذا منذ أن بلغت سن الرشد، وأعترف أنني تأخرت نوعا في.. بلوغه! الرشد عندي لا يعني أكثر من أن تعرف كيف تجعل حياتك سهلة ميسورة مستساغة و.. هانئة جدا! هذا الرشد هو الذي أتاح لي أن أقيم قواعد هذا الصرح المتين: الحب حياة، والحياة.. حياة! ولا شك أن الحب قيمة، والحياة قيمة، والقيمة في نهاية المطاف شخصية رشيدة، والشخصية الرشيدة من مستلزمات الحب والحياة والقيمة، والنتيجة سمعة وشهرة وبعد صيت، ونتيجة هذه النتيجة منصب كبير بحجم.. الحياة!

وأحب أن تعرف ـ أحس أنك تنتظر مني ذلك بنوع من القلق ـ أن طريقتي الخاصة لم تقم على دراسة عميقة متنوعة متعبة، أخذت من عمري سنوات عدة، قضيتها متنقلا بين المدارس والمعاهد والكليات، وانما قامت على دراسة دقيقة لكل وضع من الأوضاع التي قامت بعد بلوغي سن الرشد وعلى فهم متطور لمختلف أساليب الحياة المعاصرة. والمعاصرة عندي حياة، ولست أميل الى أن أرفض العكس، فالنتيجة واحدة في عرف كل من يدرك الأمور بوعي معاصر لا بحب.. قديم! الحب القديم هو الذي يطلب منك أن ترى في الفقر غنى، وفي كسرة النخالة خبزا سميدا، وفي الكوخ الحقير قصرا منيفا! وهل هناك شيء لا يبدو لك جميلا حين تنظر اليه بحب.. قديم؟ المعاصرة لا تعرف غير الحب الذي أحمله بين جوانحي.. الحيّة!

وطريقتي الخاصة في الحقيقة بسيطة، لا تتطلب أكثر من الانتباه بحدة لكل كلمة تقال أمامك.. سواء أقصد بها المدح أم الذم، الاطراء أم التجريح والنقد.. وعليك أن تكون دائما مع التجريح والنقد، وذلك لتبدو أعلم العلماء بما يدور حوله الحديث! واذا سئلت عن أمر من الأمور أو مسألة من المسائل فعليك أن تسرع الى نقد الجانب السيء.. ولو كنت لا تعرف لها جانبا واحدا! طريقتي تكمن اذن في الحديث عن المستوى.. والمستوى في حد ذاته يدل ـ من غير أن تلحق به صفة من الصفات ـ على العلو والرفعة، وفي الرفعة غادة كثير من الجودة! وعلى هذا فأنت تدعو الى الجودة عندما تتحدث عن المستوى المحدد المعروف. واذا كنت قد أشرت سابقا الى أن الحياة.. حياة، فعلي أن أشير هنا أيضا الى أن المستوى.. مستوى، والنتيجة.. الحياة مستوى!

سر نجاحي كله في الحديث عن المستوى.. والحديث عن المستوى نقد وتجريح وتعبير عن موقف، عن رأي ولو كان ذلك كله.. مجرد حديث! فما أن أسأل عن شيء في مجال العصر والحياة بشكل عام، وفي مجال الفن

والأدب والثقافة بشكل خاص، وقد يحدث ألا أسأل عن ذلك، وانما يدور الحديث حول أمر من هذه الأمور، حتى أسارع الى القول.. المستوى هنا ضعيف، وهناك ضعيف جدا، وهنالك منحط الى درجة كبيرة. هذا هو جوابي مهما كانت طبيعة الشخصية، التي وجهت الي السؤال أو التي تحدثت عن موضوع من المواضيع المذكورة أمامي، وكيفما كانت قميتها، فلا طبيعتها تهمني، ولا قيمتها تثير انتباهي أو تحملني على التردد في اصدار أحكامي القاطعة، فليس لي من هم غير أن أقرر أحكامي!

واصدار مثل هذه الأحكام، التي تسجل مستواي الرفيع في عين من يسألني عن قضية من القضايا أو يتولى هو طرحها أمامي، يبعث في أعماقي فرحة.. استوائية! ودعني أَبُحْ لك هنا بسر من أسراري.. وهو أن معرفتي باللغة العربية جيدة، ومعرفتي باللغة الفرنسية أجود، ولكن هواي مع الركب الأجود في ثقافتي.. الرشيدة! لذلك استنقص كل ما يكتب بالعربية، كل ما يدرس بالعربية، وانتقد كل حديث أم محاضرة تستعمل فيها العربية وقد يحدث لي أن أنتقد أيضا بعض ما تقدم بالفرنسية.. انطلاقا مما يمليه علي الموقف، فهذا الأمر يتطلب مني أن أعترف به أيضا، والاعتراف.. مستوى! الا أنه ـ على أية حال ـ لا يحدث كثيرا ويمكن أن ندخله في حكم.. النادر! العربية هي التي تهبط المستويات في سرعة هبوط.. الطائرة!

وبفضل حديثي عن المستوى.. وهو ليس مستواي!.. عرف مستواي وظائف عديدة، تنقلت بينها تنقل الطير بين غصن وغصن، وبين شجرة وشجرة، وبين خميلة وخميلة، بين قمة و.. قمة! وكل هذا دون أن يكون من وظيفتي أن أرفع من مستوى منصب شغلته وأشغله! فتحدث عن المستوى، يا شبيهي، وأنا أضمن لك أن اسمك سيرتفع، ومجدك سيعلو، وأنك ستشغل الناس والمناصب! عود نفسك على أن تنتقص كل ما قد يشيد به غيرك أو يبحث عن مبررات لضعفه، فهذا هو طريق الحب والحياة و.. المستوى!

الـدعـاء.. جـوازا

الانسان جواز سفر، وأرجو ألا تعتبروا هذه الجملة.. حكمة، فهي في الواقع وفيما فوق الواقع أيضا ـ وأين نجد اليوم من يؤمن بما فوق الواقع.. المطلق الحرية؟ ـ واقع مزر مرير.. الانسان جواز سفر لا أكثر ولا أقل! والمسافة بين الأكثر والأقل في هذه الحالة ـ مهما امتدت وطالت.. أربع سنوات، خمس سنوات أو عشرا ـ ما هي الا حالة سكونية، والسكون ثبوت والزام، وكل الزام من هذا النوع حاجز بين الانسان والانسان، قريبا كان أو نسيبا، في البلد القريب والبعيد على السواء. والانسان لا يختار مأساته التي تتمثل في القرب كما تتمثل في البعد، والبعد ـ كيفما كان الأمر ـ مصدر.. المأساة! البعد أشد مرارة عند الانسان منه عند الحيوان.. الجمل والقط مثلا، فالانسان لا يملك ـ عكس ما هو الأمر بالنسبة اليهما ـ حرية السفر والعودة!

قلت في مطلع حديثي، ولكل مطلع حديث. معذرة، فأنا أعني.. لكل حديث مطلع. والانسان قد يخطىء في هذا الأمر أو ذاك.. سيما وأنه لا يخلو من شرود حين يتحدث عن مأساته! وفي بعض الأحيان تكون النتيجة واحدة! لكل حديث مطلع، ولكل مطلع حديث، ونحن نحب أن يكون لنا مطلع قبل أن يكون لنا حديث.. وما أكثر ما يكون المطلع بدون.. حديث! ومع ذلك يكون لنا ما يكون عادة من الاعجاب والتصفيق.. الى درجة أننا نحس في بعض الأحيان إحساسا عميقا بأننا في ملعب لكرة.. الكلمات فوق المنصة! ومصدر ذلك قلة الاخلاص للكلمة.. والاخلاص إيمان بالكلمة الصادقة! وقد كان الصدق دائما أساسا للفوز و.. النجاح!

وأعود الآن الى مطلع حديثي وهو.. الانسان جواز سفر! ولم يكن لي أنا جواز سفر. اذن لم يكن الانسان في شخصي - بناء على الحقيقة السابقة - انسانا! وهذا ما شعرت به فعلا.. شعورا جاوز كل حد ألما ووجعا وانهيارا! ولا أدري ما اذا كان أحدكم قد شعر في يوم من الأيام بما شعرت به نتيجة حرماني من جواز سفر.. حرماني من انتمائي الى وطني، وهذا لأني لم أكن في وطني الحقيقي.. وطن الآباء والأجداد. كنت في وطن شقيق أحببته حبي لوطني ولنخيل مسقط رأسي واحتجت فيه - في هذا الوطن الشقيق - الى جواز سفر! وما أتعس انساننا الذي يحتاج الى جواز سفر.. سواء أكان يقيم في وطنه الصغير أو في وطنه الكبير! وكان أهلي هناك في وطني، والأهل كلهم بالنسبة الي وطن.. فلا وطن بدون أهل!

هكذا أصبحت بدون جواز سفر، بدون إنسانيتي.. حين مات جواز سفري القديم، الذي لم يكن في الحقيقة جوازا رسميا.. اذا نحن أخذنا الأعراف الدولية بعين الاعتبار، لأنه كان.. مزيفا بشكل أصيل.. كان مموها تمويها يهزأ بكل الحواجز والقوانين والأنظمة الدولية.. والممارسات الحدودية.. وغير الحدودية! وتعود أصالة تزييفه الى أن مزيفه.. أخ شقيق ماهر، يعرف أدوات شقيقه، ويدرك طريقة تخطيطات أعماله، ورسومات أفكاره، ومدلولات حروفه.. خاصة حين يكون للحرف ظله السياسي وما يتبع ذلك من شدة وقسوة في التشفي و.. الانتقام! ولكم بعد أن تتصوروا مدى الدقة والمهارة عند أمثاله!

وكنت لهذا آمل أن أحصل على جواز سفر رسمي، لأني كرهت التزييف، وسئمت الخوف الدائم، أردت أن يكون انتمائى الى وطني وأهلي رسميا، وأن أنال حقي دون أن يكون للشقيق - مهما واسى وأخلص في المساعدة - فضل التزييف علي.. أنا المحروم من انسانيته الرسمية! لقد كان هذا التزييف يجعلني أحس على الدوام أنني أعيش في تخف، ومعنى التخفي العيش في.. ذلة! والذلة

تمتهن الشكوى و.. الدموع! وهل هناك ذلة تعادل حرمان المرء، والمرء أقل معنى من الانسان، من جواز سفره، من وطنه، من انسانيته، التي يجب أن تكون قمة أي هدف أو مشروع، والمشروع في حقيقته المحضة.. هدف؟!

وأخذت.. بدافع هذا الشعور المؤلم المؤدي الى الانهيار ـ والانهيار هزة ثورة وانتفاضة يأس وبكاء، وكم بكيت من أجل انتمائي ـ أخذت في الاتصال بسفارة بلادي.. سفارة وطني الحبيب، وطن الروح والقلب والجسد، الا أن الجواب كان دائما.. المراسلة تمت قبل مدة غير قصيرة وتم التذكير بالمراسلة عدة مرات، ورغم ذلك لم يصل أي جواب، فالأمر له فيما يبدو أكثر من عقدة مستعصية! كان هذا هو الجواب! وهل يجوز يا ترى أن يكون في حق المواطنة ـ كيفما كان انتماء المرء فكريا ـ ما يستعصى على الحل؟ قد يكون هذا السؤال تافها، فالسياسة تجعل ـ بالشكل الذي تمارس به في عصرنا ـ كل شيء عصيا مستعصيا، وكل عصيان ما هو الا امتناع عن تلبية رغبة لا تنسجم مع.. القناعة الفكرية!

وحين انسدت كل الأبواب في وجهي، كل الأبواب الصغيرة والكبيرة، الضعيفة والقوية.. أو التي تظن نفسها قوية بصورة من الصور، وكم يخدع الظن في ادعاء القوة، لأن قوة السياسة كانت على الدوام ـ من الناحية الادارية ـ ميزانا دقيقا. حين انسدت كل الأبواب في وجهي ـ ولا وجه لمن لا وطن له ـ عرفت معرفة يقينية أني عصيت الانسان، وتمردت علي السياسة وعلى ذلك الانسان، الذي يريد أن أكون على شاكلته في تصوره، بينما أريد أن يكون لي تصوري الخاص في شكل انسانيتي! نعم، عرفت أني عصيت هذا السياسي الجديد، الذي يحكم وطني، ولكني لم أعص الله في حق مواطنتي وفي حقي انتمائي الأصيل!

ووجدتني أتوجه الى الهي بعد أن يئست من الانسان.. من أي مذهب كان! وكان مذهبي دائما ـ في أبعد أبعاد أعماقي ـ اليها! اتجهت اليه وهو

القادر المهيمن، ورجوته، وكان رجائي موغلا في التصوف ـ تصوف الأعماق لا تصوف الظواهر ـ والدعاء، رجوته أن يرفق بي، وأن يصبغ رحمته على تذلّلي، فقد كنت حقا متذللا خاشعا، وأن يحل مشكلتي، والحل رضاه عني وعن انتمائي الوطني، والانتماء حب، وحب الوطن ايمان حنيف! ومن المؤلم أن يكون الايمان بالوطن ـ رسميا ـ مجرد جواز سفر تموت ورقة من أوراقه عند كل دمغة. وقد يجدد بعد انتهائه وقد لا يجدّد، بينما يتجدد حب الوطن وتروي أنفاس الحياة تاريخه المجيد!

وغادرت البيت بعد انتمائي للتصوف والدعاء.. لأزور صديقا لي من أبناء وطني حلت مشكلته ولم تحل مشكلتي.. أنا العاصي مؤقتا.. ولا جنة لي على ضفته! وعدت الى وحشة بيتي في ساعة متأخرة واليأس يثقل رأسي وخطاي. واتجهت بسرعة الى مسجل الهاتف.. علني أسمع صوتا من أهلي.. واذا بي أسمع صوت صديق، أحببت نبرة صوته.. صوته الذي كنت أجد فيه رعشة الأمل حتى في قمة اليأس. كان صوت قنصل سفارة بلادي يقول في رقة ذلك الهمس الذي يصل الى أعماقنا من أعماق الوطن: يقول.. عزيزي، مساء ألف خير! جواز سفرك جاهزا! تعال لأخذه غدا!

فعرفت بذلك أن نعمة الله قريبة من ايمان كل من يسكن أعماقه دعاء.. وطن!

الاستراحة.. تسول!

المتسول يعيش في كل البلدان المختلفة، وفي بعض البلدان المتقدمة أحيانا ـ ولو أن التقدم صناعة ـ وضعا اجتماعيا خاصا، من المؤكد أنه لا يليق بالانسان في القرن العشرين، لأن الانسان ناضل قرونا عديدة من أجل أن يجعل من الكرامة مكسبا من مكاسب تطوره، لكنه.. حين بلغ هذه القمة في القرن العشرين ـ وقد تكون مقدمة لقمم أخرى في قرن الألفين ـ أذهلته اكتشافاته المتواصلة، والمدمرة بشكل خاص، فنسي انسانيته ونسي معها كرامة الآخرين.. وما الانسانية الا كرامة! أليس كذلك؟ هبوني اذن من يثبت لي أن القرن العشرين قرن انسانية وكرامة؟ وهل هناك من هو أتعس من انسان يعيش في دنياه بلا كرامة؟

قد يظن بعضكم أن التسول مصدر هذه الفلسفة المتسولة.. إن عنّ لكم أن تسموها فعلا فلسفة، غير أني أنا لا أريد في الواقع أن أتفلسف. فالحديث عن واقع ما يعيشه الانسان في موقع ما، والواقع موقع، لا يتطلب أي نوع من أنواع الفلسفة.. غير عرض الواقع ووصفه على حقيقته! أم تراكم تعتبرون عرض الواقع ـ لجهلكم بالواقع المتسول ـ فلسفة؟ وعلى أية حال فاني في موقعي أفكر في الأشياء.. ما قرب منها من متناولي ومتناولي أهلي وأهلتي ـ أليس الاحفاد أهلّة النسل؟ ـ وما بَعُد.. أفكر في هذه الأشياء على المدى البعيد بدون فلسفة!

فأنا في الواقع لست متسولا. فلم يسبق لي أن شعرت بحاجة الى التسول في أية فترة من فترات حياتي السابقة.. فقد كنت دائما ـ والحمد لله ـ مخلوقا.. مرزوقا! ولا تعجبوا ـ هذا ما أرجوه منكم! ـ إن أنا أخبرتكم أن اسمي، الذين عرفت به دائما أيضا، هو.. مرزوق! ومن ثم كثيرا ما شعرت أن

اللقمة تكاد تصل الى فمي.. مُتسولة! نعم، لست متسولا ولا كانت بي حاجة الى التسول، فأنا ـ بحمد الله مرة أخرى ـ مجاهد قديم، حملت السلاح فيمن حمل، ورفعت راية الحرية مع أمثالي من المواطنين الوطنيين.. فليس كل مواطن وطنيا!

ولهذا كان من حقي أن تكرمني جزائري المستقلة، وقد كرمتني فعلا. لقد قدمت لي دارة جميلة وكبيرة.. تحيط بها من جميع الجهات حديقة واسعة تحمل آثار اهمال مدمر.. بسبب الحرب التحريرية طبعا وما.. بعدها! والاهمال تدمير بطيء في كل الأحوال، ويا ويح من لا يكتشف خطر الاهمال في حينه! ولكن ارادتي المستقلة ـ وما أجمل أن تكون لكل منا ارادة مستقلة بعيدة عن الشعور بالعبودية وقريبة من الاحساس بالكرامة، والاحساس بالكرامة جمال.. السعادة! ـ ارادتي المستقلة جعلت منها روضة من رياض.. الجنة! وفيها ما فيها من الزهور والورود والزنابق و.. الحور! والحور بناتي وحفيداتي وبرفقتهن الولدان من أبنائي وأحفادي، وهل فيكم من يتصور الجنة من دون حور وولدان؟

وقدمت لي جزائري المستقلة كذلك متجرا كبيرا، بفضله استطعت أن أوفر لحورى وولداني كل ما كانوا يرغبون فيه.. على اختلاف رغباتهم، وكانت رغباتهم ميولي القوية! فكان لي منهم المهندس والمحامي والاداري والتقني كما كان لي فيهم أطباء من ذوى التخصصات المختلفة. وأعترف هنا أنني لم أفهم معنى التقني و.. غير ذلك! ولم أفرق بين الجنسين في هذه المهن.. لم أفرق بين الجنس الخشن واللطيف، لأن عصرنا يحرص كل الحرص على المساواة في الراتب وفي أشياء أخرى! وحديثي في هذا المقام لا يتجاوز الاطارات والوظائف، ولست أدري لماذا لا أعتبر التجارة وظيفة؟ فلي في الحقيقة من الأبناء من أراحني من المحل التجاري.. بارادتي المستقلة طبعا. وهكذا تقاعدت!

ولا شك أن أغلبكم يفهم معنى التقاعد، فالتقاعد في نظري راحة.. قد تنشأ عنها رغبة من الرغبات، والرغبة تتضمن دائما عملا ما. وقد تضمنت رغبتي بالفعل عملا، وأرجو ألا تعجبوا من هذا، فكل حركة عمل بصورة من الصور. وعملي أني كنت أتنزه في أوقات معينة. وطول مدة النزهة يتوقف على ما أتناوله من صنوف الأطعمة. فهناك أطعمة لذيذة تطبخ بالخشب والبعر! ومن يعرف اليوم هدوء جمر الخشب والبعر؟ رائع هو مذاق الطعام الذي يأتي من النار الهادئة لكل منهما.. وكلاهما بداوة! ونحن ـ الى ذلك ـ نأكل سخينا وباردا، ورطبا ويابسا، وحلوا وحامضا.. وأحب الأطعمة الينا الحار منها، لأنه يناسب طبيعتنا!

ومثل هذه الأطعمة تتطلب نزهة طويلة. وذلك ما حدث لي حقا. فقد قمت يوما بنزهة طويلة، وشعرت بتعب رهيب، وذلك لأني كنت قد قطعت مسافة طويلة من أجل أن أعرف ما يوجد بهذه السوق أو تلك من مواد وأسعار. وقد علمني العصر ـ على ما لي من معلومات محدودة ـ أن أعرف السعر قبل معرفتي للمادة أو البضاعة، والمعرفة سؤال في سوق من الأسواق، والأسواق عندنا رغبة.. رغبة هذا السمسار أو ذلك. وللسمسار في وطننا تاريخ.. وطنيا كان أو عميلا أجنبيا، فالعمالة لا يمكن أن تكون أكثر من عمالة، ولا مجال لاستعباد الوطن إلا عن طريق السماسرة!

لقد ذهبت لأتنزه اذن، وطالت نزهتي بعد غداء دسم.. دسم جدا! وتعبت كما قلت تعبا رهيبا، فجلست على الرصيف لأستريح. وكانت جلستي عادية، لم يكن فيها ـ فيما أذكر ـ ما يشير الى أنني رجل متسول! ولكن.. ولكن الناس اعتبروني كذلك! وشرعوا يقدمون لي نصف الدينار والدينارين والدينار والخمسة لا على الترتيب! وجمعت في النهاية مبلغا محترما، عدت به في المساء الى البيت، وحدثت زوجتي عن.. استراحة الرصيف! حدثتها عما كسبته دون أن أمد يدي متسولا! فأعجبت هي الأخرى بالفكرة الجديدة.. فكرة التسول دون مد اليد.. فكرة الوصول الى المال بسهولة قصوى!

وعرفت زوجتي الموقع بسرعة، فخاطت لي كيسا يشبه الجراب أعلقه في عنقي وأجعله يتدلى في جانبي، وقدمت لي صحنا.. من النوع الذي تباع فيه حلوى قلب اللوز.. وما يدخل الصحن طيب كقلب العجوز زوجتي! فصرت أختار كل يوم رصيفا، أجلس فيه والصحن بجانبي.. لا أدع يومي لغد! لا أترك عمل اليوم الى يوم الغد! ذلك أن التسول يكثر كثيري، ويسمح لي بامتحان انسانية الناس واكتشاف مدى قدرتهم على الجود والسخاء! ولكم أبتهج حين يضع متصدقا دينارا في صحني ويبتعد عني.. ثم يقف ليراجع نفسه ـ ولعله تذكر الجنة أو تصور أنه ترك ذنوبه في صحني ـ ويعود ليضع عشرة دنانير لمحو كل الذنوب الباقية.. بالجملة!

وقد اكتشف أبنائي عملي هذا، ولكل منهم سيارته الخاصة يطوف بها مختلف شوارع المدينة فاحتجوا على ذلك، ولكني استطعت أن أقنعهم بأني أخرج من بيتي حليقا متعطرا، وأجلس على الرصيف حين أتعب.. واضعا الصحن بجانبي.. لأستريح من نزهتي، والباقي على.. الله والناس! فاذا حدث لك أن مررت في يوم من أيامك المثقلة بالذنوب.. بمرتفعات مدينتنا، فأنا ممن يحب المرتفعات، ورأيت رجلا جالسا على الرصيف، فاقترب منه.. فقد تكتشف العطر الذي يفوح منه، وتمد يدك الى جيبك لتساعد بعطائك من لا يمد يده في فترة.. استراحته.. وهو مجاهد ـ كما قلت لك ـ بشهادة ـ وهذا ما لم أقله لك ـ الشهود!

الاقتناء.. نسبة!

أنا محاسب سفارة، ومن نافلة القول ـ وفيكم الكثير من محبي النافلة! ـ أن أخبركم أنها سفارة في الخارج، سفارة بلدي وليست سفارة أجنبية.. فلو كان الأمر عكس ذلك ـ أي في الداخل ـ لما كان هناك حق في الاقتناء و.. النسبة! وحتى لو صح ذلك فعلا.. فما فائدة أن تنال بضعة دينارات؟! ولا يفهم معنى المحاسبة إلا من كتب له ـ والمكتوب نصيب في.. الحياة ـ أن يكون محاسبا فترة طويلة! والمحاسبة هنا ليست.. كما قد يفهم المتصوفة ومحبي الرشوة منكم، ذات علاقة بالثواب والعقاب دنيويا أو أخرويا، فالمحاسبة هنا ـ والفضل يعود الى السيولة المالية ـ مالية محضة.. هي تسيير ميزانية معتبرة في طرف من أطراف الدنيا المتعددة!

وقد تعودت أن أقتني ـ والاقتناء شراء، وأقول هذا لمن يفهم معنى.. الاقتناء! ـ من هنا وهناك، وكلما كانت المسافة أبعد كان المردود أفضل! أقتني للسفارة آلة كاتبة أو حاسبة أو مصورة أو ساحبة.. وما أشبه ذلك من الأجهزة والآلات الحديثة! وكانت لي في كل مرة طبعا استفادة أو.. نسبة مالية معينة محجوزة على.. ذمتي! وكانت الأمور تمر وتتم بشكل عادي كما عرفته المحاسبة منذ فترة! ولكني في هذه المرة.. في آخر مرة لم أستطع أن أحاسب كما تعودت إرادتي أن تريد. فقد اعترضني مشكلة لم أكن أتوقعها اطلاقا.. وقبل ذلك كان الاطلاق دائما.. اطلاقي! فأفسدت هذه المشكلة مشاريع على حين غرة.. لم تحسب غرّتي أي حساب. ويجب أن أعترف بألم أنني كنت أنا نفسي السبب في ذلك، وفي هذه الغرّة تكمن حسرتي، بل يكمن تمزقي!

ذلك أني سعيت لتوظيف كاتبة من أبناء وطني، أنهت دراستها في البلد الذي كنت فيه ـ سعيت لتوظيفها، لأنها كانت تحسن عدة لغات.. على

التحديد تحسن لغات أربعا، لتكون لنا سندا في سفارتنا ببلد أجنبي، نجهل لغته تمام الجهل، فنحن سفراء الفرنسية في أي بلد أقمنا به.. لا لغة لنا فيه سواها! واذا بي أكتشف بعد فترة قصيرة أنها ـ رغم موهبتها اللغوية ـ غبية غباء كبيرا. وقد تجسم غباؤها في تحديها ـ ولو لم يكن تحديها لي مقصودا ـ لارادتي وأنا المحاسب الوحيد في السفارة! وبهذا التحدي أفسدت علي مشاريع المحاسبة! وكان مصدر تحديها.. النزاهة! وأنا لا أحب النزاهة، فالعصر ـ من قمته الى قاعدته ـ ليس نزيها! واذا حدث مع ذلك ووجدت مثل هذه النزاهة فيجب أن تنسب الى.. الغباء الفطري!

لقد تحدت إرادتي بإصرارها على رأيها في اقتناء آلة كاتبة ذات طابع خاص.. نستطيع استعمالها للكتابة بثلاث لغات أجنبية.. ليست من ضمنها اللغة العربية طبعا! فمشكل العربية لم يطرح خارج العالم العربي إطلاقا.. وحتى في العالم العربي لم يطرح إلا بشكل جزئي.. نظرا للظروف المحلية الخاصة! فكل التقارير.. إدارية، وبين الادارة والعربية عداوة متأصلة، أخذت تأصيلها من زمن ناقص.. الحرية بالنسبة الى كل من له حس وطني أصيل! ولذلك نكتب تقاريرنا من الخارج.. والخارج ـ كالداخل ـ لغة أجنبية، واذا لم يكن الأمر كذلك فإن السفارة تنعدم بكل أشكالها المختلة!

كانت لي رغبة مالية في شراء ثلاث آلات كاتبة، كل واحدة منها خاصة بلغة معينة.. ولي على كل منها نسبة نقدية معينة أيضا من قيمتها! لكن الكاتبة الغبية كانت قد اتصلت هي نفسها بشركة أخرى وطلبت آلة كاتبة، يزيد ثمنها عن ثمن الآلة الواحدة، التي كنت بصدد طلبها، بحوالي مائة دولار، الا أن ميزة الآلة، التي كانت الكاتبة قد اختارتها، هي أنها تحتوي على كل العلاقات والنقط والنبرات الخاصة.. على ما للغات الثلاث من تميز واختلاف. وهكذا سبقتني الى اقتناء آلة كاتبة واحدة بدل الآلات الثلاث، التي كانت تشكل مشروعي! وقد فضل مسؤولنا الغبي، لأنه ـ لرخاوته، ولو لم

يكن كذلك لحرص على أن أشركه في النسبة المائوية - شراء الآلة الجامعة، التي اختارتها الكاتبة اللعينة.. الكاتبة التي تعلمت في الخارج أن تكون وطنية نزيهة!

وبذلك أضاعت على هذه الكاتبة الوطنية الخارجية نسبتي المائوية من.. الآلات الثلاث.. التي أردت أنا شراءها للسفارة الوطنية! وبغبائها اشترينا.. هذه الآلة الكاتبة الواحدة، فأخذت ترقن عليها بالانجليزية والفرنسية والألمانية هي بنفسها، وكأنها كانت قد اشترتها لنفسها لتؤدي كل أعمال السفارة مراسلاتها المتعددة عليها! وكم كانت دهشة ممثل الشركة كبيرة لأنها - لنزاهتها التافهة - لم تطلب منه نسبتها المائوية، وازدادت دهشته عندما عرض ذلك وامتنعت عن ذلك.. مدعية أن النسبة المائوية - ان كانت هناك نسبة مائوية على الاطلاق - حق للسفارة لا لها هي الموظفة! أعرفتم حجما للغباء بهذا الحجم الرهيب!

ومنذ ذلك اليوم عرفت معرفة أكيدة أن هذه الكاتبة ستفسد علي في المستقبل كل مشاريعي - ولي دائما مشاريعي المتعددة - المائوية! وهذا ما جعلني أكرهها وأ.. كره حتى الكاتبة التي اشترتها، فقد كانت - على ما لها من فائدة كبيرة - تافهة مثلما! وصار إخراجها من السفارة همي الكبير.. الكبير! فأخذت أوغر صدر السفير عليها لطردها بصورة من الصور، غير أنه كان كان يعتمد عليها كثيرا.. فقد كانت لسانه المعبر في كل حفلة استقبال أو مقابلة تستعمل فيها الفرنسية.. لغته الوحيدة! ومن ثم كان يجد لكل نميمة أنقلها اليه عنها.. عذرا ومبررا! فقد كان يميل الى استقطاب الأدمغة المهاجرة في أي مكان كان فيه سفيرا! هذا لخدمة الوطن من بعيد! ولم أكن أشاطره في هذا الرأي الا حين أرى لي هناك.. نسبة مائوية!

وكانت السفارة كلها قائمة عليها وحدها تقريبا، كانت تعمل كثيرا.. وتعمل أحيانا خارج مواعيد العمل، وكان من حقها - وهو ما فعلته - أن تطلب

زيادة في الراتب، وتم لها ما أرادت.. فقد جاءت الموافقة ـ بناء على ما تضمنته رسالة رئيسنا من ثناء عليها ـ على هذه الزيادة بسرعة. وهنا وجدت الفرصة مناسبة لإثارتها وتهيئة الجو للقضاء على صفاء علاقتها بالسفارة وبظروف العمل بها! فربطت تلك الزيادة بالأعمال الإضافية لا بالراتب.. دون علم مسؤولنا، وتوقعت أن تشكو اليه حين أخبرتها بذلك.. فانصرفت غاضبة! غير أنها لم تفعل. وبعد أيام قدمت استقالتها من العمل بسفارتنا، لأنها ـ كما قالت، وكانت صادقة في قولها ـ نجحت في مسابقة شركة عالمية للسيارات.. من بين خمس وأربعين مترشحة، تميزت عنهن بلغات الآلة الكاتبة الثلاث إضافة الى.. العربية!

الميوعة.. دم !

.. وأخيرا علمني الطب والمرض، وقد يعلم المرض مالا يعلمه الطب، فالمرض معلم كبير يشعرك بنسق معين من الحياة.. ان اتبعته ضمنت لفكرك الراحة ولجسمك الصحة والتوازن وهيأت له.. لهذا المعلم الكبير ما هو جدير به من الاحترام والتقدير.. والاحترام له يعني في هذه الحالة العناية به قصد الصيانة منه وتجنب آلامه وأوجاعه! ـ علمني كل منهما، أعني الطب والمرض، أن أقل خدشة، وأصغر إصابة، وأخف صدمة، وأبسط ضربة تحدث في جسدي.. حين أحلق شعر وجهي، وأنا ـ بحمده ـ مشعر، والشعر يتغذى من الدم، وحين أنقي أنفي بأصبعي، وسبابتي تعشق أن تراوح جيوب أنفي وتغاديها، وحين أنتف شعرة تغادر أنفي وتنعطف أمامه معقوفة الى أعلى في أغلب الأحيان! ـ علماني أن كل واحدة منها تستطيع ـ على حدة ـ أن تسيل دمي.. وسيلان الدم رعب و.. خوف!

هذا الخطر المرعب المخيف.. سيلان الدم يمكن أن يحدث حتى وأنا أفرك أسناني.. رغم أن فرك الاسنان عادة لا لذة فيه ولا ألم، فالفركة ممارسة حيادية! وسيلانه معناه دخول نوع من الاضطراب على حياتي بصفتي فردا، قد لا يشعر من يعايشني به.. مما يجعلني أحوج من غيري الى.. العافية! ذلك أن سيلان الدم نقصان، وما من نقصان في شيء حيوي، وجودي، عنصري ـ ولا يخفى هنا أن النسبة الى العناصر الأربعة لا الى العنصرية ـ إلا يعد خسارة كبيرة.. ففي نقله وتبادله.. حياة! والخوف والرعب يأتيان عندي من احتمال الاستمرار والتواصل وعدم.. التوقف، فيتحول بذلك الى نزيف خارجي، وهو أهون نوعا ما، لأن النزيف الداخلي لا يرى مثل.. الموت! وهذا ما يجعل نسبة الرعب والخوف أعلى بكثير، اذ قد تكون أعراضه الخارجية شللا و.. موتا بطيئا!

هذه هي الحالة التي أعيشها بعقلي وقلبي.. بله شراييني وأوردتي ومفاصلي وأطرافي، وخاصة ـ فيما يتعلق بالأطراف ـ رؤوس أصابعي النملة، التي أحس بها في بعض الأحيان وكأنها توشك أن تتشنج وتتصلب وتتوقف عن الحركة و.. تموت! ويعتريها في النهاية ما يشبه الموت فعلا وحقا! فأنا أشعر عندئذ أن هناك ما يفصلها عني.. حتى ولو كان عدد الأصابع النائمة ـ الميتة لا يتجاوز اثنتين منها. فأحاول أن أدلكهما بأخواتهما أو بأصابع اليد الأخرى.. وكثيرا ما أبدأ بالدلك بمجرد أن أشعر ببداية.. النمل! هذا اذا حدث ذلك طبعا حين أكون صاحيا، أما اذا استيقظت من نومي مرعوبا.. لأن راحة كفي انفصلت عني، فتلك عملية أخرى، لا يكفي فيها الفرك والدلك والتمسيد، وانما تتطلب الضرب واللي والنفض.. والتصفيق في بعض الحالات! وقد يستمر كل ذلك بضع دقائق الى أن تعود لليد الحركة و.. الحياة!

ومع ذلك فاني لا أشعر بالرعب الأكبر الا حين أتذكر أن ميوعة دمي يصاحبها ارتفاع في الضغط.. يعلن عن نفسه من حين لآخر ـ رغم تناول الأدوية المخفضة ـ عن طريق الدوار، والصداع، وصعوبة التنفس، والانفعال الحاد، والكآبة، والخمود.. إضافة الى نوع من الاستسلام المذهول! وقد يحدث لي أن ألاحظ في أثناء ذلك ـ وهنا يتجاوز رعبي كل حد سوى ـ أن هناك سائلا يغمر سطح لساني، فأسرع بأصبعي الى فمي متوقعا الدم.. الدم.. الدم! فأجده مرة ولا أجده أخرى.. لأن الاحساس بالدم كان تصورا فزعا! أما اذا كان ذلك قد حدث في اليوم الذي أذهب فيه مرة في الشهر لفحص نسبة السيولة في الدم، فإن احساسي بسيلان الدم لا يكاد ينتهي. وكثيرا ما أحس أن المكان الذي أخذ منه الدم في موقفي يعاني من برودة ما، بل من إحساس معين بالبرودة.. فأرفع كم قميصي مرعوبا أيضا، ولا ذنب لي في أن ترعبني رؤية الدم.. وأهجم بعيني لأرى باطن مرفقي، وكم أفرح حين أراه.. صافيا!

مثل هذه المشاعر والتصورات تتعبني ـ وقد يجدها غيري طبيعية جدا ـ حتى الإرهاق.. وتجعلني أحس أن هناك فرقا بيني وبين الانسان العادي، بيني وبين الانسان السوي.. طبعا من حيث التنفس والحب والكراهية، وهذه الأشياء الثلاثة هي حقيقة الانسان في جميع عصوره بصورة مطلقة! الانسان يتنفس ليحب ويكره، وفي كلتا الحالتين يتجسم إحساسه بالحياة! والحب خير والكراهية شر، وبينهما تتردد وتضطرب كل الأشياء قبولا ورفضا! ويعود إحساسي بهذا الفرق الى اختلافي عنه في درجة الوعي بذلك ونسبة الادراك له.. وفي الحياة نفسها، حياة الانسان العادي حرة طلقة وحياتي مكبلة ومقيدة بالضغط والسيولة.. المائعة! انصباب الدم في عروقي وتدفقه في شراياني ليس كانصبابه وتدفقه في مسارب جسمه السليم، فانفتاح عروقي ليس.. طبيعيا، وحبذا لو كان انفتاح فكر و.. دم!

ومصدر هذه الميوعة كلها، وهي التي تجعل دمي شبه اصطناعي الى حد ما، هو أني أتناول دواءا، وكما يكون الدواء قرصا ذا لون واحد أو برشامة ملونة يكون فكرا مغلفا يفضي الى.. محطة ما! وهذا الدواء المميع يبسط حياتي وينشرها، فأعيش حالة بين بين.. بين التخثر والميوعة، وان شئتم أصبح ثوبا يتعاقب عليه الطي والنشر.. تبعا للقوة التي تهزه وتحركه، ومن البؤس أن يطوى الانسان هكذا وينشر كستار في قبضة الرياح الهوج! لكن الحياة ـ حتى في عمق أعماق الوجود ـ ليست شيئا آخر غير الطي والنشر! قد يظن بعضكم أنني أتحدث هنا عن الدواء الفكري المغلف، الذي يميع المبادىء، ويدر المباهج والمسرات، ويبعث الدماء الجديدة في المفاصل والعروق، ولكني أنا ـ فيما يخصني ـ أتحدث عن دوائي الفعلي، الذي لا أعيش يوما واحدا بدونه.. في رأي الطبيب والطب و.. الخوف والرعب!

ومع هذه الميوعة الدموية، والسيولة المائعة.. فلا ينبغي لكم أن تتصوروا أنني انسان دموي، فدمويتي ـ رغم أنها طارئة ـ تجنح الى المسالمة، وتأنف أن تؤدي مشاعر قلب أو جسد، وهل للأذى موقع غير القلب والجسد؟ ولا أستثني من ذلك غير مستعملي الزمارات في الأحياء.. سيما الباعة المتجولون، أولئك لن ينالوا رضا دمويتي ودعواتها الصالحات أبدا.. الى يوم يتوقفون عن ذلك! وتأنف دمويتي كذلك أن يعيش أحد على حسابها، وترفض أن تستغل وأن تكون نشوة للآخرين! انها تطلب أن تكون العلاقة بينها وبين أي انسان آخر ـ ولم يعد هناك مجال لانكار وجوده بكل ما له من أخطاء وصواب إنسانية، فهذه هي الديمقراطية! ـ بمثابة علاقة آدم بضلعه!

ولقد جعل آدم من ضلعه نشوة ومودة وأنسا، فلماذا لا تكون العلاقة بين الانسان والانسان كذلك عموما؟ إن ميوعتي ميوعة.. دم قابلة للاختلاط بكل عنصر.. وكيف لا وهي تعرف أنه ـ سبحانه ـ يجسد بالنسبة اليها الثقة والرجاء والأمل والمعتمد!؟

المنحة.. حكاية!

الحق في بلادي مهضوم.. وهذه الصفة من الهضم، الذي هو طحن واذابة وامتصاص وعودة الى.. الدم، سواء كانت العملية فكرية أو جسدية أو.. سلوكية! وأشك في أنكم لا تعلمون هذا، فكثرة المطاعم والاكشاك الساكنة والعربات المتنقلة أكثر من دليل على ذلك! وقد رفضت أنا أن أكون مهضوم الارادة. أردت أن أقول.. لم أقبل أن تهضمني الادارة الصغرى، لأني كنت أعلم بصفة مسبقة أن الادارة الكبرى تسمح لي بالهجرة.. والمنحة ليست منحة اذا لم تكن انتقالا الى ما خلف الحدود الاقليمية و.. سيان قرب هذا الانتقال وبعده! وأعني بالادارة الكبرى الوزارة، فقوانين وزارتي تخول لي الحصول على هذه المنحة لطلب العلم، والمنحة تذهب والعلم باق! ولكن ادارة.. معهدي لم تكن ترغب في ذلك دون أن يكون ثمة سبب واضح!

واستغربت أن تلجأ ادارتي معهدي الى المماحكة تارة والى المماطلة تارة أخرى والحال أنني طلبت منحة الى فرنسا! فهل يحق أن ترفض منحة تطلب الى فرنسا الأم.. وبيننا وبينها من ملفات الاتفاقيات الرسمية وغير الرسمية، ومنها الوجدانية والفكرية، ما قد يزيد عن الحد المقبول.. الذي لا يهضم عنده حق ولا.. منحة؟ فناضلت وناضلت، وقد علمتنا جبهة التحرير أن نستعمل كلمة النضال داخل الجبهة وخارجها.. وهل هناك اليوم من يتجاهل الجبهة وينكر فضلها الا من باب الوضاعة والعناد ونكران الجميل؟ وهل يجوز في عرف الضمير أن تشارك في لحس الأصابع فترة طويلة ثم تنشىء حزبا عند أول مناسبة لتلحس الجبهة بالمعنى الآخر؟ لقد كانت الجبهة بالنسبة الي منحا ووساطات.. ولم يكن لوساطاتها حد لكل من دب وهب، ولا ينبغي أن يزعجكم ما وقع من تغيير في ترتيب هاتين الكلمتين.. خلافا لما تعودتم

عليه، فقد كان الدب يسبق الهب في الوساطات من أي نوع كانت. الدب في جزائرنا عرض.. حتى في مستوى الوظائف العليا الحيوية!

وبفضل الجبهة كان لنضالي العنيف - ولم يكن عنيفا الا لأن فكرة الجبهة وراءه - ثمرة، والثمرة جبهة كل شجرة، كنت أنا.. الشجرة! فقد تجاوزت الادارة الصغرى، ولم أقم للإدارة الوسطى - ادارة الجامعة! - وزنا كبيرا، لأنها كانت دائما طوع الادارة الكبرى، طوع الوزارة المانحة! الصغير عندنا يماطل، ويمكر ويخادع، ويرفض لاعتبارات قانونية وغير قانونية.. أي مبدئية ومثالية! والمنحة في مسألتي لاصلة لها لا بالمبدأ ولا بالمثال.. كل صلتها بالجبهة وحدها.. والجبهة مبدأ و.. منحة! ولذلك رحبت بمنحتي الوزارة الوصية، وما وصاية اليوم بوصاية.. البارحة! وجرت الأمور.. أموري على ما كنت أريد وأحب، وكان حبي وإرادتي قد تجمعا في منحة نضالية جبهوية وزارية!

وحصلت على منحتي وسافرت الى الوطن الأم، الذي لم أومن به أبدا، ولم أكن قد زرته قبل ذلك قط.. فأي وطن هو؟ ما هذا الوطن الأم الذي أسافر اليه ممنوحا لأتعلم لغته، نعم، كنت أكره هذا الوطن الأم من كل قلبي لما تزخر به أعماقي من حس وطني، ولكن الرغبة في المنحة.. اليه جعلتني أحبه، أحبه من كل قلبي أيضا، فالكره الكلي قد يتحول في لحظة واحدة - ولتكن هنا أصغر وحدة زمنية - الى حب كلي. وكم قريبة - في بعض الأحيان - هي المسافة الزمنية بين الحب والكره! وخلاصة هذا الحب والكره هي أني - كما قلت سابقا - سافرت الى الوطن الأم.. وانها لأمومة غريبة كل الغرابة! فقد وجدت نفسي فيه - في هذا الوطن الأم - وكأني لم أغادر وطني الأصلي على الاطلاق! ذلك أني نزلت في حي لا أكاد أسمع في جنباته غير لغتنا الدارجة بكل ما لها من أصول وأخلاط أجنبية! ولم تكن الظروف التي أحاطت بي في هذا الحي تختلف عن ظروف وطني.. من حيث النصب، والاحتيال، والسوق السوداء والتهريب، والانسلاخ، والكفر، والمكائد، والمتاجرة بالأعراض و.. الذمم!

لقد وجدت في ذلك الحي ـ على العموم ـ كل ما في الوطن من سلبيات ومساوىء.. حتى الغلاء كان هناك مفقودا! وأعني طبعا غلاء الوطن، فالوطن فيما يخص هذه الأمور ليس غاليا لا في الوطن الأصلي ولا في الوطن الأم.. وقد يكون الوطن أعز عند أبناء الوطن الأم منه عند الأبناء الحقيقيين! وبذلك عشت مشاكل أبناء وطني في.. الهجرة! وكانت هذه المشاكل عديدة متنوعة، يعرفها من عرف غربة الوطن والهجرة الى الوطن الأم و.. الحي الوطني فيه! وأكبر مشكلة جابهتني شخصيا ـ واني لأعترف بهذا بكل اخلاص وصفاء ـ هي مشكلة.. السنوات الثلاث! وترجع هذه المشكلة أساسا الى أن ادارتي الصغرى أرادت أن تقطع عني المنحة بعد أن أتممت سنتين كاملتين.. بدعوى حاجتها الى خدماتي! وكم كانت دعوى الخدمة وراء كل حرمان!

ولم يكن لي في هذه المرة أيضا إلا أن أناضل وأثور وأرسل تظلمي الى الجبهة.. ولم يكتفي ذلك فأرسلت كتابا الى مدير الادارة.. أتهمه فيه بالموافقة على اعطاء منحة لكل من يأتي الى مقاصف الوطن الأم وملاهيه و.. ملاعبه، وحجب هذه المنحة ـ وهي هنا تكميلية ـ عن كل من يريد أن يتعلم ويجد ويجتهد و.. يفوز فوزا عظيما! وقد كتبت هذا الكتاب بلهجة حارة وحادة في آن واحد، فليس للانسان في ظروف كالظروف التي نعيشها الا أن يبرز أنيابه الحادة، وخاصة اذا كانت من الطقوم المصنوعة في بعض عيادات طب الاسنان عندنا، حتى لا يهضم حقه! حتى لا يقطع به الحبل في نصف الطريق قبل أن يتغنى شبعا وريا.. وذلك لا يتم الا بالرقم ثلاثة! وقوانين الوطن تنص على أن المشتريات لا تعني من الرسوم الجمركية الا بعد اقامة ثلاث سنوات في.. الهجرة. أليس لهذا الرقم قداسة يجب أن تحترم؟ أليست حروف العلة ثلاثة؟

وبنضالي وجبهتي ـ للمرة الثانية ـ كسبت سنتي الثالثة، وما أن وصلتني الموافقة ـ ولا تتم الفرحة الا بأمر كتابي ـ حتى وجدتني أتغنى مع هارون الرشيد.. ملك الثلاث الآنسات عناني/وحللن من قلبي بكل مكان، ومع سليمان بن الحكم.. وتملكت نفسي ثلاث كالدمى/زهر الوجوه نواعم الأبدان، وأهتف مع طرفة بن العبد.. ولولا ثلاث هن من عيشة الفتى/وجدك لم أحفل..، وأردد مع نفسي.. الأفعال ماض وحاضر ومستقبل! وكانت سنواتي الثلاث وسيلة الى أخذ أشياء ثلاثة.. الحضارة واللغة والشهادة العليا. ولكني عدت الى وطني، وطني الأصلي بأشياء أخرى غير هذه.. فزت بها احتراما للعدد ثلاثة! عدت من سنوات الثلاث ومعي.. سيارة فاخرة، وأثاث من الدرجة الأولى و.. حكاية!

الانتـصـار.. تطـاول!

عندما تهيء لك الظروف المواتية، وما أكثر ما تهيء الظروف نفسها بنفسها لتكون طوع انسان يجهل حتى ظروفه الخاصة، والظروف المواتية في جوهرها حظ ونصيب، قد يجعل من خلي البال، وخالي الوفاض أيضا، بعد نومة مضطربة طلقة.. وزيرا! عندما تهيء لك الظروف أن تنتصر على غيرك، وتفوز عليه في قضية، وقد تكون هذه القضية منافسة ادارية أو حزبية ـ وأيامنا لا تكاد تعرف المنافسة الفكرية والفنية ـ فان من حقك أن تتطاول على خصمك فكريا وعاطفيا، نفسيا وجسديا.. حتى وان اقتصر المؤكد عندك على النفس والجسد!

والتطاول يعني في أقل معانيه.. تجاوز كل الامكانيات المحدودة، ذلك أن الانتصار ـ في أي ميدان كان ـ قد يأتي مصادفة.. ليثبت الوجود الفعلي في الحياة! ومن ينكرها ترى أن حياة الانتصار.. حياة المواجهة البارزة.. حياة؟ وهذا، لأن الفشل كان حليف تصرفاتك الفعلية اطلاقا.. ولكن الفشل في مجال الارادة ـ وخلف كل مصادفة عندنا في الحقيقة الواقعة ارادة! ـ يفقد طبيعته ويصبح انتصارا باهرا، بل.. ساحقا!

كانت الارادة قد رشحته ليكون خصما لك ـ ولنجعل هذا مؤقتا مجرد افتراض ـ في الانتخابات النيابية، رشحته لذلك وهو ما هو علما وأدبا، فضلا واستقامة، ثقافة ونزاهة، إباء ونضالا، شهرة وسمعة، وكل ذلك في داخل الوطن وفي خارجه، ولكنها رشحته لمجرد أن يكون منافسا لك.. وما كان مثله لينال حق منافسك، فأنت دونه في كل شيء.. وضعته معك في ميزان مجحف.. بداية!، فقابلك وقابلته، هو في كفة وأنت في كفة، ليكون خصمك في المنافسة الحرة.. ظاهريا! لقد كان في الواقع صديقك وابن منطقتك.. وليس

في المنطقة أي ضمان لفوز المنطق! كانت جذوركما الجهوية ـ ولنتجنب هنا النسبة المنطقية ـ واحدة، ولكن كلمة الانتخاب.. انتخاب!

وجاء الرجل، الصديق، المرشح ليدلو بدلوه في المنطقة ـ ومنطقتك تعرف عادة بكثرة الادلاء ـ فالتقيتما على صعيد المحبة والصداقة.. وكلاكما يفكر في أهليته للفوز وهو ينظر الى الآخر في تحد كما يفعل الملاكمان قبل بدء المعركة فوق الحلبة! واتصل بالناس كما اتصلت بهم، وخطب في أبناء العشيرة والمنطقة كما خطبت أنت فيهم، وطبيعة الخطبة أن تكون بالجنة أو النار، غير أن الخطبة الانتخابية، وهي انتخابية لأنها تدعو الى الانتخاب، لا تعد الا بالرخاء و.. الجنة! فوعدهم من جهته كما وعدتهم من جهتك بكل خير، وكل منكما يعلم أنه لا خير في الانتخاب نفسه الا.. الفوز الشخصي والوصول الى مصدر السلطة!

وقد اهتم هو بخطبة في كل القرى والأحياء والأماكن التي تحدث فيها، وكان له من ثقافته وغزارة علمه، من كثرة اطلاعه ووفرة تجاربه، وسعة معرفته بالمشاكل اليومية، ما يؤهله لأن يقدم خطبة جيدة! فقد كانت الخطبة الانتخابية تشبه الخطبة الدينية ـ ومن هنا الحرص على كلمة.. الخطبة! ـ في مقاصدها بشكل ما، أما اليوم فان الخطبة الدينية تشبه الخطاب السياسي الى حد كبير.. والهدف الآن واحد، اذ أصبح كل شيء محاولة انتخاب ومحاولة فوز في آن واحد! والمحاولتان ملتحمتان التحام الغاز والنفط في المصدر والسعر!

أما فيما يخصك أنت، فانك لم تهتم بخطبك، ولم تشغل منك بفوزك اطلاقا، فقد كان خصمك، صديقك، مرشح الرفض يعيش بعيدا عن المنطقة منذ سنوات.. رغم زيارته لها ولأسرته بها في فترات متقاربة الى حد ما، وهذا البعد لم يكن سببا حقيقيا للرفض.. لرفض الخصم المرشح مسبقا فكم من بعيد رشح في حالات مماثلة ليفوز عن.. بعد! لكن الديمقراطية كانت

تتطلب أن يكون لك خصم، أن يكون لك منافس، والمنافسة خصومة في كل المستويات، يرفع اسمه ويطرح أفكاره في مقابل اسمك وأفكارك، فلك اسم على أية حال، ولك شخصك والشخص هنا يغني عن.. الفكر!

انك لنبيل بوجه من الوجوه.. حين تشعر برثاء لخصمك.. الذي لم يكن خصمك الا تصورا من.. جانبه! فقد كنت تعرف من البداية أنه لم يرشح الا ليهان.. الا ليسخر منه ويعامل معاملة سوقي مترشح.. وكأنه رشح ليحل محلك في حالة الرفض! أريد له ذلك لأنه رفض أن يكون لسانا لغيره، لأنه أبى أن يكون بوقا يثير حماس.. البقر! ولست أدري كيف قبل بعدئذ بهذه الاهانة على.. حساب مكانته المرموقة.. التي جعلتها الارادة.. ارادة الغير.. ملكا في الانتصار! وبهذه الطريقة، طريقة اهانة المثقف الرافض، المبدع الأبي، يعطي لك الانتصار المرموق في كل.. الانتخابات! أتدري لماذا؟ انك لتدري.. ومائة مرة تدري، فأنت تمثل طواعية الارادة الأخرى.. تلك التي تدير مصلحتك!

بقي لي هناك رجاء.. رجاء ذو طبيعة خاصة، وهو أن محدثكم ليس الآن مريدا، وانما هو.. مراد، له كل المريدين من أصحاب الخطى السريعة والأهداف المستعجلة! فاعذروني ان أنا حدثتكم هنا بكاف الخطاب ـ والخطاب في هذه المرة ليس من الخطبة ـ وخلطت ماضيي بحاضري، فالمنتخب المنتصر في شخصي لا يزال.. منتخبا، والانتخاب في النيابة اختيار.. الارادة.. وهو جزء من تطاولي وداع من دواعي.. الخطاب!

الحليب.. وساطة!

أنا لا أقرأ الا جريدة الشعب، لأني كنت دائما أحس أنها من.. الشعب.. ولو هي اكتفت بمجرد الاسم الصريح! ألسنا نقدس الاسماء؟ اذن فأنا أقدس الشعب، فأنا منه، وفيه الخير كل الخير حين لا يقمع.. واذا قمع فانه لا يني يغلي داخليا حتى تأتي تلك اللحظة ـ ولكل انسان وشعب لحظة مقدسة ـ التي يثور فيها ويعزم.. والعزم خيار بين الموت والحياة.. ولكن العزم في معظمه اختيار حياة وليس استسلاما.. فالاختيار في هذه الحالة يعني قبول الموت باعتباره نتيجة عمل غير عادي.. عمل تحد ومجابهة! والمجابهة قد تكون هبة حياة.. جديدة!

أجل، أقرأ الشعب، ولا أقرأ المساء، لأني شعرت منذ صدورها لأول مرة أنها مساء حزين، ولا يمكن الا أن تكون مساء حزينا.. رغم ما قد تتضمنه من أخبار جديدة تسبق بها الشعب، ورغم أنها زميلة الشعب، بل أخت الشعب، لا بل هي بنتها، أي أنها تصدر ـ وأقول هذا لمن لا يعرف ذلك ـ عن مؤسسة الشعب للصحافة! والأفضل أن أذكر على الحكاية: الشعب ـ الصحافة! وانظروا كيف دخلت العجمة حتى في عناوين مؤسساتنا الوطنية.. وكأنها عنوان على جعل العجمة شعار.. العربية! فنحن نستعمل هذا المصطلح بدل أن نقول مثلا دار الشعب للصحافة والنشر.. ولو أنها لا تنشر غير أعداد الجريدة اليومية!

وهناك سبب آخر يجعلني لا أقرأ المساء، وهو أنها ظهرت مع آفاق الفرنسية! فقد كان من أصدرها على يقين من أن الفرنسية ستبقى في هذا الوطن الحبيب ـ وهو حبيب لدي بصفتي مجاهدا.. وكم حز في نفسي أن تكون جريدة آفاق قد صدرت عن المجاهد المفرنس، فأنا لا أفهم كيف يكون

مجاهد مفرنسا في عهد الحرية! ـ هذه الفرنسية ستبقى مطمحا وأفقا، ولا أقول آفاقا، فالمفرد هنا أقرب من الجمع، فأنت لا تستطيع الا أن تشير الى أفق واحد، وهو الأفق الذي نعيش فيه.. في الفرنسية على هامش الحضارة!

وعندما أخذت نهار اليوم جريدة الشعب لأتصفحها.. وأنا حارس باب معمل الحليب.. جلب انتباهي عنوان مقال يتحدث فيه صاحبه عن الدور الذي تقوم به الوساطة في الحصول على الحليب في معمل.. بئر الخادم للحليب! وفي الحين فكرت في حاجب مركز بيع الحليب ببئر الخادم! فكيف تجاوزتني يا ترى البزة الأخرى ـ وأنا صاحب بزة أيضا، ولو كانت بزة الحاجب فقط ـ واستطاعت أن تنال الحليب وما له من مشتقات بطريقة غير.. شعبية كما ذكر صاحب المقال؟ وفكرت في النهاية.. لابد أن يكون ذلك قد حدث حين كنت في عطلة أو حين كنت قد مضيت لأمر من الأمور المستعجلة.. وكل أمر عندنا غير مستعجل الا اذا تعلق الأمر أو مثله باحدى البزات الرسمية!

وظل هذا الموضوع.. موضوع المقال.. يشغل فكري عدة أيام، وكنت أستغرب ما جاء فيه كلما تذكرته. وذات يوم جاء شخص أعتقد أنني رأيته في ساعة من الساعات، وسألني عما اذا كانت هناك مثلثات علب الحليب الخضراء.. وبما أن خديه كان منتفخين بشكل ملفت للنظر، فقد فكرت في نفسي.. لابد أن هذا السيد يريد أن يزداد خداه اكتنازا، لأنه لا يبدو عليه أنه من عمال الحليب.. وان كان العمل في معمل الحليب لا يحول دون اكتناز الخدين.. ولا هو ممن تعرض لعملية التعقيم باتداء البزة الرسمية، فالبزة الرسمية تعقم من يرتديها بحيث تدعوه البضائع من مكان بعيد بكامل.. الحرية! وأجبته.. الحليب موجود.. ولكن البائع.. يخلف الله.. غير موجود. ماذا تريد، يا أخي! عندنا يختفي البائع مرة، ويختفي الحليب مرة! هذه هي الديمقراطية بكامل حقيقتها.. هكذا تفهمها أيامنا الفريدة!

وعندئذ سألني المكتنز الخدين.. عما اذا كنا سنبيعه الحليب اليوم بعد أن كتب عنا في الجريدة! وفي الحين أسرعت أقول له.. أنت من كتب عنا اذن؟ أنت بطول وعرضك، أنت نفسك؟ لقد حضرت للمرة الثانية و.. تريد حليبا وما أشبه؟ ونظرت الى سيارته وكانت من النوع الذي ترتفع مؤخرته.. وقد ذكرتني بالبقرة التي ترفع ذيلها في الربيع.. استعدادا للفرار! وقلت له.. لو كان الوقت ليلا لسرقت عجلات سيارتك.. وهذا دون أن أعطيك حليبا! فأجابني بأن العجلات تالفة.. مظهره وحده يوهم بأنها جديدة، وقد طلبت عجلتين اثنتين ـ والسيارة لا تمشي الا على أربع ـ حسب القانون ـ والقانون عندنا يمهل في العطاء ولو كان في تلف العجلات.. تلف الرؤوس! ولو كانت السيارة تسير على العصي لانتهت في غاباتنا الأشجار الصغيرة!

وعدت به بعد ذلك الى الحليب.. اذا أردت أن تحصل الحليب وبنيه وبناته فعليك أن تبحث عنه عندي.. أنا المجاهد الطيب، الذي يحب الطيبين، كل الطيبين، واني لأرى الطيبة تغمروجهك كالحليب! أنت قريب مني منذ أن قرأتك في الشعب! وأعطيته من الحليب ما أراد.. مع أن البائع لم يكن موجودا. لقد خيل الي أن علي أن أصبح ـ أمام الطيبين ـ أنا البائع، وعلى البائع أن يتحمل في هذه الحالة مسؤولية طيبته.. ولو وصل الأمر به الى أن يدفع الثمن من جيبه الخاص.. على ضعف هذا الجيب الخاص وفقره، ولم يكن لديه الصرف حين أراد أن يدفع ثمن الحليب، فقلت له ـ ولا بزة له ـ وكأني أفتخر بثقته في وبثقتي فيه.. فليكن التسديد فيما.. بعد!

ولم أحدد أي وقت لدفع ثمن الحليب، وكنت على استعداد لدفع ثمن الحليب.. حليب صاحب المقال، الا أنه عاد ـ بعد أن دار دورة في بئر الخادم ـ ودفع ما عليه من دين، فلمته على أنه أسرع في تسديد ذلك، لكنني فرحت، لأني شعرت أنه يشبهني في طيبته، وأدركت أن الحليب.. وساطة، والطيبة خلق في عصر لا يعترف الا بعصمة.. الوساطة!

المواجهـة.. دورة!

غريب هو أمر بعض الناس، وقد يكون بعض الناس كل الناس، غريب أمرهم، بل أكثر من غريب.. وما للغرابة من حد ثابت مرسوم. والغرابة بكل ما لها من مغارات وانعطافات ومباغتات ومتاهات وخيالات.. غرابة! والخيال في كثير من الظروف أساس الغرابة، فحين تحسن الى بعض هؤلاء الناس ـ رغم أن هذا الاحسان قد يكون في تصورك فقط ـ يظنون أنك تسيء اليهم، وتحط من قيمتهم ـ وانعدام القيمة عندهم وارد ـ يظنون أنك لا تقدم لهم من الاحترام والتقدير ما يتناسب مع مقامهم، ولا تضع وجهك ـ ان كانوا من الكبار بشكل ما ـ مقابل وجوههم بتساو واعتدال!

وأعتقد أنه من حقي ـ مثلما هو من حقك، وما أجمل أن تكون الحقوق متساوية في كل المجالات التي يخضع فيها الحق لشروط منافية لطبيعته! ـ أن أتساءل عن طبيعة من يحسن الى الناس في حقيقة الأمر وواقعه.. وهل هناك من حقيقة لا تقبل الواقع، هل هناك من فرق بين الواقع والحقيقة؟ لا يطلبن أحد منكم أن أحدثه عن الحقيقة المطابقة لقناعاتي ـ والقناعة يبرزها القول والفعل ـ وعن الحقيقة المطابقة لواقع الحياة، ثم عن الحقيقة المعبر عنها ـ في هذا الذي أسجله ـ مشاعر وأحاسيس خاصة، اتخذت خصوصيتها من حقيقة الكتابة، وواقع النشر، فحقيقة الكتابة نبل، وواقع النشر حس وفكر!

كان من حقي أن أتساءل عن المحسن، ومن حقي الآن، بل ربما من واجبي ـ وما أجمل أن يجيب الانسان عن كل سؤال يطرحه هو نفسه.. أو غيره، فقد يكون الجواب حلا لمشكلة عويصة! ـ أن أجيب عن هذا السؤال طبقا لما لدي من تصور عن الانسان! وقد تكون سعادة الانسان في ثراء.. تصوره! والحياة، الحياة الفردية، مبنية على تصور من الجائز أن يكون هو

الحقيقة وأن يكون خلافها، وخلاف الحقيقة قد يكون في جوهره حقيقة! ولا ينبغي أن تزعجكم الصيغة المضارعة ـ أو الفعل المضارع ان كنتم ممن تشكل عليهم الصيغ التعبيرية الحديثة ـ التي تكررت في حديثي اليكم في هذه الفقرة أكثر من مرة، وهل يعني التكرار في القول ـ وفي الفعل أيضا ـ غير البحث عن الجوهر والواقع و.. الحقيقة؟

يحسن الى الناس في تصوري انسان مؤدب بطبيعته.. لأن الأدب لا يكلفه شيئا من جهة، ولا يحمله على الاساءة الى أحد من الناس من جهة أخرى. ثم إن طبيعته الخلقية قد تلزمه الاحسان الى الناس دون أن ينتظر من وراء ذلك شيئا، فكل همه أن يرضي هذا الميل الخلقي والنزعة الغيرية.. هذه النزعة قد تشكل حياته الكلية. وهناك انسان ـ من نوع آخر ومن طبيعة أخرى ـ يحسن الى الناس نفاقا، لأنه يريد أن يبلغ من الناس شيئا من الأشياء ـ ولو اقتصر ذلك على طلب التأييد في الانتخابات.. وهو في الواقع أخس أنواع النفاق! ـ لا يعرف في البداية حقيقته غيره. وهذا النوع من الاحسان لا يتضح في معظم الأحيان إلا بعد أن يكون المحسن المنافق قد تمكن من الظروف المعدة التي كانت مطمح نظرته وبصيرته.. ولكم تنحرف البصيرة عن طريقها السوي!

وهناك نوع آخر يحسن الى الناس ـ وأرجو ألا يتجاوب معي في حالتي هذه ذوو العاهات فقط! ـ لأنه يعاني من عقدة ما، من عيب ما، يتمثل في عاهة طبيعية، فيحاول جهده أن يتجنب أي نوع من أنواع قلة الأدب، وخاصة قلة الأدب التي تصدر عن عاهته، كما يحاول أكثر من جهده أن يحترم الناس ويقدم لهم الجانب المؤدب من جهه، وبما أن لوجهه جانبين، فانه يقدم مرة هذا الجانب، وأخرى ذاك الجانب، سواء كان مظهر أحد جانبيه متساويا مع الآخر أو لا. المهم أنه يتبع في ذلك طريقة، تخضع ـ في كلتا الحالتين ـ لمشاعر يمليها الظرف المحيط به. وأنا لسوء حظي ـ وحظي سيء فعلا، لأني خلوق بطبيعتي ـ من هذا النوع الأخير!

وعاهتي ـ للأسف ـ في فمي، وأرجو ألا تتسرعوا فتظنوها بخرا! تجعلني أدير وجهي نحو اليمين أو نحو اليسار تجنبا لمواجهة الناس. هذا ما تعودت أن أفعله معهم عند مخاطبتي أياهم، فالمواجهة مع هذه العاهة قلة أدب وخسة، وأنا ما أردت قط أن أكون قليل الأدب خسيسا في أي ظرف من الظروف. إلا أن هناك ظروفا أخرى لا تستطيع لها دفعا ولا تجنبا، تفرض عليك أن تسلك سلوكا.. وتتصرف تصرفا لا ترضاه، وتفعله وأنت مرغم عليه إرغاما. وقد حدث لي ظرف من هذا النوع، اقتضى أن أذهب لأول مرة ـ منذ التحاقي بالوظيفة قبل خمس عشرة سنة ـ لمقابلة رئيسي في المؤسسة التي أعمل فيها.. لأمر من الأمور. وطبعا أدرت وجهي ـ تأدبا معه ـ بعيدا عنه، وأريته خدي الأيمن، فثار في وجهي بعد الكلمات الأولى:

ـ لا تدر وجهك بعيدا.. فهذا لم يحدث قبل اليوم في هذه المؤسسة التي أرأسها! أريد أن تنظر في وجهي وأنت تخاطبني. هذه قلة أدب وخسة! تعلم منذ الآن كيف.. كيف تنصب وجهك في وجهي، كيف تنظر الي مواجهة..وإلا فسيكون لي معك شأن آخر!

فاقتربت بوجهي من وجهه وقلت له:

ـ فليعذرني سيدي! عندما أتحدث يتطاير البصاق من فمي...

وواصلت الاجابة على أسئلته.. المؤدبة!

الجنحة.. شلل!

قد لا يصدقون قصتي، ومع ذلك أشعر أن من واجبي أن أرويها لكم.. علكم تشاركونني. هذا كل ما أطلبه منكم، وليس من المستبعد أن أكون أول من يطلب منكم هذا النوع من المشاركة في.. الدهشة! وأنا أعرف مسبقا كما تعرفون أنتم طبعا أن الدهشة تعني تعثر الوعي والحس بشكل ما، وقد تعني غيابهما في لحظة من اللحظات، التي يعيش فيها المرء تجربة شخصية، أو في لحظة من تلك اللحظات، التي يعيش فيها المرء قصة من.. باب المشاهدة أو القراءة! وستعيشون أنتم قصتي.. قراءة، تعيشون غرابتها كما عشتها أنا بداية ونهاية، والغرابة قصة مشاهدة!

قصتي أنني كنت ذات يوم كئيب ممطور.. أعترف أن كآبته لم تنسحب على نفسي بأية صورة من الصور، بل يمكنني أن أقول انني كنت فرحا مسرورا.. بالذهاب الى عملي قبل الموعد بحوالي ساعة.. لأن لي عادة لا أتخلى عنها أبدا، وهي أن أنام مبكرا وأقوم مبكرا، والذهاب المبكر الى العمل يتيح لي أن أتحدث مع الزملاء في العمل بنشاط.. فأنا أعتبر التبكير نشاطا وحيوية وبركة و.. استقبالا ليوم جديد بعزيمة جديدة، ولابد أن يكون للعزيمة رجالها وأبطالها، فلكل صفة انسانية بطل.. سواء أكان ايجابيا أم سلبيا.. رغم ما للسلب والايجاب من تبادل في المواقع والمراكز والأهداف و.. القمم! وكنت أتصور نفسي بطل العزيمة!

كنت في هذا اليوم الممطور أسير في شوارع مدينتنا.. في طريقي الى عملي.. الى الدائرة التي أعمل فيها، وعندما مررت أمام أحد المراكز الرسمية، نظرت مصادفة الى الرصيف المقابل من الشارع واذا بي ألمح صديقا عزيزا، فرفعت يدي اليمنى لتحيته، وينبغي لي أن أخبركم هنا أيضا أن لي عادة ثانية، وهي أني أصافح بيدي اليسرى وأحيي عن بعد بيدي اليمنى! ومثلي لا

يستطيع الا أن يفعل ذلك، فعلى الانسان المهذب أن يعرف الأوضاع المناسبة لكل ممارسة من ممارساته اليومية، وكان رفع يدي اليمنى في ذلك اليوم ضمن ممارستي اليومية دون أي توقع أو انتظار!

وما أن اختفى صديقي العزيز حتى.. استوقفني شرطي، وطلب مني وهو يمسك بمرفقي أن أدخل معه مركز الشرطة، فسرت معه وأنا مرعوب القلب، مفجوع الفؤاد، مرتعد الاطراف، أتساءل في أعماقي.. أي ذنب ارتكبت، وأي اثم جنيت، يا الهي؟ أنت وحدك تعلم ما يتعاقب على القلب من صواب وخطأ.. أنت وحدك تعلم أنني لم أرتكب اثما، ولم أقترف ذنبا لا في حقك ولا في حق أخي الانسان، فكن لي يا لطيف سترا مستورا، ومن سواك يدري ما يخفيه وجدان الظالم؟ وما أن دخلت أحد المكاتب حتى استقبلني أربعة من رجال الشرطة في لباس مدني، وصاح بي أحدهم، وكان أزرق العينين، أحمر الخدين، واسع الفم، أشقر الشارب، طويل القامة:

ـ هكذا اذن!

وردد الباقون وكأنهم صداه:

ـ هكذا اذن!

وقبل أن أتساءل عن معنى ذلك كله.. وقبل أن أدرك ما يدور حولي، انهالوا علي بالضرب من كل جانب كما لو أنهم يتبارون في ذلك.. هذه لكمة في الصدر، وتلك في الخد ثم في البطن.. ثم بين الرجلين.. وأنا أتلوى صعودا وهبوطا. وما أن أحاول فتح فمي للكلام حتى تسكتني لكمة وركلة وصفعة قوية، كل حركة ضربة وكل سكنة لطمة، أفقد معها توازني وأقع أرضا، فتنهضني يدان قويتان بصورة خاطفة ليستمر الضرب والتعذيب.. كأن في القضية أنواعا من الانتقام! وقد تمثلت أفظع معاناتي في الضربات الرأسية التي تلقيتها. فقد كان من بين رجال الشرطة شرطي مستدير الرأس كبيره.. في حجم دلاعة متوسطة! ورغم ما كنت أعانيه من ألم الضرب المبرح والنطح القوي..

فكرت في نفسي.. يا سبحان الله.. كأني به لم يصبح شرطيا الا لاستدارة رأسه!
وحين أنهكت ولم يبق في ما يضرب، وضعت في زنزانة واطية، حشرت فيها حشرا.. لا يجلس فيها المرء الا وهو مطأطىء الرأس، مقوس الظهر، مجموع الأطراف! فكان علي أن أعاني عذابا من نوع آخر. وبعد ساعات لا أدري.. عددها، بعد الظهر على أية حال.. أخذني ذو الرأس المستدير الى قاضي التحقيق، وكان يقول لي بين الحين والآخر.

ـ هكذا تتعلم كيف تحترم الناس!

وحين أهم بالكلام يظربني بركبته في مؤخرتي:

ـ ولا كلمة واحدة، يا ابن الدابة!

ووجدتني أمام رجل طويل الرأس كالقرعة! فكان أول ما فكرت فيه.. اذا كان شرطي المستدير الرأس قد نطحني، فان هذا القاضي سيأرجحني فوق قرعته المنتصبة، ويفعل بي ما يفعله الوعل بغريمه، ثم يلقي بي في زنزانة أخرى أشد وطأة، لكنه.. وأشهد الله على ذلك.. استقبلني بلطف كبير، وكانت البسمة لا تكاد تغادر شفتيه. وعندما انفردت به سألني:

ـ لماذا فعلت ذلك؟

فشعرت في الحين أن في استطاعتي أن أطمئن اليه وأن أحدثه عن أمري دون أن أتلقى ضربة منه، فسألته بدوري:

ـ ماذا فعلت، يا سيدي القاضي؟

ـ غريب أمرك هذا. ألا تعرف ماذا فعلت؟

ـ لم أفعل، يا سيدي، ما يجعلني أستحق العذاب، الذي عرفته في هذا اليوم. دعنا من العذاب الآن!

ـ لكنني أريد أن أعرف ماذا فعلت قبل أن.. أموت!

فاستوى القاضي في كرسيه الفخم، وقال لي:

ـ ألم تر في الصبيحة سيارة معينة تمر أمامك؟

ـ لقد مرت أمامي، كما قد يعرف سيدي القاضي، سيارات عديدة حين كنت أستعد لقطع الشارع وحين كنت أسير على الرصيف!

ـ ألم تلاحظ سيارة سوداء؟

ـ كلا، يا سيدي القاضي!

ـ ولم تر انسانا جالسا بها؟

ـ اذا أنا لم أنتبه للسيارة نفسها فكيف أنتبه للجالس فيها؟

ـ ومع ذلك فان التقرير الذي هو أمامي يقول غير ذلك!

ـ وماذا يقول التقرير؟ فهمني، يا سيدي القاضي.. حتى أعرف كيف أدافع عن نفسي! انه لظلم كبير أن أعاقب دون أن أعرف السبب!

ـ التقرير يقول.. انك أسأت الى شخصية كبيرة!

ـ لا أدري كيف أسيء الى شخصية كبيرة وأنا لم أكلم أحدا منذ خروجي من منزلي في الساعة السابعة؟

ـ قد لا تكون الاساءة كلاما، قد تكون اشارة!

ـ لا أذكر أيضا أنني أشرت الى أي شخص بقصد الاساءة اليه!

عندئذ كور يديه، فخشيت أن يلكمني هو الآخر، فلم يسبق لي أن جلست أمام قاض من القضاة، الا أنه رفعهما فوق كتفيه وتثاءب، ثم قال لي:

ـ لا أخفي عليك أن التقرير يذكر بصراحة أنك أشرت بأصبعك الوسطى الى شخصية كبيرة كانت تركب السيارة السوداء. وهذه اهانة يعاقب عليها القانون.

يا سيدي القاضي.. ثق أنني لم أفعل ذلك. لم ألاحظ السيارة السوداء ولم ألاحظ راكبها. الذي فعلته حقا هو أنني رفعت يدي تحت.. أمام المركز لأحيي صديقا عزيزا كان يسير في الرصيف الآخر. هذا هو السبب اذن...

ـ اذن هنا كانت الاشارة الى صاحب السيارة السوداء!

وعند هذا الحد قلت له موضحا.. بألم كبير:

ـ من هنا جاء الظلم، يا سيدي! أصبعي الوسطى لا يمكن أن تسيء الى أحد اطلاقا، فقد أصابتها رصاصة في حرب التحرير فأصبحت.. مشلولة!

المعجزة.. كتابة!

لكم أود في هذه اللحظة بالذات أن أصرخ و.. أصرخ! والالحاح على الصراخ في مناسبة من هذا النوع حرقة متفجرة. ترى هل بقي فيكم من لم يعان هذه الحرقة المتفجرة؟ الحقيقة أننا في غضبنا الداخلي نمتلك عددا لا يحصى من هذه الحرق المتفجرة.. لو أننا أستطعنا حصرها في مكان معين.. لو أننا استطعنا ذلك لأمكننا أن نصنع منها قنابل أو صواريخ موجهة يصل مداها الى مدارات معينة.. الا أن غضبنا ـ للأسف ـ من طراز فارغ لا يخرج من الأعماق غير الدخان والصمت.. وقد يكون الصمت صوت الدخان! وهو دخان قلما يدل على أن هناك لهيبا و.. حركة!

حقا وحقا.. أريد أن أصرخ، بل أنا أصرخ الآن.. ركزوا أنظاركم في حروف كلماتي وستلاحظون أنها تصرخ صراخا صامتا.. يتوثب بين الحروف والفواصل والنقط و.. السطور! أصرخ، ولكن الآذان المتسلطة ـ واحرقتاه! ـ لا تسمعني، لأنها ـ في السلطة ـ لا تسمع أصوات صواريخ الحرق المتفجرة، وهي قواعد الصراخ الأليم، وانما تسمع صداها، ورفيف أجنحتها، وحفيف أثوابها المخملية. وكم للنفوس المتسلطة من صدى ورفيف وحفيف! والصدى امتداد، والرفيف بسطة، والحفيف صوت! فكيف أنتظر منها أن تسمع صراخي الصارخ، وصوتي العميق؟

أجل.. لن تسمع صراخي ولو ساعدتها فيه بنت الجبل! ولست أدري لماذا سمي الصدى في العربية.. بنت الجبل ولم يسم ابن الجبل، ففي الصدى شهامة وفحولة! ولست أدري كذلك لماذا جعل الصدى اسما لنوع من البوم ـ واليوم شؤم صراخه في العديد من المعتقدات الشعبية ـ يدير رأسه قبلك اينما درت وكأنه.. السلطة المتسلطة! أيكون صراخي صراخ شؤم وبوم؟ إن صداي يحرمني سرية ما أريد أن أصرخ به لمهجتي وحدها، والمهجة في كامل حقيقتها سر..

الوحدة! وأنا لا أصرخ الا حين أنفرد بنفسي.. لا أسمع غير الأصداء التي تنطلق من أعماقي نيرة، مشعة، صامتة صمت.. الشعاع الباهر!

لعلكم انتبهتم - بناء على ما سبق من اشارات خاطفة - أن صراخي تحمله كلماتي المحترقة. صراخي هو ما أخطه من معالم وسطور، هو ما أكتبه لكم بين الحين والحين.. أنتم يا من حظيتم بنعمة القراءة! فهل فكر واحد منكم - وهو بعيد عن السلطة طبعا - في الظروف التي أمارس فيها عملية الكتابة، وفي الهيئة التي اتخذها ليتم لي ذلك، وفي الضوء الذي أكتب تحت نوره؟ أعتقد أنكم - كالسلطة - لم تفكروا في شيء من هذا القبيل، فمعظمكم - وقد يكون في كلمة كلكم اسراف - لا يفكرون الا في الأكل والشرب و.. والتسلية من النوع الرخيص الى حد الملل والتخمة. وهذه التخمة يمكنها أن تلهمكم التفكير في كاتب من الكتاب، تأكله الأحزان، وتشربه الكلمات، وتسليه العبارات والسطور والفقر والصفحات وقمة فرحته.. الأعمال المنجزة شفعا ووترا!

لهذا يندر أن يشعر أحدكم برغبة في القراءة.. ان كانت للقراءة سلطة عليه وسيطرة! واذا هو قرأ عملا من أعمال كاتب من الكتاب.. فان ذهنه يصور له - بمجرد إقباله عليها، وقد يلهيه ما يصوره له عنها - أن كاتبا يكتب أشياء جميلة ومفيدة ومسلية لابد أن يكون - كالطبيب - مُدَرْهَما ومُرفّها، يجلس في مكتب فاخر، يضاهي مكتب.. السلطة، لأن كثرة ما ينشره هنا وهناك من كتب ورسائل ودراسات لابد أن تمكنه من الرخاء والصحة والسعة، وسيارته تضحك أناقتها الداخلية والخارجية من أية أناقة أخرى.. وذات مساحة طويلة مفردة زيادة في الأناقة والتفوق والتميز! أما عن آلياتها ومقاعدها وتجهيزاتها فلا تسأل.. فقد تعجب ويصعب عليك التخلص من.. العجب! والعجب اذا طال صار حسدا ينذر بتمزق بعض الألياف الداخلية الرفيعة!

هكذا يتصورني من يقرأ ومن لا يقرأ.. لأنه يقيس كل شيء بقياس.. التاجر! ومع معرفتي بأنه لن يقرأ ظروف الكتابة عندي في برجي.. وبرجي

-وليكن واثقا من هذا- من بعر وقار لا من عاج.. فاني أصف له فيما يلي هذه الظروف وكأني أصفها لنفسي بين كتل البعر والقار والوحل غير.. المرئية: أثاث البهو ـ والبهو من البهاء.. الا أن بهوي لا بهاء فيه! شبه مهترىء، ليس فيه ما يلهم أحدا وصفا أو فكرة أو حادثة. ولعل أجمل ما فيه بعض النباتات الممتدة على جدرانه.. رغم ما يتميز به من ضيق! ومكتبي ـ وينام فيه بعض أفراد أسرتي ـ صغير لا يكاد يترك لي مكانا أقف فيه لأبحث عن كتاب من الكتب.. رفوفه معوجة، محدودبة من أسفل، خطرها على من ينام أو يقف تحتها كبير.. وكم من مرة خشيت أن يقع في بيتي ما وقع ـ فيما يقال ـ للجاحظ، العبقري الفذ، فيقتل أحدنا.. دون أن تكون له ذرة من عبقريته!

وأخذت الكتب تزاحمني حتى في غرفة نومي، فتكدست فيها العلب والطرود الكبيرة المعبأة بالكتب والوثائق والدفاتر ـ وبعضها من سهر الليالي ودفاتر الأيام! ـ والمخطوطات والمسودات.. اضافة الى الاجهزة وقطع الغيار.. الخاصة بآلات والأجهزة المنزلية أو بالسيارة ـ السيدة العجوز! وأصبح من الصعب علي أن أعثر ـ مع تقدم السن وضعف الذاكرة المتنامي ـ على كتاب أو وثيقة أو بطاقة، سجلت فيها شيئا في يوم ما، أو مستلة أحتاج اليها الأمر من الأمور، ولم يعد في إمكاني السفر الى الخارج للحصول على وثائق ومعلومات جديدة، قد تتيح لي الاستغناء عن بعض الوثائق العتيقة المطمورة في الطرود ـ لا أعثر عليه أو عليها إلا بعد مشقة كبيرة، وقد يحدث لي أن أفتح عشرة طرود وملفات قبل أن أعثر على ما أريد.. فالكتابة وثائق وسجلات ومراجعات وتوثيقات أيضا.. في كل المعارف والثقافات والعلوم المختلفة، ولي الى ذلك مائدة صغيرة قرب سرير النوم.. تأخذ نصيبها من.. الغرفة!

أجلس الى هذه المائدة أو.. المنضدة الصغيرة اذا شئتم.. في وقت الكتابة، ووقت الكتابة عندي في الليل، فمشاكل الحياة اليومية لا تتركني أكتب في النهار، ومن بين هذه المشاكل ضجيج الأطفال وأبواق سيارات...

الباعة، التي لا تتوقف قبل بلوغ نهاية الحي بعد خمسمائة متر وزيادة! وبذلك لا تترك لي النهار وقتا أختاره للكتابة.. واذا حدث وترك لي ذلك فاني أفتقد عادة الكتابة من كثرة التوقع والانتظار! وليس لي مصباح صغير أضعه فوق المنضدة وأكتب على ضوئه، ومن ثم فاني أكتب على ضوء مصباح.. الغرفة العادي، الذي ينشر ضوؤه في كل الجهات، فاضطر الى وضع منشفة فوق رأسي أظلل بها عيني تجنبا للوهج والبريق! فالضوء يضعف ويقوى! وكثيرا ما يؤلمني هذا الضوء لضعفه وشحوبه وخفوته الى حد ما.. فقد يعز علي في بعض الأحيان أن أجد مصباحا وسطا.. فصناعتنا تكره أوساط الأمور وتوفر لك عكس ما تريد! ولكن الذي يؤلمني أكثر هو نوم شريكة الحياة فوق السرير تحت الضوء.. والضوء مزعج في قوته وخفوته على السواء. وهناك من يصعب عليهم النوم أثناء أشتعاله! والشريكة الصابرة لا يزعجها الضوء فقط، وانما يزعجها كذلك كل الأصوات التي تصدر عن المائدة والقلم والورق كلما كتبت أو تحركت.. بحثا عن وضع ملائم ومريح فوق يبوسة الكرسي، التي تقابلها في خط عمودي يبوسة الأفكار حين تتأبى أن تتحول الى جمل! أتراكم تقدرون الجهد الذي يبذل من أجل السلامة والافادة؟

وقد يحدث فوق ذلك أن تزعجني بعوضة، وتحسم أفكاري وهي على وشك الاكمال.. تلسع قدمي، وتشرب دمي، ثم تطرب أذني.. وكأنها تسمعني صوتها مبالغة في الاستهانة والتحدي! وأسارع الى ضرب أذني بيدي وأصفعها صفعا ساحقا.. أو أريد له أن يكون ساحقا، ولكنها تفلت مني وتترك الوجع لي وحدي وتهبط كالطبق الطائر لتختفي من جديد تحت المنضدة أو تحت السرير، وقد تحوم فوق شريكة حياتي.. إلا أنها لا تلسعها وكأني بدمائها تفتقر الى حلاوة دمي! وكم أتعاجز في البداية عن مطاردة البعوضة اللعينة، لأني أريد أن أحصر فكرة ما، أنجز عملي.. أو أنجز جزءا منه على الأقل. وفي النهاية أبادر الى مرشة المبيد وأترصدها وما أن تحط فوق الجدار حتى أرشها بغضب وحنق، ويتطاير

الرذاذ فوق الشريكة فتئن وتشكو.. ألا يستطيع العبد النوم في هذا البيت؟ إنني متعبة وأحب أن أنام! لا تغضبي! لقد حميتك من بعوضة مروحية تقتل فيلا! فتثاءب وتعود الى النوم وأظل أسمع تنهدها فترة غير قصيرة!

وأعود أنا الى مصارعة الضوء الخافت والضيق والبعوض.. وبعض الاصوات الأخرى، التي يختلف بعضها عن بعض من ليلة الى ليلة.. مرة أبواق السيارات.. وكأن هناك أعراسا ومسرات ليلية، ومرة ثانية كبار صغار أعجبهم السهر، فراحوا يلعبون بالكرات الحديدية ليالي متتالية في بعض الأحيان تستمر حتى الثانية أو الثالثة صباحا.. ولا سلطة تحميك لا من الحي ولا من غيره ولو طلبت نجدتها.. فهي سلطة النجدة التي لا تنجد أحدا.. اللهم الا اذا هو قتل! ويا ويحك إن أنت وجهت الى الكبار الصغار أي نوع من أنواع الخطاب... فالليل عندهم أبعد ما يكون عن الكتابة والفكر والجمال والشعر و.. السكينة! الليل عندهم ليس أكثر من اللهو والصفاقة المسلية!

وأنتهى في معظم الليالي من الكتابة مع تباشير الفجر الأولى.. وكم من مرة سمعت زمارة توقظ صاحب أو زميلٍ من نومه دونما مراعاة واعتبار! وأنجز بذلك كلمة وكلمات.. أرجو لها أن تجد من يقرؤها، من يحبها، ويحاول أن يتذوقها ويصغي الى أناتها المستورة حين تنشر في مجلة أو صحيفة، وهي صحيفة فكر لا صحيفة ذنوب! ولكن ما أكثر ما تغدو الكتابة ذنبا حتى عند من يمارسها! ومن عادتي أن أوزع ما أنجزه من كتابات على الجرائد والمجلات في اليوم نفسه.. وكل همي الوصول اليها قبل الوصول الى القارىء، فهي حاملة رسالتي إن كانت لي رسالة! وتساعدني في التنقل بين مراكز الجرائد والمجلات سيدتي العجوز.. سيارتي التي تحرص دوما على أن أدفعها قبل أن تتحرك وتحملني وهي تغني وتصفر كالبعوض! حتى هي تمارس سلطتها علي دون توقف.. وكأنها بالعفل سلطة! ومع ذلك أبتهج - رغم ضيق ذات اليد وضياع المقابل وقلة التقدير.. بل انعدامه كلية - كلما وصلت هكذا الى.. معجزة الكتابة!

التواصل.. مقاطعة!

لم تكن صداقتي له صداقة عشرة ومراعاة متبادلة على صعيد المصالح والخدمات، ولم تكن كذلك تجارة.. والتجارة بالصداقة كالتجارة بالوحدة والأرض والانتماء والمُثَل! كانت صداقتي له خالصة لطيفة، ولا يعرف معنى الصداقة إلا من عرف معنى اللطافة الخالصة! والصداقة قد تماثل اللطافة والاخلاص في الصفاء والنقاء! ومن هنا كنت - وهو صديقي أنا بمفاهيمي الخاصة عن الصداقة والصديق - أعتبره بالنسبة الي بمثابة الغصن من الشجرة، ينجذب معي الى الاتجاه الذي أريده منه، ويتحرك في مجالي، ولا يفقد صلته بي أبدا، ويعرف كيف يحافظ على مالي من تعهد له، ورفق به، وجميل عليه، فالصداقة لا ثمن لها غير الثبات على الوفاء والمودة!

ومن أجل هذا كنت دائما أريد أن تكون صداقته لي وحدي، وصداقتي له وحده، وأن ترتبط بي ارتباط بالأصل.. يعرف كل منا مكانه من الآخر في الصحو والمطر، وفي الألق والغيم، وفي الجهامة والطلاقة.. وهل الطلاقة غير.. الصداقة؟ ولكن صديقي - وكنت لذلك غير منتظر ولا متوقع - اختار ذات يوم الجهامة، فشعرت بانفصاله عني في هذا اليوم الجهم! ذلك أني عرفت مصادفة أن له علاقة وطيدة - لعلها توطدت من خلال المصالح المشتركة! - بشخص من الأشخاص، قد لا تستطيع كل الكلمات القاموسية التعبير بشكل دقيق عن كراهيتي له ونفوري منه.. ولا يخفى على نباهتكم المتألقة أن المقصود بالكلمات القاموسية الكلمات الدالة على النفور والكره وما يحمل معناه من عبارات وألفاظ وصيغ بليغة!

لقد كان من الطبيعي أن يثير ما سمعته عن صديقي حرقة لاهبة في أعماقي، هي حرقة من يشعر أن الصديق قد تحول في لحظة واحدة الى.. عدو يقف في صف الجبهة وقد خيل الي أن صداقتي لصديقي حلم ليلي جميل،

حوله الى ألم وحسرة وعذاب.. بل ربما الى ولولة وصراخ وعويل في الداخل! ولما لم يكن في وسعي أن أتصل به وأنا في حالتي الطبيعية ـ فقد كان الأمر فوق ما تتحمله طاقتي ـ تناولت ما تناولت من منشطات ومثيرات ومنبهات ومشجعات.. وكأني بصدد ممارسات رياضية من نوع ما، لأني كنت أدمن احترامه إدماني لمنشطاتي، وهذا مفهوم بداهة من كل ما سبق، وأضيف اليه أنني أفعل ذلك وأعده بمثابة الصهر الجهوي..رغم أن ابنتيه، كلتيهما، الصغرى والكبرى، وفي هذا الترتيب تحديد ميل القلب الطموح، رفضتاني على نحو قاطع.. قاطع!

وكان من حقهما أن ترفضاني، فأنا في الحقيقة ـ ولا مكان للكتمان في هذا الاعتراف الصديق ـ نعم.. ولعل الأخف أن أقول.. أتميز بطبيعة رخوة ناعمة، وحركات رشيقة، ونظرات والهة على الدوام.. وما المانع أن تكون طبيعتي هذه أساس لطافتي؟ ولا ذنب لي ـ وإني لأرجو أن تتفهموا هذا ـ في ذلك، فالطبيعة هي التي تختار لنا ما نتميز به ونختلف.. ما يتميز به بعضنا عن بعض، وكل ميزة طبيعة، والطبيعة.. ميزة! حتى الجهل بمثل هذه الحقيقة.. ميزة! وحتى الحرص على اكتشاف المساوىء وتتبع آثارها وكل ما لها من مضاعفات ـ ولو كان ذلك على سبيل التصور والخيال ـ ميزة.. وأحب بها من ميزة! فهي قمر الحقيقة الذي يضيء الدروب والمسارب والمتاهات والأغوار المظلمة!

واتصلت به بعد ذلك هاتفيا.. الشجاعة ضرورية حتى في الهاتف! وهي شجاعة من النوع الأسلم، توفر عليك قبل كل شيء الكثير مما تتميز به المواجهة الحادة، والمواجهة ترتبط بالتحدي والثبات أكثر مما ترتبط بالحيرة والارتباك و.. المساءلة! المواجهة توفر اذن الكثير، ولكنها لا توفر عليك اضطراب الكلام، وشرود الصوت، وحيرة الهسهسة! الاختفاء خلف الهاتف لا يوفر عليك هذا، كما لا يوفر عليك زمن الصمت، لأنك تعيش مرحلة الحرية بكل أعماق وجودك، والحرية ديمقراطية، والديمقراطية.. صوت! في

العادة.. الصمت عندنا أسلم، ومع ذلك فقد أصبح الصوت مغامرة، وكل مغامرة يسبقها صمت.. الصوت!

قلت له في الهاتف بصراحة وشجاعة، ولا بأس من تقديم الصراحة هنا على الشجاعة، فالكلمتان مترابطتان، تسند إحداهما الأخرى.. قلت له بصوت ثائر.. هو صوتي:

ـ اسمع، يا أنت.. (وتصوروا استغرابه لكلمة.. أنت!) اذا أنت كلمت بعد اليوم المدير الجديد، الذي يشرف على المؤسسة التي أقوم فيها بعمل اضافي الى جانب عملي الأصلي.. أو أنت سعيت الى ترشيحه في الانتخابات المقبلة، أو انتميت الى الحزب الذي ينتمي اليه أكان أحمر أم أخضر أم أبيض أم أشهب أم سماويا فاني لن أكلمك مدى الدهر ولن أدخل بيتك أبدا.. الكلام معك وزيارتي لبيتك.. في كل منهما خيانة لضميري ولصداقتي. إني أعتبر كل علاقة به محوا لك من حياتي ومن نعيم صدلقتي.. أعتبر ذلك قبل كل شيء خيبة أملي فيك وضياع أيامي.. أيام صداقتي معك. ولا تنس أننا نعيش في عصر خيانات السادة والأتباع.. وأنت سيد بصفتك صديقا للمدير الجديد.. مدير عملي الاضافي!

وتركني أقول ما أردت قوله، ولما انتهيت.. لم يكن في الجهة الأخرى من الخط أي صوت، وكأن الهاتف قد صار صمتا مطبقا إلا من دفقة صوتي.. دون خشخشة مقابلة! ـ لما انتهيت تدحرج دوى صوته عبر الهاتف كهبة زوبعة مفاجئة، رمت في أذني حصى ورملا وحجارة، صرخ بي وهو الذي كان يعتز ايما اعتزاز بصداقتي:

ـ كلماتك هذه تتجاوز كل الحدود، لا أطيق أن أسمعها ولا أن أحتملها.. لا منك ولا من سواك مهما كانت درجة صداقتي لك ولغيرك! اسمع، يا أنت! اني أخاطبك بما خاطبتني به.. أنت لا تستطيع أن تطلب مني معاداة من تعاديه ولا صداقة من تصادقه. ان طلبك هذا لآت من أسفل درجات.. التخلف؟ أهذا

ما علمتك إياه لغة الحضارة التي تتبجح بها وتطيل أذنيك علي؟ ان الانسان الذي تعاديه أنت.. ويبدو أن معاداتك له جديدة عليه لا عليك.. ـ هذا الانسان لم أعرف منه غير الخير والفضل والصلاح.. وطلاحك ينكر عليه صلاحه! لقد كانت لي يد على هذا الصديق ـ ولا فخر ـ وهو يحاول باستمرار أن يرد لي تلك اليد.. من غير أن أطلب منه ذلك لا عن طريق القول الصريح ولا عن طريق الاشارة الخفية. كل ما بيننا يد طيبة وجدت طريقها الى.. يد طيبة!

وأرعبتني كلماته الثائرة وأفزعتني الى درجة أني تصورت أن لصوته حركة متوعدة! وفهمت منه أن أصدقائي وأصدقائي أصدقاءه أصدقاؤه.. فالمسألة، مسألة الصداقة، ميل وطبيعة ومزاح واتجاه و.. مصلحة! أما الصداقة الخالصة فغير ذلك كله. هذا ما فهمته من كلماته، ورغم هذا الفهم الصحيح، ومع حاجتي الى صداقته، تمسكت بموقفي وأردته على أن يعادي من اعادي، ويشتم من أشتم، ويصب اللعنة على من أصب عليه اللعنة.. اخلاصه لي معناه الحقد الأصيل على أعدائي وعلى من يصادق أعدائي! أردت منه ذلك.. اعترافا بفضلي عليه، فعندما أصيب بمرض خطير، اختار ـ وللمرض اختياره أيضا ـ أن يلازمه حتى نهاية عمره، سهرت على مواساته، وسعيت في سبيله، ووفرت له الأدوية خلال فترة معينة. وعند الحاجة كنت أضع بين يديه الملجأ.. بكل ما للملجأ من معنى، ولا يعرف قيمة الملجأ الا من عرف القلق الروحي والخور الجسدي!

كل هذا يجعل لي ألف حق عليه، ويحجز لي صداقته كلها، لي وحدي لا يشاركني فيها أحد.. فردا كان أو حزبا! غير أنه ـ لسوء حظه ـ فضل الانتماء الى الجانب الآخر، الجانب الآخر من خط الهاتف، فتقدمت صورته صورة عدوي اللدود كما تقدم صوته صوته.. دون أيخفي عني ملامحه الكريهة! انفصلت عنه مرة واحدة.. مرة! وأبعدت عنه صوتي وتحيتي عبر.. الهاتف وحرمته من مواجهتي واللقاء بي، وعاملني هو الآخر بالمثل، ولكني اعتبرت نفسي ـ وذلك ما لا يستطيع أن يقوله هو عن نفسه ـ هاتف الصداقة.. الصديقة!

الـدخـول.. عمـلـة!

في الحياة فرص لا تتكرر، وخاصة حين نحرص حرصا شديدا على أن تتكرر ونود من أعماق قلوبنا أن تسنح مرة أخرى لكي نستطيع أن نتخلص من خطأ ارتكبناه ساعتها دون أن نفكر في مدى فداحته لضميرنا عندما يستقيظ.. بل حتى دون أن نفكر في اعتباره خطأ على الاطلاق. وما أكثر ما يكون ضياع فرصة من الفرص بمثابة صدمة.. تترك في الذهن وعيا مؤلما، وفي القلب ندما لاهبا، قد يلازمانا مدة الحياة كلها، الأمر الذي يجعلنا نحاول عبثا التفكير من ذلك بصورة موصولة، لأن الخطأ يظل قائما في الذاكرة، والألم ثابتا في الضمير الحي!

وقد كانت لي أنا.. الانسان المعذب.. فرصة أضاعها علي جهلي، وتأخر حضور الوعي جهل ما بعده جهل! وليس هناك ما يمنع في بعض الظروف أن يكون الجهل.. خيانة! أتيحت لي لأول مرة في حياتي فرصة نادرة ـ لن تتكرر في تصوري أبدا ـ لتقديم خدمة ثقافية لوطني المجهد ـ ولم أكن أراه في السابق مجهدا! ـ وفكره المهمل، وثوابته التي أصبحت عرضة لكل نصب وضيع ومؤامرة دنيئة ـ خدمة أجعلها في مستقبل الأيام تاجا لضميري الوطني.. وما أتعس ذلك الضمير، الذي لا توقظه فرصة صَدَّامة! واني لأشعر أنا أيضا بالتعاسة لأنها لم توقظني أو لعلى لم أدع لها المجال لتوقظني وتزرع في أعماقي الخائنة آنذاك.. مشاعر وطنية جديدة!

ومعذرة أن بدا لكم أسلوبي في الفقرات التالية عاطفيا الى حد الاسراف، دامعا الى حد التشنج! فقد آلمتني دموعها وأبكتني داخليا أكثر من مرة ومرة.. وأبكتني خارجيا أيضا ولا أقول.. واخجلتاه! فلا يخجل الرجل في أن يبكي لما حدث.. وما كان ليحدث لو كان لي قلب فخور بوطنه في ذلك

الحين! ان الدموع تتنوع لتنوع مشاعرنا في لحظات الحياة، وأشد الدموع ايلاما الدموع التي تمطر الاعماق، ولنا كلنا أعماق.. وان كانت عند بعضنا مسطحة، مما يجعلهم يحبون القشور والمرئيات!

ان التي أسالت دموعي عاشقة أروبية.. أسالت دموعي ودموع كلماتي، ولا ينبغي لكم أن تسيئوا بي الظن ـ على عادتكم! ـ حين تجدونني أستعمل صفة ترتبط في أذهانكم ـ والأذهان ضروب وألوان ـ بمشاعر مبتذلة، فمسيلة دموعي عاشقة من نوع آخر.. وهي تسيل دموعي الآن لأني أسلت دموعها وطعنت آمالها وأحلامها في الصميم. وأعتبر نفسي المسؤول الوحيد عن تلك الدموع.. دموعها ودموع كلماتي! لقد عشقت هذه السيدة وطني، وكانت أكثر عشقا مني له.. أنا الذي لم أعرف قيمته ورفضت ـ لجهلي! ـ بنوع من الارادة والاختيار أن أخدمه وأساهم في التعريف به.. وأقدم على الأقل وجهه النبيل في اللطف والمعاملة! وما قيمة وطنك عندك اذا أنت لم تخدمه وتجعل اسمه بين شفتيك! تلك الدموع تجعلني الآن أقول.. ألا خسئت كل شفة لا تنضم على هذا الوطن الجميل باخلاص! ألا فلتخسأ كل عين ترى فيه وجه باريس ولا تدمع من أجل خطأ ارتكبته في حقه!

عشقت هذه السيدة بلادي من بعيد، وجاءت لتأخذ معلومات أكثر عنها، معلومات متنوعة حتى تستطيع أن تكتب رسالتها الجامعية عن كتابها وأدبائها وشعرائها ومفكريها، تثبت بها ـ كما عرفت في وقت متأخر ـ أقدامها في جامعة بلادها. ولم تكن لي طبعا ـ ولا يستغرب الجهل نفسه هذا ـ أية فكرة واضحة عن مفكرينا سواء أكانوا فنانين أم أدباء.. فقوانين الوظيف الصارمة هي شغلي الوحيد! وكانت تريد الى ذلك تقديم دراسات أخرى عن تطور الثقافة الأصيلة في عهد ثورتنا المستمرة.. أو في عهد الثورة التي نتصور أنها مستمرة خفية في مرحلة.. الشفافية!

كانت قد جاءت بالقطار من بلد شقيق، أرى من واجبي الآن أن أخلع عليه بكل نزاهة ودون محاباة.. صفة المثقف! وكان برفقتها ابنها الصغير.. وكأنها كانت تريد أن تتخذ البنوة وسيلة لدراسة أدب بلادي وفكرها! وقد جلبت طفلها معها بعد أن عز عليها أن تجد ـ في حاجتها الملحة الى هذه المغامرة الثقافية ـ من يتكفل به ويسهر عليه في بلادها. ولكن ما كان معها من العملة الصعبة لم يكن كامل البنوة، وقانوننا المالي ـ كما طبقته أنا تشنجا ـ لا يعترف إلا بالبنوة الكاملة! فما بنوة الفكر عنده ـ وعندي أيضا في ذلك الحين ـ ببنوة العملة الصعبة!

عندما وقفت بباب مقصورتها في القطار، طلبت منها جواز سفرها، وكانت قبل أن أفعل ذلك تضاحك ابنها، والبشر يعلو وجهها الجميل.. ولا ريب أنها كانت مسرورة ومبتهجة بوصولها الى حدود البلد الذي عشقته عن بعد.. تحاول أن تجمع في ذهنها تلك الصور التي قرأتها أو سمعتها عنه.. ونظرت في جواز سفرها، وسألتها وأنا أقلب صفحاته:

ـ أين هي حقيبتك؟

فنهضت ووضعت يدها على حقيبتها وهي تقول:

ـ هذه هي حقيبتي، يا سيدي!

وأعدت اليها جواز السفر قائلا:

ـ وما تحملين في الحقيبة؟

التفتت مرة أخرى الى حقيبتها قائلة:

ـ لا أحمل فيها غير ملابسي وملابس ابني وأشيائي الشخصية!

وأرادت أن تنزل الحقيبة من فوق الرف، ولكني طلبت منها أن تترك ذلك، وكان ابنها قد وقف في النافذة ينظر الى الخارج. وبينما اهتم زميلي بمن كان معها في المقصورة قصرت همي أنا عليها وحدها، وسألتها من جديد:

ـ وكم تحملين معك من العملة الصعبة؟

رفعت حقيبتها اليدوية، ثم أجابت قائلة:

ـ معي مائتان وخمسون دولار!

فقلت بصوت أذكر أنه كان جافا الى حد كبير.. وكأني قد عثرت فيها على ضالتي:

ـ معك مائتان وخمسون دولارا فقط! وكم تريدين البقاء في بلادنا؟

قالت وفي عينيها بريق حائر:

ـ سأبقى في بلادكم الجميلة أسبوعا واحدا، يا سيدي!

قلت لها في تهكم:

ـ ولكن ما معك من العملة الصعبة لا يسمح لك بالإقامة عندنا أكثر من ثلاثة أيام، يا سيدتي. ولهذا لن أسمح لك بالدخول!

قالت وقد بدأت الصفرة تعلو وجهها الجميل كما علاه البشر قبل ذلك:

ـ لا بأس، يا سيدي، فليكن ذلك! سأقيم عندكم ثلاثة أيام، ثم أعود الى بلادي.

فأعدت عليها قولي:

ـ لن أسمح لك بالدخول. ثلاثة أيام لا تكفي!

وهنا انفجرت باكية، وراحت تستعطفني بالعربية:

ـ سيدي! ثلاثة أيام تكفيني. سأتصل خلالها بالكتاب والشعراء والمفكرين، وأجمع ما أحتاج اليه في عملي الجامعي، وأسافر بعدها مباشرة الى بلادي. أنا أكتب عن أدباء العربية وشعرائها. الجزائر هي الأدب العربي الأصيل. وهو غير متوفر عندنا على العكس مما يكتب بالفرنسية! أرجوك.. من فضلك، دعني أدخل!

قلت لها للمرة الثالثة:

ـ يؤسفني، يا سيدتي، ألا أسمح لك بالدخول!

واشتد سقوط دموعها، ولكن تلك الدموع لم تجرح قلبي آنئذ، وكان ابنها ينقل نظراته بيني وبين أمه مشدوها، ثم أخذ هو الآخر يبكي. وقلت في نفسي: ما العمل؟ الواجب واجب! وانطلقت السيدة تقول من جديد:

ـ لماذا لا تدعني أدخل، يا سيدي! البلد المجاور الذي تسمونه شقيقا.. لقيت فيه حفاوة.. استقبلني وزير الثقافة، واستقبلني الوزير الأول. حظيت منهما بحفاوة كبيرة، وقدما لي كل المساعدات الممكنة، وأمرا بجمع الوثائق التي أنا في حاجة اليها وإرسالها مجانا الى عنواني في بلادي! فرسالتي الجامعية عن أدب المغرب العربي كله.. ولابد أن أجمع المراجع اللازمة.. سيراعي الكتاب والأدباء ظروفي الخاصة، عندما أحدثهم، ويجمعون لي خلال هذه الفترة. فترة الثلاثة أيام.. ما أحتاج اليه من مصادر. أرجوك، أتوسل اليك.. لا تخيب أملي! افعل معي لوجه أدب بلادك ما فعله البلد الشقيق. لا أطلب غير السماح لي بالدخول.. والأمر بعد ذلك بيني وبين الأدباء والكتاب!

عندئذ أوضحت لها أن لكل بلد أخلاقياته وتصرفاته وطرق تعامله مع الآخرين وأن البلد المجاور لا يعني عندنا أكثر من مجاور. والجوار لا يشكل بالضرورة عدوى في المعاملات الرسمية! وأنهيت توضيحاتي بقولي:

ـ خذي حقيبتك وتعالي معي، يا سيدتي!

وأخذت تبكي بمرارة أكثر وهي تحضن ابنها الذي كان يبدو وكأنه يجاري أمه في دموعها.. حين تأكد لهما أنهما لن يدخلا بلدي، وأركبتهما في سيارة خاصة عادت بهما الى البلد المجاور!

وكدت بعد ذلك أنسى هذا الأمر، الا أني سمعت بعد فترة من الزمن أحد أقاربي، كان قد درس في بلادها، يحدث أصدقاءه عن فتاة.. بل عن سيدة من عالمات بولونيا، أصدرت كتابا عن الأدب العربي في شمال افريقيا، اعتذرت عما قد يكون في أحد أجزائه من نقص وقصور.. لأن حدوديا منعها من الدخول الى بلادنا.. ولم يرحم دموعها ولا دموع ابنها، وأنزلها من القطار،

وهي على وشك الانهيار. وهكذا جعلت الحديث عن الدموع عذرا لتقصيرها في معالجة موضوع من مواضيع الكتاب كما يقتضي المنهج العلمي، وذكر قريبي هذا أنه شعر بالخجل عند ما قرأ ذلك!

وحين أخبرت قريبي بأنني كنت ذلك الحدودي، قال بلهجة جادة لا تخلو من مرارة:

ـ غريب أمركم أنتم الحدوديين! انكم ـ كالسفراء ـ قلما تعرفون كيف تدافعون عن الوطن ومفاخره ورموزه.. وكأنكم قد قضيتم حياتكم كلها خارج حدوده! لو تكررت هذه الفرصة الضائعة، هذه الفرصة، التي لم أعرف ما كانت تعنيه بالنسبة لمشاعري المستيقظة، لو تكررت لأتحت لتلك العاشقة لوطني أن تقيم بيننا ما شاءت لها الاقامة.. وعلى ضمير الحي كل.. كل التكاليف! ولكن.. سبق بها عكاشة، وأنا عكاشة القديم، الذي لم تؤثر فيه دموع امرأة و.. طفل!

الرسوب.. لغة!

أسوأ ما يمكن أن يفرضه قانون من القوانين الادارية، وخاصة اذا كان هذا القانون مرحليا.. والمرحلية مزاج تعبيري مؤقت، هو معرفة مقدار معين.. بلوغ مستوى محدد في لغة من اللغات! وقد كانت العربية في نظري دائما لغة من اللغات، الا أنها تختلف عن اللغات الأخرى، التي أعرفها أنا شخصيا.. تختلف عنها في أنها لغة محلية! وبهذا المعنى فان الوطن عندي ليس عالما خاصا، وانما هو محل أستطيع أن أعيش فيه.. مختفظا بصمتي عن اللغة.. لغته المحلية! فليس من الضروري أن يكون الوطن صوتا حميما وجملا معبرة وكلمات فصيحة! فالسلوك المتحضر شعور داخلي غني عن الكلمات.. الوطنية. الوطن في نظري هو ما تعلمته من لغة و.. حضارة متقدمة فائقة!

وكثيرا ما كنت أضحك عندما أتذكر كلمة الفيلسوف الانجليزي فرنسيس بيكون، التي يقول فيها.. على من يريد السفر الى بلد لا يعرف لغته أن يذهب الى المدرسة ليتعلم لغة سكانه قبل أن يشد الرحال اليه! ولا أدعي أنني فيلسوف أو أنني أفهم من الفلسفة مقدارا معينا.. وقد تكون هي الأخرى مستوى من المستويات، ومع ذلك فان في استطاعتي أن أقول.. ان هذه الفكرة، وقد تكون نظرية في رأي غيري، ليست صحيحة بصورة مطلقة. وأكبر دليل على ذلك أن السائح الأجنبي يحل في وطني وكأنه قد حل في ربوع فرنسا.. ويمكنك أن تجد من أقام فيه ثلاثين سنة وأكثر دون أن يشعر برغبة أو بضرورة ملحة في تعلم لغته المحلية. فهل هناك مكسب أعظم من هذا المكسب.. مكسب امتلاك لغة حضارية، تتيح لك أن تتبع سير الحضارة بملء عينيك.. عبر كلمات جاهزة، لا تجد نفسك ملزما حتى بالمشاركة

في.. وضعها! ولم أكن كذلك أرتاح الى قول الشاعر الألماني غوته من أن.. قوة اللغة لا تكمن في رفضها لما هو أجنبي عنها، وإنما في هضمها له وجعله جزءا منها! فالأفضل من ذلك.. أي مما يدعو اليه غوته.. أن تعفي لغتك من عملية الهضم والامتلاك هذه وأن تتبنى اللغة الأجنبية نفسها!

لقد فرض هذا القانون الاداري علي وعلى أمثالي أن أحصل على مستوى معين من اللغة العربية، لغة البلاد المحلية! وهذا قبل أن أتمكن من استلام شهادتي الجامعية، التي لا تزال معلقة منذ ما لا يقل عن خمس سنوات.. لأن في استلامي لهذه الشهادة ضمانا لمستقبلي بكل ما فيه.. من ترقية وترسيم وتكليف بشيء من الدروس وغير ذلك! وهذا المستوى هو المستوى الثالث.. ولم المستوى الثالث بالذات؟ ولم لا يكفي المستوى الأول وحده؟ بل لماذا لا يكفي العلم بأن هناك لغة عربية في البلاد يعرفها من يعرفها ويجهلها من يجهلها.. وينتهي الأمر عند هذا الحد.. مادام التعامل بها في هذه المرحلة - وربما في مراحل أخرى تليها.. متتابعة! غير وارد اطلاقا؟ أليس في اشتراط هذا المستوى اجحاف وتجن صارخ؟

ودعيت - وكان لابد مما ليس منه بد - الى العاصمة، التي أحرزت منها على شهادتي الجامعية، لأداء الامتحان في هذه اللغة العربية.. وهي من مجموعة اللغات التي لم أشعر في يوم من الأيام برغبة صادقة في تعلمها.. رغم أنها - ولست ممن ينكر هذا! - لغة أجدادي، وكان من المفروض أن تصبح - كما تقتضي العادة والطبيعة، وكما يتطلب العرف والنسب التاريخي والحضاري - لغتي أيضا، ولكن تربيتي حببت الي منذ بداية الاستقلال عدة لغات الا هذه اللغة المحلية! وقد شاء طالعي أن أعرف اسم الممتحن واسم زميله، فاشتريت كتابا من كتب الممتحن هذا، لأنني كنت قد عرفت من زميل لي، له المام باللغة المحلية، أن له كتبا، وذهبت الى زميل آخر، قام بتشكيل الصفحات الخمس، التي كنت أود أن أمتحن فيها.. بل كنت أريد

أن أطلب أن يجري لي الامتحان فيها.. لأنها صفحات الممتحن نفسه.. وسوف يسره أن أقرأ أمامه عندما كتبت يده. وهكذا كنت على يقين من نجاحي في الامتحان المرحلي!

وحين جلست أمام الممتحن وزميله، قلت له قبل أن يوجه الي أية كلمة ممتحنة.. قلت له بصريح العبارة.. أنا معجب بكتبك، لاسيما كتابك هذا. ولذلك حملته معي لتمتحنني فيه. وأعتقد أن الذي يهمك بالدرجة الأولى هو أن أقرأ سطورا أو صفحات من كتابك! وفتحت الكتاب، وهو ينظر الي مبتسما، وبدأت أقرأ من أول سطر في الصفحات المشكولة.. بشكل لا يخلو من صعوبة، كان سببها الاضطراب الذي اعتراني نتيجة تعثري في التهجية الذهنية! ومع ذلك فقد كانت فرحة خفيفة تدغدغ أعماقي.. اذ كنت أتوقع أن يستريح لمعرفتي بكتبه وقراءتي لكلماته التي كادت تختفي تحت سواد قلم الرصاص زيادة في الاحتياط!

غير أن الممتحن قطع ابتسامته فجأة وطلب مني أن أترك الصفحات المشكولة، وأن أغلق الكتاب ثم أفتحه ثانية على سبيل المصادفة. ففعلت ذلك وأنا حريص على أن أقع على الصفحات المشكولة نفسها، فهي القارب والنجاة و.. عارضة النجاح! الا أن حيلتي لم تنطل عليه، فطلب مني ـ وقد بدأ خبثه يتضح لي ـ أن أقسم صفحات الكتاب الى نصفين وأن أختار ـ تصوروا أنه سمح لي بحق الاختيار! ـ صفحة من الوسط كيفما اتفق. واخترت بالفعل صفحة من حيث أراد، وأخذت أحاول قراءة الحروف، التي كانت تبدو لي متشابكة متلاصقة، كأنها تتضامن ضدي، دون أن أميز منها شيئا عن آخر، ولم أفرق بين الحرف وأخيه. ولم أكن في الحقيقة قادرا على التمييز بين الحروف بأية صورة من الصور.. حتى السطور كانت تبدو لي مختلطة.

وما كان الأمر ليكون غير ذلك، لأني كنت قد كتبت الصفحات المشكولة بالحروف اللاتينية وحفظتها حفظا جيدا.. حفظتها عن ظهر قلب وكأنها

تعويذتي المحلية! حب النجاح يجعل ـ هو الآخر ـ كل شيء يبدو بمثابة التعويذة! ولهذا كنت أقرأ ـ عندما كنت أقرأ في الصفحات المشكولة ـ قراءة ذهنية.. وان كنت قد تظاهرت بالنظر الى الفواصل والسطور والفقر.. وذلك ما أربك قراءتي الذهنية قبل أن أنطلق فيها بسرعة! وكان من الطبيعي أن أشعر بالضياع حين انتقلت الى الصفحة الجديدة وصعب علي أن أفرق بين النون والباء، والتاء والياء، والجيم والحاء.. وهلم جرا! لقد اختلط كل ذلك في ذهني اختلاطا كبيرا ورهيبا، وقد كانت العربية عندي رهبة منذ أن عرفت أن علي أن أقدم فيها امتحانا من أجل الوصول الى نيل الشهادة! الوصول الى الترقية دون عائق من ادارة أو من لغة!

وحرك رأسه مستغربا، ثم أوقفني عن القراءة ليسألني عن اللغات التي أتقنها حتى تسنى لي أن أكون معيدا في الجامعة.. في طريق التوظيف الرسمي والترسيم. فأجبته بأني أحسن الفرنسية ـ وهي اللغة الأولى ـ والاسبانية والايطالية والانجليزية والألمانية كتابة حديثا.. والفرق في درجة معرفتي لهذه اللغات يكمن في أساليب التعامل والمخالطة. قلت له ذلك بنوع من الافتخار، وأوضحت له بعد ذلك أن وظيفتي في الجامعة هي تدريس اللغات والآداب الأجنبية باللغات الأجنبية. وهنا نظر الي نظرة ساخرة و.. سألني عما اذا كنت أعرف مواطنا من مواطني هذه اللغات المذكورة لا يعرف لغته الوطنية ولا يدرس بها اللغات والآداب الأجنبية.. ليمدّ لغته القومية بذخيرة جديدة؟ من حقك أن تتعلم كل لغات الدنيا.. إن أنت وجدت في نفسك القدرة على ذلك.. ولكن ليس على حساب لغة الأب والجد والوطن. الوطن يقوم بتراثه ولغته!

ورسبني هذا المتعصب الخبيث.. مدعيا أن معرفتي لكل هذه اللغات دون معرفتي للغتي الوطنية.. خيانة وطنية!

الجيل.. حقيدة!

من عـادتي أن أربط ـ وما أنا بمرابط.. وأقول هذا لمن يحبون رباط.. الفتح! ـ بين مشاعري وأفكاري وهواجسي ـ والفكر يصدق حين يكون هاجسا! ـ وأفعالي باللحظة! وما أجمل تلك اللحظة، التي يستطيع الانسان أن يمنحها البقاء والدوام كما لو كان.. شاعرا، ويزداد جمالها طبعا حين يكون فعلا شاعرا منشدا! وهو يمنحها البقاء فور تقييدها بالنسق الزمني، الذي يتحول في ذهنه ـ فيما بعد ـ الى تاريخ شخصي، الى.. ذكرى! وهذه الذكرى تجبر الموهبة الطبيعية العفوية التلقائية والبديهية كذلك، على أن تضعها في كلمات رائقة، منمنمة، مزخرفة كالربيع، والحياة لا تحلو عندنا إلا.. بالزخرفة! ولارتباطي باللحظة أقدر على ما قد لا تقدرون عليه.. وهو أني أسجل لكم فيها ـ في اللحظة ـ أنني أقدر على قراءة أفكاركم قبل أن تقدروا على قراءة أفكاري.. وقراءة الأفكار نوع من الحدس العفوي في بعض الأحيان.. وهل العفوية إلا طبيعة كاشفة؟

أحب أن أسجل لكم ذلك في كلمات ثابتة ثبوت الأنف في الوجه ـ وان لم أعد أومن بشموخ أنوفكم! ـ في هذه اللحظة بالذات.. والقلم بين أناملي ـ وأنا أستعمل كل أصابعي عادة إلا في الكتابة ـ الكاتبة، وكونوا على يقين من أن أناملي ليست رخصة ناعمة، وانما هي شثلة جثلة.. أي غليظة مشعرة! وهذا التفسير خاص على نحو ما.. فالكلمات تتساوى عند من يجهلها نطقا ومفهوما! وقد استعملت هاتين الكلمتين لأجرَّ ـ أولا ـ من سبقني الى الكتابة من أذنيه، وحتى أستطيع ـ ثانيا ـ أن أتصوركم ـ وقد تكون هذه الفعلة سادية مني ـ وأنتم تبحثون عن ألسنتكم العجمية لتتمكنوا ـ إن كانت لكم ذرة من أصالة، والخطاب هنا لا يشمل الأصلاء طبيعة! ـ من النطق بها على وجه

سليم. نعم، يطيب لي أن أتصور كيف تنتقل ـ مثل هاتين الكلمتين ـ كلمات ملتحية من شفة غليظة الى شفة مشعرة! واني لأعتقد جازما أن هذا النوع من التصور يفتح لكم ـ إن كانت أعماقكم مخلصة! ـ مسالك وطرقا الى الخيال اللغوي الوضيء!

وأنا أقرأ الآن أفكاركم قبل أن تقرؤوا أفكاري.. لأني أتصوركم وأنتم تتساءلون بعد أن قرأ تم عنوان كتابتي ـ ولعناويني دائما دلالة قد تكون قيمتها في مفارقتها وحدها بعيدا عن كل التفاصيل الأخرى المؤكدة ـ تتساءلون عما أعنيه بهذه الصفة.. صفة الحقيدة، التي تذكركم بالحقيبة، وأنتم لبعدكم عن كلماتي المشعرة تفضلون استعمال القفة لما لها من صفات الجمع والضم عموديا وأفقيا. ـ كما تذكركم بالخريطة، وأرجو ألا تكونوا قد نسيتم تاريخكم مع.. الخريطة! غير أن كلمة حقيدة ـ ومن المؤلم أن تذكركم بأوعية الجمع والضم ولا تذكركم بالحقيقة النيرة. ـ وردت في العنوان اسما ولم ترد صفة.. وتعني الحقد أيضا. فالحقيدة اذن حقد، والحقد حقيدة، ولا داعي هنا لوضع أية نقطة بين الكلمتين إشارة الى معنى من المعاني. وقد يحدث مع ذلك أن أضع نقطتين بين الاسم وخبره، والفعل وفاعله ـ ولا بأس أن يتأخر الفعل عن الاسم في طريقة.. التعبير! وبين المضاف والمضاف اليه كيما أثيردهشتكم وانتباهكم وتطلعكم.. وربما سخطكم دون الاشارة الى.. معنى محذوف! لقد ذكرت هنا ثلاث كلمات، استعملت أنا واحدة منها ـ ولا أقول منهن حتى أبعدكم عن نون النسوة وما يتبعها من تصور أنامل رخصة! ـ وهي الحقيدة، بينما فكرتم أنتم ـ لأن كلماتي ذكرتكم بذلك ـ في اثنتين منها، وهما الحقيبة والخريطة! ومع استعمالكم لهاتين الكلمتين ـ في قراءتي لأفكاركم ـ فلا أظنكم تستنتجون ما استنتجته أنا من هذا التتابع التاريخي، من هذا البناء الهرمي، من هذا الدفع الطبقي! فهأنذا أقرأ في أفكاركم مرة أخرى أنكم لم تفهموا ما أريد قوله.. أم تراكم تتصورون انكم

أدركتم ما تصورته أنا عند استعمال الكلمات الثلاث؟ كلا! إن قراءتي لأفكاركم لصادقة الصدق كله.. فلا يمكنكم أن تدركوا أفكاري بسهولة، وان بدت لكم - من حين لآخر - بسيطة سهلة قريبة الأخذ والمنال! فالسهولة لها أيضا.. صعوبتها! كيفما كان الأمر فان هذه الكلمات الثلاث تشكل عندي نقيضين ونتيجة.. فهل في وسعكم أن تتصوروا مثل هذه الفلسفة؟

لكم أن تتصوروا معي اذن.. الحقيدة تناقض الحقيبة وتقاومها والنتيجة.. خريطة! ولا تطلبوا مني أن أوضح لكم أكثر من هذا.. لا أني في الحقيقة لم أكن أريد أن أتحدث عن فكرة تناقض فكرة أخرى - على غرار الطريقة الجدلية المعروفة - وتكون نتيجتها غلبة على ضرتها، وانما أريد أن أتحدث عن التتابع التاريخي العادي، وإن كان هو الآخر جدليا بشكل من الأشكال، أعني ظهور جيل بعد جيل آخر، إلا أن العنوان - لما فيه من مفارقة - فرض علي وحتم، والحتم فيما يبدو لي أقوى من الفرض، لأن الحتم لا يدع لي ولا لكم أي مجال للاختيار! - فرض علي وحتم أن أقوم بهذه الجولة الفكرية الشيقة! كيف؟ ماذا أقرأ في أفكاركم من جديد؟ تقولون.. إنها خارجة عن الموضوع؟ اذن.. أقول لكم تعلموا فهم الجمل قبل فهم الموضوع، فكل موضوع.. جمل مفيدة.. مثل الخريطة في الحركة الجدلية سواء بسواء!

كان هدفي أن أتحدث - قبل أي شيء آخر - عن جيل يلتقي بجيل آخر.. عن جيل يأتي بعد آخر إن شئتم ان تمنحوا الأفضلية هذا التعبير. وهنا أيضا تتابع تاريخي أو بناء هرمي - وفقا للتعبير الجدلي - ولكنه ليس جدليا بالضرورة، ليس فكرة تلغي أخرى لتحل محلها فكرة من نوع آخر متميز، وإنما هو تتابع طبيعي، قد لا تكون له أية جدلية إطلاقا، ولكنه - من وجهة نظر جيلي - أكثر من جدلية وجدلية! فالقضية هنا قضية تعبير وتطور وإدراك لحركة التتابع الفكري في المجالين الفكري والأدبي، وأنا أفضل أن أكتفي بصفة الأدبي، لأن هذه الصفة تتطلب حتما النشر من خلال وسيلة من الوسائل الإعلامية، في حين أن الفكر

قد يقع بشكل ما أو يقوم على مجرد السماع والنقل والرواية.. وقلما تستطيع الرواية إبراز القيمة الحقيقية للأدب والأديب.. لما يعتريها من تغير وتحوير وتحريف أثناء الانتقال والتداول والمبادلة!

وفي تفضيلي للصفة الأدبية دليل على أنني ـ ولعلكم انتبهتم الى ذلك من باب التفكير الجدلي ـ أديب جديد يلغي الجيل السابق جدليا كما تلغي الفكرة الجدلية أختها في سياق المنطق والتتابع.. التاريخ! وكل أديب ـ في جدليتي يجب عليه أن يلغي سابقه بشكل نهائي.. بناء على أن لكل مرحلة جديدة.. وإن هي لم تبلغ الحقبة الضرورية، التي تجعل منها مرحلة حقا.. فكرا جديدا، وأدبا جديدا، ووعيا جديدا، وعاطفة جديدة، ولغة جديدة، وأساليب وطرقا جديدة و.. مجدا جديدا لتدمير الجيل السابق! فقد جاء جيلي ليخلق ويبدع ويمتلك.. الزمن! وهذا ما يفترض في كل جيل.. واذا هو لم يفعل ذلك فان حياة والفكر والأدب تجمد وتتوقف وتنطوي على حركتها الخالقة فلا يبقى له ـ للجيل ـ غير سيرة الزمن الرتيب.. رتابة الأدمغة الفارغة.. الجوفاء!

كنت قد فكرت في هذا كله.. حتى قبل أن ألتقي به مصادفة في إحدى دور النشر بالعاصمة، وهي من الدور، التي تلم ـ بفضل سيطرة أبناء جيلي على حركة النشر فيها ـ العبقريات من جيلي حينا وتنشرها حينا آخر نشرا.. أبرز ما فيه التصميم والخط و.. الاخراج! كان اللقاء ـ كما قلت من باب المصادفة المحضة، وكم آلمني أنني وجدته ـ وهو الممثل لأصنام الجيل السابق وأوثانه! ـ جالسا أمام الكاتبة! فقد كان المفروض ـ في منطق جدليتي.. لو لم يرتد حظي في ذلك اليوم صوفا خشنة ـ أن أكون أنا الجالس أمامها وهو الواقف.. فحق الجيل السابق الوقوف بين أيدينا ونحن الجلوس بين العطر والخضرة و.. الماء! قد تتساءلون هنا أيضا كيف عرفت حقيقة هذا الذي أقوله.. قولة متثبت متأكد جازم؟ الواقع أنني لا أقرأ الأفكار فقط، وانما أقرأ الظواهر أيضا

وأحللها تحليلا جدليا، وأنا أحرص على الجدل الا فيما يتعلق بالجيل السابق، فالالغاء البدهي لا يحتاج الى.. الجدل!

وقد هدتني هذه الظواهر الى أنه لم يجلس أمامها إلا لأمرين اثنين، أحدهما أنه كاتب أو أديب أو مؤلف للجمل العتيقة على نحو من الانحاء، وثانيهما أنه ينتمي ـ كما ذكرت ـ الى جيل سابق.. دل على ذلك ما كان يبدو عليه من تقدم في السن، وأي تقدم في السن يشير بأصبع شائبة الى جيل متداع! وليس لي أن أنظر الى من هو أسن مني غير هذه النظرة! ورغم أن الكاتبة قد ذكرت لي اسمه حين سألتني عند دخولي ـ وكم أساءت الي عندما تصورتني من مرافقيه أو أتباعه! ـ عما اذا كنت مرافقا له، تجاهلته وتجاهلت اسمه.. تجاهلت كل ما أعرفه له من كتب ومواقف.. ولو لم أضبط نفسي لدفعتني الحقيدة الى الهجوم عليه لتمزيق الحقيبة حتى أتمكن من استعمال الخريطة وأكون خلفا لسلف و.. سلفا لخلف!

التقيـة.. سكنى!

كنـت منذ أيام العزوبة ـ وكلكم تعلمون ما للعزوبة من تشرد وتعب وعناء ـ أحب أن أزور أصدقائي ومعارفي.. بل أحب أن أزور حتى من أعرفهم معرفة سطحية.. اذ يكفي أن أكون قد رأيتهم والتقيت بهم في مناسبة من المناسبات أو قدمت اليهم في مكان ما ـ ولو في الطريق.. المهم أن أقدم الى أحد من بني الانسان ـ وتبادلت معهم بضع كلمات متوددة! فأنا أفهم أن الزيارة تتولد عنها ـ حين تتكرر ـ مودة وصداقة! المطلوب أن يكون هناك حب.. أن تكون هناك مودة من جانبي! وليس من النبل أن يرفض انسان زيارة ودودا، فاذا هو رفضها صراحة أو أبدى تذمرا منهابطريقة من الطرق، فلا يشكن أحد حينئذ في أنه ينتمي الى مرحلة متخلفة.. قريبة التخلف أو بعيدته، لم تعرف للتطور معنى! ولا تطور من غير معرفة معناه! ذلك أن للزيارة دائما مسرتها الأكيدة.. بهجتها الخاصة للزائر أو للمزور أو لكيلهما معا.. ولو كانت مسرة مصطنعة! وأنا لا أستطيع ـ بطبيعتي ـ أن أبقى بلا صديق، ومن ثم فإن زيارتي لأحد من أصدقائي تسرني على الدوام!

وقد استمرت معي عادة الزيارة هذه ـ ولكم كنت حريصا على أن تستمر! ـ حتى بعد أن استأهلت.. وغيري يقطع كل أنواع الزيارات فورا.. وأنشأت بيتا، وأنتم تعرفون ما في إنشاء البيت من استقرار ندى وسعادة طرية طلية..وأنتم من محبي الطراوة والطلاوة دون.. أدنى شك! وكونت أسرة مطفلة، اتخذت شكل جنة غردة عبقة، ولكن حبي للزيارة، التي جعلت من بيت كل صديق ومعرفة مزارا حبيبا الى نفسي ووجداني، كان يرغمني على مغادرة هذه الجنة بين يوم وآخر. وكنت ـ ولا أزال ـ الزائر بشكل مطرد، أزور حين يطيب لنفسي الملول ـ انها لتمل حتى جنتي! ـ هذا الصديق أو ذلك،

في هذه المنطقة أو تلك.. المسافة لم تلعب في حياتي الزائرة دورا كبيرا. فقد أقطع مسافة خمسين ميلا أو أكثر لرؤية صديق، قد يأخذني بدوره لزيارة صديق آخر في مكان أبعد. وكلما كانت المسافة أبعد، كانت المسرة أكبر، فالجوهري في القضية كلها معرفة العنوان ـ وهو ما أسأل عنه كل صديق جديد ـ بصورة محددة أو تقريبية على أقل تقدير. ودرجة معزة الصديق ليست مهمة كالمسافة!

ولم أكن أزور الصديق، أي صديق، في مكان عمله إلا في حالات نادرة.. عندما تكون هناك ضرورة قاهرة. قد كانت الزيارة، التي أقوم بها له في مكان عمله، تجعلني أشعر ـ رغم ما قد يستقبلني به الصديق من حفاوة ولطف ـ أنني غريب عن عالمه وعن عالمي في القوت نفسه. ولا يزايلني هذا الشعور حتى حين يكون عمله مقاربا لعملي بشكل من الأشكال. أما حين يكون له عمل في إدارة من الادارات، ولو كانت هي الادارة التي أنتمي اليها أنا أيضا، فان شعوري بالغربة يتفاقم بطبيعة الحال.. فعند كل باب ـ كما تعلمون ـ بواب، قد يرى أو تسمع منه ما تكره من حركة متأففة أو لفظ غليظ! وما أكثر ما تكون حركة البوابين وألفاظهم جارحة! لمن رق قلبه ولطفت مشاعره طبعا! نعم، لم أكن أزوره في مكان العمل، وانما كانت متعتي.. الحقة أن أزوره في بيته، إذ لا تكتنفني أية مسرة اذا أنا لم أزره بين أهله! زيارتي له بين أهله تجعلني هي الأخرى أحس بالألفة، تجعلني أحس أنني من.. أهله! لي عليه حق الضيافة والأهل معا!

وكثيرة هي المسرات التي أعيشها في منزل الصديق، أي صديق. فهذه مشروبات منعشة، وأطعمة لذيذة، وحلويات طيبة، وأغاني ممتعة.. إضافة الى الأحاديث والأسمار الشيقة! ولم أكن أغادر منزله قبل أن أنال شيئا من هذا.. كله أو بعضه، ومتعة النفس القصوى في الكل! ولا أعدم أن أجد بعضا من أصدقائه عنده.. فأضع كل واحد منهم في حساب زيارة من زياراتي

المقبلة! وهذا حتى يزيد أنسي بهم و.. ثقتي! وهناك ظروف معينة تتيح لك أن تكسب صديقا جديدا من أول نظرة.. وتشعر أن بينك وبينه صلة، تشعر في أعماقك أن لك اليه حاجة وإن كنت لا تعرف من طبيعتها في البداية غير التوقع اللذيذ و.. المسرة. ولا يهمك بعد ذلك أن تكون له هو اليك حاجة أو لا تكون. فبعض الناس خلوق ودود، محب للعشرة، مؤثر لغيره على نفسه، وما عليك أنت إلا أن تتخذه هدفا لزيارة.. مستغلا كل نوازع العشرة، التي لاحظتها عليه من حديث صادق، وطبع مرح، واستجابة مؤدبة، ومداراة صائبة.. فكل هذا فرصتك! إني أحب الزيارة ـ كما لاحظتم ـ الى هذه الدرجة العالية، ولكني لا أحب ـ بصراحة ـ أن أزار في منزلي بشكل خاص! لا يسرني مطلقا أن أدعو أحدا الى بيتي.. فلأهلي علي حرمة كبيرة. إني أسمح برؤيتهم ـ ولا بأس أن يكون للحرمة جمع رجالي! ـ في الشارع وفي السوق.. وقد أدع بيني وبينهم مسافة معينة حتى لا يعرف الجميع أنهم أتباع لي و.. حرمة! ولكني لا أسمح برؤيتهم في بيتي اطلاقا.. فليست لهم ملكية النظر الشائعة كما في الشارع! فالخصوصية تتمثل عندي في.. الحومة! يجب أن تكون للحرمة أسرارها مثل دخيلة النفس، وكل نفس ـ كنفسي ـ تحاول أن تهنأ وحدها بمسراتها الداخلية. وحتى لا أسرف في المبالغة ـ لمن يتوقع أن يكون فيما أقوله مبالغة حقا! ـ أعترف بأنه قد يحدث أن يزورني صديق في بيتي مع حرمه من غير.. دعوى! وحينئذ أجدني مضطرا اضطرارا الى أن أظهر له حرمتي.. الجانب الآخر من نفسي، وأقوم نحوه بواجب الضيافة وحدها! اذ ليس له حق الأهل علي إلا اذا دعوته الى زيارتي بين أهلي!

ولكن هذا شيء قديم نوعا ما.. كان يحدث قبل أربع سنوات أو خمس.. فقد حتم علي أن أتخلى ـ تحت ظروف أكثر من قاهرة.. غير أنها مناسبة لحرمتي! ـ عن البيت الذي كنت قد سكنته بعد أن استأهلت وألفته وألفني وقامت بيني وبينه رابطة روحية! وهكذا انتقلت الى بيت جديد.. وصلت اليه

بفضل صديق محتكم كنت أكثر من زيارته.. نعمت كل زيارة من هذا النوع! ولا ينبغي أن يفهم من هذا أنني لا أشعر براحة في البيت الجديد. فراحتي فيه كبيرة جدا. فلا أحد يعرف ـ باستثناء الصديق المنعم ـ أني تركت البيت القديم.لذلك.. فان الأصدقاء لا يزالون الى اليوم يبحثون عني فيه لأمر من الأمور أو لمحض الزيارة الثقيلة.. فليس لديهم من عنوان لي غيره! واستطعت بهذه الطريقة أن أجعل من عنواني الجديد سرا من أسرار دخيلة نفسي لا يقبل الزيارة ولا.. الاكتشاف! وحين أحمل أحدهم معي في سيارتي أحوم به على مقربة من البيت القديم، ثم انطلق بمفردي الى بيتي الجديد.. بعد أن أيأسته من أية دعوة لتناول القهوة و.. القعدة! ولثقتهم ـ أعني الأصدقاء ـ بي لم يشكوا حتى الساعة في صدق قسمي لهم على ملازمتي لبيتي القديم. ولهذا لا تزال زياراتي غامرة، وسكناي الجديدة تقية لي من كل زيارة.. مضادة!

السـبابـة.. عـشـق!

أعرف بصورة مسبقة، وكل ما لكم من ملامح وملاحم في هذه.. الصورة المسبقة، أنكم تحبون الألقاب والعناوين المثيرة والرموز! وحديثكم عن الرموز في الواقع شيء جديد، ورغم أنكم تكثرون الحديث عنها وتتخذون في أثناء ذلك مظهر الرزانة والجد والوقار.. وربما بعض الغيرة والحمية أيضا، فانها ـ أعني الرموز ـ في نظركم ثانوية الى حد كبير.. فأنتم ترون قيمة الانسان في الألقاب وحدها، ألقاب الكراسي والمناصب طبعا.. وهذا الطبع طبعكم! ومع ذلك أفترض أن هذا العنوان ـ السبابة عشق ـ قد يبدو لكم غريبا جدا.. حد السخط والاثارة والعداء! وخاصة عند من لا تعني السبابة عنده أكثر من الحركة والاشارة و.. التحية! ولا أراني مجبرا على أن أحدثكم عن التحية على افرادها، فكم في تحيتكم ـ بنوعيها الروحي والمادي ـ من.. ختل وفتل ومداهنة!

وليس في عزمي كذلك أن أحدثكم عن السبابة اليمنى.. تلك السبابة، التي عانى منها أحد الشعراء القدامى معاناة كبيرة.. عانى من اشارة صدرت عنها.. عن يمنى حبيبته، فظلت عالقة بذهنه.. جرحا لذيذا! ولم يستطع نسيانها أبدا. انها لم تكن إشارة تهديد أو وعيد ـ وهما من خصائص سبابتكم أيضا! ـ ولا إشارة لوم وعتاب تسبق لحظة المناجاة و.. البوح! وإنما كانت إشارة من نوع آخر، إشارة لا أعتقد أنكم ـ أنتم يا من تكادون ترون في كل إشارة مكسبا أو.. بضاعة! ـ تدركون ما فيها من حس شاعري، ولفتة جمالية، ونشوة روحية! لقد كانت دعوة الروح للروح الى ضمة طبيعية بسيطة.. ضمة أثيرية سماوية! ذلك أن الحبيبة لم تفعل أكثر من أن أشارت بسبابة اليمنى الى خاتم الفم! وكم في هذه الإشارة من رقة وسمو.. وما أجمله من خاتم متفرد، لن تدركوا أنتم ـ كما قلت ـ معناه. وكيف يمكنكم أن تدركوا ذلك وقد تعودتم على خاتم.. البئر؟

ولا أريد كذلك أن أحدثكم عن سبابة الوتر، وقد كانت ـ ولا تزال الى اليوم ـ تستعمل في تصريف النغمات، التي تؤخذ بالسبابة من أوتار العود وتوزع توزيعا خاصا، وتضبط ضبطا معينا، يحدث في النفس تأثيرا محددا وطربا بعيد الغور.. يبعث فيها فيضا من الانسجام والتوازن! لن أحدثكم عن هذا، لأني أعرف ـ بصورة مسبقة أيضا ـ أنكم تحبون الموسيقي الصوتية والوترية بكل ما لهما من أنواع وأشكال وتعرفون جيدا ـ وأعترف أن هذا ليس استثناء عندكم! ـ ما لهذه الأنواع والأشكال من سلطان على نفوسكم، وهيمنة على أرواحكم.. حتى ولو أشبهت تساقط قطرات المطر فوق الصفيح أو قرقرة البطون بعد أكلة دسمة أو تجشؤ معدة متخمة! ولكم ـ ويا ليتكم تحمدون الله اخلاصا واحتسابا! ـ معد مكوّرة مدوّرة تسمح باستراحة فنجان قهوة مطعمة بالهيل، وقد ينسيكم الهيل طعم القهوة كما أنساكم طعم.. السكر!

لا أريد أن أحدثكم عن هذا المعنى، الذي قد أشارككم فيه بشكل من الأشكال، بل أشارككم فيه فعلا! فسماع الموسيقى، والأكلات الدسمة، والقرقرات الصوتية، والتجشؤات الطويلة من.. وظائفي المختارة.. ومنها نشوة الهيل بالقهوة! لا أريد أن أحدثكم عن هذا المفهوم الخاص للسبابة الوترية، وإنما أريد أن أحدثكم عن سبابة العشق عندي، فالعشق له طرقه الخاصة في.. العشق! وسبابة العشق عندي دقة.. دقة تعقبها دقات! ولكي أوضح لكم طريقة دقة العشق ـ وأرجو أن تؤخروا تجاربكم الخاصة الى ما بعد القراءة.. فلكم كما جرت عادتكم بذلك متسع من القوت لتعلم.. الدقة! أصفها لكم ـ من غير عنف عاشق ـ كما يلي:

أضع سبابتي اليمنى فوق سبابة اليسرى المنحنية قليلا عن الوسطى، ثم أضع ابهامي فوق السبابة اليمنى وأدق بها على جارتها الوسطى، التي وضعت رأسها بين الخنصر والوسطى في اليد اليسرى.. وأحدث بذلك قرقعة تصاحب أي نغم موسيقي خفيف، والخفة في عرفي.. نغم طرب! وما الدقة الا

موسيقاي العاشقة المستسلمة، ووامعتصماه من العاشقة المستسلمة! وتتراوح الدقة بين اللينة والمتوسطة والقوية والحادة، وقد تتخذ شكل نقرة متحركة! وكل ذلك يتم في زمن صوتي، أضبط فيه ايقاع الأصوات وأجزائها بحيث أؤدي الدقات بطريقة موزونة محكمة! وبدقة السبابة هذه أتنقل ـ والتنقل عندي هواية عاشقة ـ في أنحاء العالم، والعالم قبو قصف نغمي، ورواق رقص وترى.. قمته السبابة!

والسبابة قمتي أنا! فما أن أسمع في مقصف أو رواق نغما يهزني ويحرك جسمي طولا وعرضا.. على وجه متماوج خفي لا يحس به سواي.. حتى تسرع أصابعي الى العمل.. الى التشابك والعناق لتحدث صوتها الايقاعي! وحين تلامس سبابتي وسطاي في دقتها الأولى تنجذب الآذان والعيون والقلوب الى منازل أصابعي الموسيقية.. وتستغرب ذلك مني كل جميلة ـ وأنا لا أدق عادة دقتي الشرقية إلا بحضور الجميلات! ـ وتدنو مني باسمة، متهادية، رافعة يديها، ضامة أصابعها لحظة، ثم ضاربة إحداها على الأخرى بصوت كالهمس. وترفع بعدها سبابتها الصغيرة الدقيقة الناعمة.. البيضاء كالسكر، وتطلب الايضاح في علم الدق الشرقي! فأمسك يديها البيضاوين.. قطعتين جامدتين من.. حليب! وتبدأ سبابتي حركتها العاشقة! وأصبح أسير العشق.. وأسير العشق لا يطلب الخلاص و.. النجاة!

وأضع أصابعها البيضاء بين أصابعي.. أصابعها البيضاء بكل برودتها.. وكم من لذة علوية تحدثها في أصابعي برودة.. الأصابع! وبرودة الأصابع تأتي من دفء القلب ورعشة الروح! وأتباطأ في الايضاح.. فلكل حاسة عندي ادراك معين، يثير في لذة ما.. فلذة البصر في المبصرات، ولذة اللمس في الملامسة والنعومة والليونة، ولذة الشم الروائح والعطور.. ولذوقي الطعوم اللذيذة وما لها من دسومة وحلاوة وحموضة.. فكثيرا ما يشجعني ترفقها على نقل مذاق بشرتها الى فمي.. والذوق المتميز طعم يتجمع فيه كل ما

أحبه في الجميلة من نظر وملمس وصوت ـ والصوت نغم روحي ـ وعطر ونجوى.. حلاوة! أتباطأ في الايضاح كلما شعرت أن أصابعي قد التصقت بأصابع الجميلة في نشوة تتسامى تدريجيا. وحين أبدأ الدق بعد ذلك أشعر أن أصابعي تلد عشقا.. يتسلق نخلة القلب السامقة ويملأ شفافية الروح نورا وبهجة.. أحيا فيهما مع الأنامل الانثوية! وعندما أتوقف عن دق الأصابع لحظة، يظل جرسها يتردد في سمعي، وما أكثر ما أتصور أني أسمع جرس طير.. الجنة! ثم لا ألبث أن أصبح أسير دقة فرقصة فمعانقة فانسدالة شعر ثم.. النفط عشق الأرض وسبابتي عشق النفط! بهذا العشق النفطي أجوب مراقص الدنيا وملاهيها.. بحثا عن دقات الأصابع المرمرية.. وأنا رسول هذه الدقة!

معذرة ان لم أحدثكم عن السبابة الأخرى، فالسبابتان تتبادلان المواقع! فهل بينكن من تريد أن تتعلم دقة.. السبابة العاشقة؟ وكلما كان التعلم على انفراد.. كانت نشوة الدق أفضل!

الرؤيـــا ... خـــوف!

عندما سقطت أول طائرة من طراز بـ52 في حرب الخليج، اعتراني ألم كبير وكأن قطعة من قلبي قد تحطمت. وحين أويت الى فراشي في الليل حاولت أن أتحكم في النوم كما تحكمت وأتحكم في العالم حاليا.. منذ أن سقطت أنياب الدب ومخالبه، ولكن النوم لم يطاوعني وأبدى لي عناداً كعناد صدام حسين، وانتصر التعب على أخيراً في ساعة متأخرة جدا جدا، فاستلمت لنوم خدرٍ، متعب.. كانت له رؤيا غريبة!

لقد رأيت فيما يرى النائم أن عالما انفتح أمامي .. تمد فيه سيادتي كل اطرافها الظاهرة والباطنة، فشعرت بسعادةٍ لأحد لها، فالفرصة فرصتي، والعصر عصري .. نهاية القرن طوعُ يدي! فاغمضت عيني لأتنفَّس السعادة في خدر وأدع أنفاسها الفاخرة تخترق أعماقي، الا انني ماكدت أفتح عيني ثانية، حتى بدا أمامي شيطان مارد ذو شارب أسود يشبه غمد الخنجر فاقتربت منه شياطين سيادتي لإبعاده عني، فنشّها كما ينش الذباب في احتقار، وقال لي:

ـ صدام حسين يدعوك الى ضيافته!

فعدلت ربطة رقبتي وأسرعت أقول له:

ـ صدام حسين عدوي الألد.. هذا الذي تجرأ على مزاحمتي في عالميا لمتفرد، في بهو سيادتي المطلق وأراد أكثر من ذلك .. أن يساوي نفسه بي وأنا.. أمريكا ! اني أرفض ضيافته!

فقال لي المارد وهو يمسح شاربه الخنجري ـ كأني بك قد نسيت أن صدام حسين هو العراق أيضا. وهو وحده وبمفرده وأنت مع شياطينك من البيض والسمر.. رَخْمًا وضبابًا!

وفكرت في نفسي:

ـ يا الهي، ألا يستطيع الكره العربي أن يريحني من أسد بابل أين هي عقارب العار: وعاد المارد يقول وكأنه قد قرأ ما دار في خلدي:

ـ الكرم العربي يدعوك إلى ضيافة صدام حسين، فمابك حاجة إلى قرار في مجلس الأمن!

وأراني الطريق بيده الغليظة، فتركت فراشي وسرت أمامه وأنا أتلمس منامتي بيدي وأحاول وضع النظارة فوق عيني بأخرى، واذا بي أجدني في قصر فخم، يطل على نهر واسع تنساب مياهه في نشاط نشيط، وقد جلس هارون الرشيد في صدر البهو بالطابق الارض المتين.. مبتسما في زهو و افتخار، وهو ينظر الى شارلمان، الذي جلس في الطرف الآخر من البهو، وبيده ساعة عجيبة، يتأملها في إعجاب كبير زادت من شدّته أُمِّيَّتُه المعروفة.

فاستغربت ذلك وكله، الا آن الشيطان المارد لم يتركني أرضي فضولي وأمتع نفسي بما أرى متمهلاً، فقد قال لي:

ـ في بهو صدام حسين تنتظرك ضيافة خاصة بك وحدك!

وعقب ذلك رفع سبابته ووسطاه وأشار إلى أعلى، فمد شرلمان يده الطويلة ونغزني في رقبتي، وأشار لي هو الآخربالصعود إلى أعلى. ومددت يدي إلى رقبتي، فهالني أن أحمل ربطة الرقبة وأنا أرتدي منامتي! مصادفه غريبة! وصعدت سلماً مرمريا، وكم آلمني أن أسير بتأن فوقه رغم شعوري بالصحة والعافية... كما لو ان بركبتي خوراً! ووجدت في الطابق الثاني بهوا آخر جلس في صدره صلاح الدين الأيوبي بكل فخامته التاريخية، وأمامه ريتشار قلب الأسد، وصلاح الدين يُمْلِي عليه شروط الصلاح والمصالحة ولما انتهى قلب الأسد من تسجيل ذلك، مد بدوره يده ونغزني في رقبتي، ثم حركها يستعجلني الصعود!

وكادت تخذلني قواي مرة أخرى، ولكني تحاملت على نفسي وصعدت من جديد، فوجدتني في بهو ثالث، يتصدّره الملك الكامل الأيوبي، وفي ضيافته الملك فريدريك الثاني، وقد جلس على مقربة منه طائفة من العلماء والكميائيين العرب، الذي يعيشون معه في بلاطه بصقلية، وكان يقول لهم، و الزهو يعلو ملامحه:

ـ رائع هومتنبّيكم القائل.. ياشقيق النفس من حكم / نمت عن ليلى ولم أنم. لا عفوكم قائل هذا المثل أبو نواسكم . أما متنبيكم فصاحب:

الخيل والليل والبيداء تعرفني ** والسيف والرمح والقرطاس والقلم!

عظيم هو شاعركم هذا! شاعركم، ياعرب!

ولم يمد فريدريك الثاني يده لينغز رقتبي بأصبعه، وإنمامسك أصبعه الوسطى بسبابته ونقر جبهتي وزأر في وجهي كالأسد:

– أفق لقد انتهى عهد فرسان العصور الوسطى وأنا أول رجل في العصر الحديث وهؤلاء رجالي من العلماء! اصعد! الضيافة العربية الأصلية في انتظارك! وصعدت كما صعدت قبل متعبا منهوكا وقد أخذت ركبتاي تهتزان بشكل سريع، ولاحظ المارد ذلك، فمسكني من تلابيبي ورفعني إلى البهوالرابع، وإذا بصوت يقول له بحدّة.

– ما هكذا نعامل ضيوفنا. المرؤوة العربية ترفض قوانين رعاة البقر! والبقر.. بقر!

واقترب مني طارق عزيز بابتسامة المعهودة، وتأبط ذراعي، فنظرت حولي لعلي أجد وزير خارجيتي بيكر، ليأخذ بيدي ويقدمني إلى صدام حسين، إلا اني لم أجده.. ثم رأيته فجأة يقرأ رسالة من فوق كثيب من الرمل.. كنت قد وجهتها إلى اتباعي من السمر. ودفعني طارق عزيز برفق، وإذا ابي أجدني أمام صدام حسين وهو في أبهته العسكرية وأنا في منامتي! وامتلأت نفسي رعْبًا حين صرت على مرمى يده، فقد خشيت أن يتصرف معي تصرفًا مهينا. وشعر بذلك فقال لي:

ـ لاتخف! وليطمئن بالك. إني أمثل أمجاد أمة! لن أعاملك بالطريقة التي كنت تعاملني بها لو أقمت في ضيافتك. الحديث بيننا سلاح! وأنت الآن ضيف! ومد يده ونزع نظارتي، وقال لي بعد ذلك!

ـ هل تبينت ملامح من يُخَاطبك؟ وأريد أن تجهد نفسك لتنطبع صورتي في ذهنك وتستطيع أن تعرفني دوت نظارات! وضحك، ثم أضاف قائلا؟

ـ فانظر الي اذن مرة ومرة ومرات هذه ثلاثة أقلام أهديك اياها بدلاً الساعة! وقد تكون الساعة في القلم، والقلم كما تعلم أيها البوش، والبوش في لغتنا.. عصابة! تطور وحضارة! هذه الأقلام هدية مبدئية!

وأخذت منه الأقلام الثلاثة، وقد آلمني أن أجد نفس أمامه صغيراصغيرا صغيرا و ألا أستطيع التعبير عن حقدي الهمجي عليه.. لا بنظرة ولا بحركة ولا حتى بالاختلاجة! وأشار لي بالانصراف وهو يمسح شاربه... غمد الخنجر! وتركت الأقلام الثلاثة بين يدي، وقرأت وقد وجدتني فجأة اعرف اللغة العربية ـ أسماء كل منها... وهي : الحسين، العباس، العابد ولم أكد انتهي من قراءة أسمائها حتى رأيتها تتحول إلى صواريخ، وفلت اثنان من بين يدي، ولكن العابد انفجر في وجهي، وهزتني لطمة كبيرة أفسدت ملامحي. فاستيقظت من كابوس نومي مرعوبا، واذا بالسيدة الأولى... تضرب وجهي في رفق وتناديني:

Darling! what is the matter? wake up! SADDAM Hossein is far from us. George, you have a nightmare! wake up

(حبيبي! ماذا جرى؟ استيقظ! صدام حسين بعيد عنا! ان لديك كابوساً! استيقظ!)

وعوض أن أوَجِّه الخطاب اليها، وجدتني أردد:

صدام حسين ب 52، صدام حسين ب 52، صدام حسين ب 52! الحسين، العباس، العابد الحسين، العباس، العابد، الحسين، العباس، العابد، الحسين.. باتريوت!

التنفس .. حياة!

كل من يعيش على الدواء يعيش على أمل الحياة! إلا أن طبيعة الحياة المبتغاة تختلف من مريض مرضاً مزمنا الى آخر! فهذا يأمل أن يحيا حياته كاملة.. والحياة الكاملة عنده لن تكمل إلا بعد الإنتهاء من إقامة القصر الجديد والإحتفال بزواج البنت والولد في القصر المنيف.. تباعدت أطرافه وأجزاؤه أم تقاربت .. ثم الحدب على النعمة والسمعة الحميدة، فهي عنده الحياة الحقة! وذاك يأمل أن يحيا لأنه يريد أن ينعم بنجاحه في تجارته.. واكتنازه لِما لذَّ له وطاب من مال وذهب وفضة وجواهر أخرى! الاكتناز هو أقصى ما يتمناه! ولا بأس أن يصل إلى القبر مكتنزاً! وذلك يريد أن يحيا لأنه يحب نوعًا بئيساً من الحياة... يحب الحياة المبدعة!

والعيش على الدواء ليس في واقع الأمر فرحة... فالمريض يحسب لكل قرص حسابه، وي*طلب منه آن يقوم بوظيفته.. بوظيفته الحقة كما ينبغي. وثمة فرق كبير بين دواء ينتجه التخلف المزمن ـ حتى الآن على الاقل ـ وبين دواء آخر ينتجه العلم الدائم، فالزمانة المتخلفة غير الديمومة المتعلمة! قد لا يعنيك أن تدرك هذا الفرق إن أنت منحت ـ بطريقة من طرقك الخاصة و.. بحظك من ايامك! ـ القصر والتجارة والابداع بشكل من الاشكال دون أن تكون مريضا مرضاً مزمنًا. فهذه هي الدنيا، والدنيا أعم من الحياة، تسعد هذا في حياته الواسعة وتشقى ذاك في حياته الضيقة.. وكم تضيق الدنيا بحياة فرد من الافراد دون سبب ظاهر! ولكنها تسعدك أنت لسبب تعرفه تصرفاتك واعرافك وحدها!

لست أطلب منك، وأنت سليم معا في، أن تقتنع بأن العيش على الدواء ليس فرحة، فهذا أمر مر بديهي في تصوري على أنّني أطلب منك ولست أدري

لماذا أطلب منك هذا! أن تقتنع بأن الحصول على الدواء .. فرحة! صدقني أنت يامن لا يربط الدواء نهارك بليلك، ولا صباحك بمْسائك، ولا مساءك بصباحك، ولا يومك بغدك .. باختصار شديد: لا يربط لحظة لك باللحظة الموالية ـ ان هذه الفرحة تختلف اختلافا كبيرا عن آية فرحة آخرى، وهل هناك ماهو أجمل من فرحة التقاء.. الى أجل مسمى على أية حال؟ لمثل هذه الفرحة خصوصيتها، ولا على أن يحي بثقلها الرصاصي في أعماقه الا من عاش على.. الدواء! فمثل هذه الفرحة يعقبها.. الفرحة لا الألم خلافا للمثل المعروف!

حين يعتريك في عالم متخلف متخلف ـ وكم هو رهيب أن يكون التخلف متخلفا! ـ قلق الحصول على الدواء.. سواء آكان مرا وكان تبعا لذلك أكثر نجاعة أم كان حلواً مقبولا. تخفي الحلاوة والأصباغ ماقد يكون له من فائدة أو مضرة حسب الانتماء.. فالدواء.. هوالآخر.. انتماء! نجاعته ـ كما قلت سابقا بصورة ما ـ تقوم على قاعدة فكرية معينة. لقد أعجبت دائا بقول من قال الطب في جوهره، والطب.. دواء!، علم من العلوم الاجتماعية، وما السياسة في الواقع إلا طب أو دواء بشكل عام! فالسياسة على هذا الأساس دواء و .. معالجة وطب! ولكن أين الطب، وأين العلم، وأين السياسية، وأين الدواء؟

فماذا تفعل ياترى ـ أن كنت مثلي مريضًا مرضًا مزمناً.. يعيش بأقراص.. وهذا منذ سنوات.. قد تصل إلى عشرين قرصا، يتغدى منها مرضه.. وما أفظع أن يتغدى المرض بالدواء.. ويكون الداء رفيق ما تبقى من العمر المهموم! ـ حين لا تستطيع السياسية لا أن تكون دواء لقلبك البدع ولا أن تكون دواء لقلبك.. الذي ينهكه و يبتز قُواه المرض العنيد المزمن! ببساطة عادية لا تستطيع أن توفّر لك الدواء! وقلق الدواء يجعل خيالك يجمح في سلوكه وتصوراته.. ومن يدري قد يقلق الدواء بسببك. كما قد تقلق بسببه، اذ يسرّه أن يؤدي وظيفته ويسخر بذلك من الانسان الذي لا يؤدي وظيفته في.. جلبه! جلبه من أي بلد كان عند الضرورة!

أجل هذا القلق.. قلقك أو قلق الدواء يجعل خيالك يريك شخصا ما، قد لا يمكنك أن تتعرف ملامحه لفزعك أو ذهولك أو لشعور ما يتضح في أعماقك ـ هذا الشخص لا ترى منه إلا يديه.. تراه يمسحها كما يمسح اليهودي يديه بعد عقد صفقة مربحة أو إعداد مَطَبَّة تصعب رؤيتها عن قرب.. ثم يقترب بها منك ليستلَّ أنفاسك، يقترب ويداه ممدوتان نحوك.. وكونك عاجزا عجزا كليا، فيداك أنت مستلمتان، وعيناك مسبلتان، ورأسك علق في.. فراغ! وفراغك أنت هنا.. فراغ في.. الدواء! وهو فراغ في العقل والقلب و .. الحياة!

والحياة معلقة بقرص صغير، وليس في الضروري أن تكون معلقة بقرص كبير.. فالتقدم يصغر الأشياء إلى أصغر حدّ ممكن.. ومعلقة بخيط صغير في الوقت نفسه ـ ولا أقول معلقة بشعرة، فالشعرة لا تعني في متانة العصر شيئا نظرا لما في طبيعتها من بساطة ونعومة ـ وأصغر الخيوط في أيامنا هذه وارقها أكثرها صلاحية ومتانة! هناك خيوط تشبه الأمواس الحادة.. والحازمة. بعض الأمواس صنعت لتكون.. أخص صفاتها القطع السريع.. كالخيوط الحديثة تشد شدا محكما.. والسرعة شد وحزم عنيد! وما الدواء إلا هذا القرص.. هذا الخيط الذي يشد الحياة إلى .. الحياة!

وأنا مريض ـ أنا كل من يشكو من مرض من الأمراض المرافقة لبقية العمر على وجه صحيح! ـ مرضًا مزمنا، لا أستطيع أن أتنفس من غير دواء، فهل يمكنك يا صاحبي ـ وأنا أدعوك هكذا ولك أنت أن تتصور ما تشاء من هذا النّداء وما وراءه! ـ أن تصور إنسانا يرتبط تنفسه بالدواء، وبلده، دولته، حكومته، وطنه لا يستطيع ـ بعد كان يا ما كان ـ أن يوفر له التنفس.. الحياة، والحال أن تنفس الحياة أساس تنفس .. الحرية؟ ما أفظع التنفس حين يكون حياة غير.. منتظمة!

التجديد.. بدعة

وجدت نفسي، ومن كان في الجزائر يطمح إلى أن يجد نفسه؟ لكني مع ذلك وجدت نفسي، ولا أحب أن تسألوني عن المركز ـ الحديث حديث مركزي، ياخيّ ـ الذي وجدت نفسي فيه، فحرصي على الإعراب عن ذلك أكثر من حرصكم أنتم على معرفته! لهذا أبادر لأقول لكم إني وجدت نفسي.. وهنا روعة الروعة.. مسؤولاً عن الكتاب! وأرجوا الا تقللوا من قيمة المسؤولية عن الكتاب، فهذا لم يعد قبولاً منكم بصورة مطلقة. فلو أنكم أحببتم الكتاب وعملتم على نشره وتوزيعه لكنتم اليوم في مركز ـ القضية هنا قضية مركز، أيضا ـ حضاري متطور إلى حد كبير! على أنكم أهنتم الكتاب فنبذتكم الحضارة!

من أجل ذلك كان من الضروري أن يأخذ.. مسؤولية الكتاب مثلي، فمثلت هذه المسؤولية لا يستطيع أن يقوم بها أي شخص آخر إلا إذا هو توفرت فيه صفة أخرى غير .. صفة العمل الاداري! وأنتم لم تتعودوا على غير العمل الاداري. وعُقْم الجزائر في جل الميادين الحضارية يكمن في العمل الاداري! و حين أقول العمل الاداري أقول الرقابة الإدارية، العجز الإداري، الفوضى الادارية! وكثيرا ماتجعلني الفوضى الادارية العقيمة عندنا أفكر في الخاوس اليوناني.. ذلك الخليط من الليل والظلام، من الفراغ والمادة قبل أن تخلق جيا، الأرض المبدعة، وتلد ماتلد من.. عمالقة! وليل ادارتنا لا يلد الا الارض العقيم!

هذه الصفة التي ذكرتها إشارة، ولم أذكرها توضيحا، لأني لا أحب أن يكون لكلماتي معناها الواضح على الفور، وإنما أحب أن يتضح معناها بعد أن تتواصل القراءة.. فالأمر يتصل بالكتاب! ففي تواصل القراءة حب للقراءة

وحب لاكتشاف الكتاب! فأنا اعتقد أن القراءة موهبة أيضا، وكونها موهبة يعني انها وعي وفهم وتتبع و.. حدس! فهي تصبح حدسا حين يستطيع القاريء أن يخمّن ما خلف السطور، بل ما في باطن السطور، فالسطور ليس لها خلف وبين فقط، وانما لها أيضاً في حد ذاتها باطن منعزل عن السطور السابقة والموالية. وقد يضيق الأمر فيصبح السطر الواحد منفصلا، له حوافيه وضفافه وفرديته المستقلة، وتسميته دليل وجوده! أعني أن السطر موجود يتركب من كلمات وفواصل ونقط وارتباطات و .. بواطن دون أن تتوفر فيه كلها ضرورة! وباطن ما قلته في اطار الحديث عن مسؤولية الكتاب وحب القراءة وعزلة السطر وفرديته.. أن المسؤولية اسندت إلى لأن صفة الكتابة تتوفر في مثلي!

وهل هناك ماهو أروع وأمجد وارقى، وقد لا يكون للروعة والمجد والرقي في هذا المجال حدود ـ من أن يصبح الكاتب مسؤولا عن الكتاب؟ فالكتاب جوهر الكاتب وآرضه المبدعة! ولم يُسَمَّ كاتبا الا لما له من علاقة حميمة بالكتابة والكتاب المفرد في صفته ونوعه. وأنا استعمل كلمة الكتابة بالمعنى الراقي للكلمه! فلاشك أن حركة كل قلم كتابة حتى ولو كانت من النمط المسماري! إلا أنها لا تعدو أن تكون محض تسجيل آلي لأمر من الأمور الادارية العقيمة أو شأن من الشؤون الفردية الجامدة! وكم لنا من مسجل هنا وهناك! كم لنا من عقيم وجامد في هذا النوع أو ذاك يظن نفسه خصباً وحياً!

وليس هناك بطبيعة الحال من هو أولى من الكاتب باحتضان الكتاب وحمايته من.. العقم الاداري! وهو وحده يستطيع أن يعيد له مركزه ـ والكتاب بدوره مركز في حياة كل أمة متحضّرة ـ ومكانته و .. احترامه. وبمجرد أن وجدتني كذلك.. أعني بمجرد أن أصبحت مسؤلا عن نشر الكتاب، وهذه صفة ثانية ـ صفة النشر مرتبطة كل الارتباط بالصفة الأولى.. صفة الكتابة، فالكتابة.. نشرا ـ بمجرد أن أصبحت كذلك، أدركت أن الكتاب ينبغي أن

يكون كتابا وأن النشر يجب أن يكون نشرا فعليا! وكلمة النشر لا تعني الاستيراد اطلاقا .. لا تعنيه في عرفي على الأقل. فهي كلمة يكثر استعمالها في اي بلدٍ متخلف، وقد أصبحت لكثرة تداولها بين مواظفي العقم الاداري بشعة.. وتزداد بشاعتها كلما استعملت بالواو بدلا من الياء بالثقل عوض الخفة. ومن البديهي أنه كان علي في أول يوم من إدارة الكتاب وأنا من أهل الكتابة المبدعة.. أن أقوّم الأوضاع السابقة للكتاب وأعرف مصادر ما تعانيه هذه الإدارة من خيبة وفشل واخفاق .. وعقم وانهيار! وهل يمكن الحديث في بلدنا عن إدارة رابحة؟ قد وقد .. فالمستحيل يغدو في الظرف المناسب ممكنًا! وليس من الضروري أن يكون الظرف المناسب ايجابيا.. فتخريب بلد في بضع سنوات مجهرية مثلا.. امر سلبي إلى أبعد حدود السلبية! وكم أود أن أقول هنا: لا علينا! ولكن هذا الظرف المناسب يرغمني على أن أقول بصوت عالٍ «علينا!» قبل أن أواصل سرد ما كنت أريد أن أتحدث عنه في سياق هذا التداعِي المبدع!

وبدأت اتصالاتي لمعرفة الحقيقة، والويل الويل لمن يريد في جزائرنا أن يعرف الحقيقة! فقد وجدت الحقيقة..رهيبة! وجدت إداريا لا يعرف للكتاب أية قمية، فالكتاب عنده كلمات تسجل في وريقات ناعمة حينا ، وخشنة حينا آخر، وكلها تطبع وتوزع لتباع في مركز ـ حتى الفشل له مراكز! ـ من مراكزالإدارة! وهذه الوريقات سجلات مُدَّعٍ، يعتقد أنه يصور سلوكات الناس من الداخل دون أن يكون له نوع أدبي يرتكز عليه في دنيا الأدب، وسجلات شاعر يلتقط الكلمات هنا وهناك كما يلتقط الديك ـ ولا أقول الدجاجة، فالديك له عرفه ـ الحبَّ ويسمي نفسه شاعرا، وهو ما لا يدعيه الديك، ولكن من يدري مافي عالم الديكة؟! وسجلات مهلوس يبحث عن الروائح والجماجم والأجساد والأحذية!

ووجدت كذلك موزعًا مراكما.. وصفة المراكم هنا ضرورية جدا. فهذا الموزع يركم الكتب المختلفة بعضها فوق بعض بشكل عمودي كما يركمها

بشكل أفقي، وعند التوزيع يكتفي بما هو أمامي أعلى.. يكتفي بالواجهة، وتكاد كل واجهة عندنا تكون علامة.. زيف! من لي بمجلّدات الزيف في تاريخنا الحديث؟! وهكذا يختفي -إلى وقت لا يعرف مداه ـ كل سابق وتبقى قيمة البيع لكل لاحق.. كما هو الآمر تماما في دنيانا الأدبية. ولكم حزينة هي الدنيا في جزائرنا هذه إلى حد اليأس! وانصرفت عن الموزع بصورة أليمة وتوجهت إلى البائع.. وكلي أمل أن أجد فيه.. الخير! لكن الخير يبدو للأسف الموجع! ـ في مراكز البيع عندنا أمراً معدوما . وكيف يمكن أن يكون الخير في مراكز ـ وللخير مركزه! ـ لا يعرف من يعمل فيه أن يقرأ شيئا آخر في الكتاب غير سعره؟! و حين يسأل عن الكتاب ينفي وجوده وهو مكدس عن يمنه وشماله وواجهته؟! ولا فرق في هذا بين الفرنسية والعربية .. فقد تجد المفرنس الأمّي يبيع الكتب العربية، كما قد تجد العربي الأمي يبيع الكتب الفرنسية! وكلاهما دويبة تخفي الكتاب وتعيش من ملمسه.. والدويبة المفرنسة أنكى فيما يخص الكتاب العربي!

ومع ذلك فإن الذي سبق بأكمله يمكن قبوله.. يمكن استاغته بصورة من الصور، بل يمكن أن يكون مدعاة للتندر الأسيف في لحظة من اللحظات.. والتندر عجب وفكاهة ولو كانت مؤلمة أحيانا! على ان الذي لا يمكن تقبله ولا قبوله ولا استاغته ولا احتماله.. فهو أن أجد ألف دويبة تتمركز في الادارة .. دويبات تتعيش من وريقات الكتاب.. الذي يطبع بصعوبة ولا يباع إلا بصعوبة صعبة جدا .. والدويبات تعيش في رفاهية عقيم أو شبه عقيم فيما يخص.. الكتاب! فجعلني هذا الوضع المرعب ألمْلِمُ و ريقاتي دون أن تنشر إدارتي حتى كتبي.. الخاصة! واقتنعت أن التجديد عندنا يعتبر بدعة، في كل اتجاه . يسهر الجميع على محاربته!

30 / 9 / 1991

الزيــارة.. إطلالـــة!

أنا أحب بطبيعتي - والطبيعة كما يعلم كل واحد منكم .. فيما افترضه أنا على الاقل.. هي التي تميز أحدنا عن الآخر، والآخر في هذه الحالة هو أنا! - أن أجلس في المكتب، والمكت عندي مزار وراحة، والمزار يعني، تردد الأصدقاء إلى مكتبي - وذلك سبب غيابي عن رؤية أصحاب المشاكل والقضايا - في أوقات تكاد تكون متواصلة.. أحددها أنا كما أريد بحيث لا أترك فراغا لاستقبال أي واحد من أصحاب المصالح والشكاوي والمطامح الوظيفية! والراحة تعني الجلسة والنكتة والقهوة والضحكة والصياغة الجميلة! إنها ليست صياغة الذهب تماما إلا أنها شيء مما يشبه ذلك! هي صياغة المقاصد والمشاريع المربحة جدا في .. المجال الذي أعمل فيه! -

طبيعي أن أجلس في المكتب لأصدر الأوامر .. إن كان ثمة أوامر.. وكم أحرص على ألا تكون ثمة أوامر غير الأمور العادية التي يعرفها كل مواظف تحت إدارتي، صغيرا كان أم كبيرا بمعنى من المعاني، فلا كبير غيري في إدارتي! الا أن السلم الوظيفي كان يتطلب شيئا جديدا، وذلك بحكم التنقل فوق درجاته - ودرجات الحظ صلبة ومتينة إلى أبعد حد! - بشكل سريع سرعة خاصة.. أسرع من تأهب القدم النشيطة، التي تصاحبها فرحة حب وبهجة و صالٍ، للانتقال من خطوة إلى أخرى! ومعنى هذا هو سرعة الانتقال - مثلا - من مدير يسهر على الأميّة إلى وزير يضيع لسانه حين يقترب من الأبجدية الأصلية! والشيء الجديد الذي كان يتطلبه السلم الوظيفي هو أن تكون هناك زيارة بدل المزار، وحركة بَدَلَ الراحة ومايتبعها من جذل ومُتْعَة!

وكانت طبيعة الزيارة، التي كان على أن أقوم بها هنا وهناك - بحكم تنقلي السريع إلى وظفة أسمي، تتميز بمجال أوسع وأرحب وأبعد مدى - تتمل في تفقد

بعض المصانع المهمة، التي تتبع إدارتي الجديدة، وأقول الجديدة مع أنني كنت أحس ـ بداية من وجودي فيها ـ أنها ليست جديدة فحسب، وإنما هي عتيدة أيضا .. وذلك لأن برنامجي الإصلاحي كان لابد أن يجعلها كذلك.. واعترف أن برنامج إصلاحي كان آنئذ مجرد تصور.. حدَّدَتْ ملامحه مُخيّلتي الجامحة في هبات الهواء أو تشكيلات السحب أو أمواج.. البحر بل حتى في أشرطة الدخان، التي تتصاعد متبددة في.. أفق مكتب الراحة. وعيناي تطاردانها في فراغه.. مبتسمة! فالدخان جزء من.. مشروع الراحة، والهدف ابتسامة راضية!

وأخذت معي موكبا.. فلا طعم لأية زيارة رسمية ولا منظر إن هي خلت من موكب بهيج وخاصة بالنسبة إلى من يحب أن يعيش مرات ومرات تلك التجربة الفريدة، التي لا يمكن أن تتمحور إلا في موكب رسمي يكون فيه الزائر المسؤل القلب النابض وكل ما يتولد عنه من حركة مائجة! وأنا أحب أن أعيش هذه التجربة. ومن لا يحب أن يشعر أن الانظار تتعلق به من جميع الجهات.. تعلق الأنفاس بالحياة، والصدور المبهورة تتزاحم حوله والخطى تتسارع وتضطرب وهي تقتفي خطاه، والوجوه تبتسم له آملة مستبشرة .. كل طموحها كلمة لطيفة أو نظرة مبتسمة أولمسة متودّدة منه، والأفواه تنفتح وتنفغر وكأنها ترى الحياة قد تجسدت في شخصه، والأيدي تمتد في صف طويل لمصافتحه . مرتعشة إلى حد ما كما لو أنها ستلمس شيئا مقدسا، شيئا من عالم آخر.. هو عالم الراحة والسلطة والقرار! من لا يحب هذا؟!

وتضخم الموكب حين اقتربت من المصنع المهم ـ وكل مصنع مُهِّم اذا هو أدّى وظيفته على الوجه الأكمل.. وتفوق أهمية مثل هذا التصور عندها يتوقف عليه سترما في الحياة من عُرِي محدد بطبيتعه! ـ افتربت من المصنع الساتر بخطوات سريعة.. ولست أدري في الواقع لماذا تسارعت خطاي عندما أصبح الساتر مني قاب قوسين أو أدنى! لعلى كنت أريد ـ بصفة غير واعية ـ أن أشعر من بقي من العمال في داخل المصنع.. وراء الآلات المدوّية كالفرحة بحركتها

.. بأنني قد وصلت وأن عليهم أن يتركوا الآلات في حركتها النشيطة وأن يتجمهروا لتحيتي كي يضيفوا لبنة إلى جدار إحساسي بأهميتي بين نظراتهم المتطلّعة إلى .. شخصيتي المهيبة.. والهيبة عندنا تقتصر على مركز.. السلطلة! واكتشف بمجرد دخولي المصنع ـ وأعترف أن ذلك آلمني على نحو ما! ـ أن دوى الآلات الذي سمعته، لم يكن ـ على علوه وربما لعلوه بالذات! ـ طبيعيا فقد وجدت في المصنع ازدواجية! وهل أخرنا غير الازدواجية.. الازدواجية بمفهومنا الخاص بطبيعة الحال؟! فهذه الآلة تتحرك حركة طبيعية، والتي تليها تصدر قرقعة رهيبة وهكذا،ولكن معظمها كان مُعَطَّلاً تماما.. لا تصدر عنها أية حركة أو قرقعة.. المحرك فيها متوقف بصفة نهائية رغم كل ما توفر عليه من مواد العمل المنتج.. وكانت هذه الآلات المعطلة تبدو بئيسة حينا ، مسودة صدئة حينا أخر، أهملتها يد الانسان وعزفت عن صيانتها لانتهاء حركتها الفاعلة.. فشكلت جمودا في سياق الدوي الساتر!

وقد تساءلت طبعا عن أسباب العطل الظاهرة والخفية على السواء.. سألت الخبراء والعمال أنفسهم عن أسباب ذلك وغني عن القول أنني لم أسأل من كان في موكبي، فهم لا يصلحون إلا للسير في الموكب.. مثلي حين آسير في موكب من هو أعلى مني مقاماً وسلطة! فتكاثرت الأصوات حولي وتقاطعت أحيانا : سيدي المسؤول ـ وقد يستعمل أصحابها صفات أخرى ترضي زهوي ـ سيدي .. المسألة.. وعوض أن استمع إلى ما يقولون.. أفكر في السيادة. والسيادة عقيمة، لاتنتج غير الجلسة و البسطة.. البسطة في كل شيء إلا في النزاهة والاخلاص.. وكلاهما أصالة وانتاج! وأعود اليهم لأسمعهم يقولون ! سيدي. هذه الآلة معطلة، لأن مسماراً واحدا يشد الهيكل الدائري.. انكسر قبل عام، وتلك انكسرت ذراع لها قبل ستة أشهر، فأصبحت هي الأخرى معطلة وكذلك تلك وتلك و تلك وهلم جرا! ونطق أحد الخبراء.. ولم أتبين من حديثه ما إذا كان مخلصا أم هو مجرد مدع. نطق

وقال : سيدي... من المؤكد أنكم تعلمون مدى ما نتج عن تعطل هذه الآلات من خسارة فادحة. خسارة اليوم الواحد تقدر بالآلاف فيما يخص الآلة الواحدة.. فما بالك بخسارة مجموعة كبيرة من الآلات خلال سنة أو ستة أشهر أو أكثر من ذلك بكثير! وكان في إمكاننا أن نتجنب خسارة هذه الفترة كلها طالت أم قصرت.. لو أننا ـ أقول لو أننا ـ أرسلنا أحد خبرائنا في المصنع إلى بلد أجنبي ـ وحياتنا لا تزال معلقة بالبلد الأجنبي في كل شيئ تقريبا! ـ لإحضار ذلك المسمار أو تلك الذراع (وفكرت وأنا استمع اليه أنه يريد أن يرشح نفسه أو أحد زملائه من أهل السياحة للسفر إلى أروبا) وهما لا يكلفان كثيرا كما أن سفرة الخبير لا تكلف بدورها مالا وفيراً فقد لا يحتاج إلى أكثر من بطاقة الطائرة وثمن الغداء وثمن ما سيشتريه.. بحيث يسافر في الصباح ويعود في المساء.. فهل هذا شيء مستحيل؟ إن ذلك لن يتطلب الكثير حتى لو فرضنا أنه اضطر إلى الاقامة يومين أو ثلاثة أيام.. فكل ذلك لن يبلغ ـ بالعملة الصعبة، ـ خسارة الآلة مدة دقيقة أو مدة ثانية واحدة! لماذا نجعل الممكن مستحيلا والمستحيل ممكنا؟ ولماذا نحطم حياتنا ووطننا بهذه الطريقة.. طريقة الرغبة في التخلف والتمسك بأعمق جذوره.. العميقة؟!

وعندما انتهى من حديثه.. وسكت فجأة ووجهه محمر، وكان واقفا قبالتي كمن أستعد ـ ولعل الأمر كان كذلك! ـ ليقول لي مثل هذا الكلام وجهًا لوجه، وصفق له أصدقاؤه وزملاؤه خبراء وعمالاً بشكل لم يصفقوا لي به عند وصولي.. أنا الزائر المسؤول! ولم أتأثر لذلك لأني كنت أعرف أن الحقيقة تحظى دائما بتصفيق أشد عند من يعرف خفايا الأمور ويؤلمه حس النزاهة! وبعد ذلك تكلم غيره عن المشاكل.. مشاكل العمال الاجتماعية. فكانت كل مشكلة أشد من سابقتها وأكثر ايلاماً! وعجزت بسرعة عن سماع هذه المشاكل فأنهيت زيارتي بقولي: الحقيقة أنني لم آت لأحل مشاكل المصنع ولا مشاكلكم الخاصة.. فذلك يتطلب وقتا طويلا .. وليس بيدي! جئت فقط لأطل عليكم من مركز.. السلطة!

الجـرح... الكراهيـــة!

كان أستاذا لي قبل فترة طويلة، ومع ذلك كنت منذ ذلك الحين ـ وليس اليوم فقط! ـ أشعر أنني في حقيقة الأمر أستاذ له. فمثله لا يمكن أن يكون شيئا بالنسبة إلي.. إذ لم يكن لديه شيء أتعلمه منه كان مستواه دون متسواي بمرحلة لا يعرف مداها سواى.. ومعذرة عن هذه الواي واي ! فقد كانت لي خبرة في المراحل أيضا، علمه لم يكن له يسار ولا يمين، كان له ما بين ذلك فقط !وكنت أنا أحب .. أحب.. كنت أنا اليسار! فالنبضات على حد تعبير آحد الكتاب، ولعله الكاتب الأمريكي آرثر ميلر، تأتي دائما من اليسار! وضميرنا هو كل ما في اليسار من جدّة! وكنت أنا أظهر هذا الضمير حتى في ألْبستي.. فالضمير علم ويسار وقناعة ومظهر، وفي اليسار إقامة القلب!

واستجابة لشعوري المتزايد بتفوقي العلمي ـ وفي زيادة الشعور في مثل هذه الحالة عزة النفس! ـ كنت أطرح عليه أسئلة محرجة.. كانت في تصوري محرجة جدا جدا، ولم يمكن لي ـ وضميري اليساري يعلم ذلك أشد العلم، لا ينبغي أن تصدمكم صفة الشدة، فالعلم له شدته هو الآخر! ـ من هدف غير أن أفْضَحَهُ، أن أجلب انتباهه إلى من هو أعلمُ منه في طلابه، أن أجعله صغيرا.. صغيرا أمام علمي الضميري! إلا أنه كان يعرف كيف يتهرَّبُ، كيف يفلت من سؤالي بحيث لا يجيبي الجواب الذي يتطلبه السؤال.. سؤالي العالم! فكان يشعرني بذلك أن قضيتي معه.. إنما.. هي تشبه قضية من يمسك ثعبان الماء من ذيله، فلا هو أمسك نصفه ولا هو أمسكه كلَّهُ، وغلبني بذلك رغْمَ أنني كنت ثعبان اليسار! .ولم يبق لي إلا أن أحرض زملائي من اليمين واليسار على من جعلته الظروف أستاذا لي ... لمجرد أنه أتى من الخارج، وكنت أنا في الداخل أعلم منه ومن أمثاله في الخارج! وكل الظروف، كما يقول غوته، مناسبة حين تكون

طبيعية ومعقوله، وهذا ما لم تكنه ظروفه هو! فقد كانت غير طبيعية وغير معقولة على الاطلاق، كانت ظروفا سيئة! ومن الغريب أن هذه الظروف كانت بالنسبة إلي وإلى من لم يعش الثورة خوفا وَتَرَقُّباً ومجابهة.. بصورة واعية - وكانت دائما فيما يخص اليسار على حد ما أعلمني به بعض الرّفاق سيئة جدا! نعم لم يبق من مخرج غير المخرج الذي يعطي، كما يقول غوته مرة أخرى - ولكم أود أن اكتب اسمه بالثاء بدل التاء، لأن ذلك يستجيب لما في أعماقي من رغبة.. غوثة! للبطولات عناوينها! كان هذا في ذلك الحين أيام كان الرجال رجالاً.. أما اليوم فلم يعد للموقف المتصلب، والعطاء الأصيل، والاصرار على الذات الفردية المتميزة، أية بطولة.. فلا بطولة في أي شيء يصبح.. عادة محميةً! وخاصة حين يتعلق الأمر بخيانة القلب في.. اليسار! إلا أن هذا التحريض، الذي كنت قد أثرت زوبعته، والزوبعة لا تكون في حالات أخرى إلا.. عاصفة! - بقي بصفته ملجئي الأخير عقيما! ذلك أنه كان يتهرب - على عادته - حينا، ويصمت حينا آخر.. ولربما كان صمته احتقارا! وفي النهاية كان النصر لصمته.. كان صمته هو الزوبعة، ولست اليوم أدري أين قرأت أن ممن يزرع الريح يحصد الزوبعة! ولعله ميكيافيلي، على كرهي له، كان على حق -في هذه المرة على الأقل-حين قال إن الذنْب ليس ذنب من يلتجيء إلى السلاح وإنما الذنب ذنب من يرغمه على ذلك! وقد كان لأستاذي المفروض علي -وكم من أستاذ فارغ يفرض عليك أيام مزوالتك للدراسة! - سلاحان لا سلاح واحد. كان له سلاحه المحتقر من باب الفاعلية وكانت له نتجاته الأدبية.. وآراكم تضطرونني إلى القول بأن الفاعلية المحتقرة عنده كانت صمته.. صمته المنتصر! وهل هناك ما هو أعمق من انتصار الصمت.. صمت الحقيقة الصامتة! ولكم آلمني.. ولا يزال يؤلمني حتى اليوم.. الاعتراف - مع نفسي! - ببلاغة صمته! نعم، اعترفت لنفسي أنني تعلمت منه بلاغة الصمت كيفما كانت طبيعته. والبقية - كما .. قال شكسبير، وقد تعلمت هذا القول فيما بعد! - صمت!

ومضت بعد ذلك أيام وجاءت أيام، وكنت في البداية أقطف أيامي، على حد تغبير هو راس، قطفا، أعني أنني كنت أحاول أن استفيد منها.. أن أجعل مما أنتجه في مجال النشاطات الأدبية وردا ونرجسًا وريحانا.. لأني كنا أريد أن أساوية بوجه من الوجوه.. أن أساويه في الوظيفة إن لم أساويه في الرتبة! وقد تغدوا الرتبة تافهة أمام الوظيفة تتحكم فيها بشكل يحدث فيها.. في الرتبة جرحًا نغارا! معيد تتولى الإدارة يتحكم في أستاذ.. بحكم وظيفته العلمية - في تصوره! - والادارية! وكنت قد لاحظت هذا مرارًا وتكرارًا.. لاحظت في عدة معاهد - وعدة معاهد تعني بشكل مختصر كل جامعات هذا الوطن الموظّف - أن الرتبة العلمية لا تساوي إلى جانب الرتبة الوظيفية والادارية درهما صدئا، ومحنتنا كلها تكمن في صدأ.. الرتبة! مضت أيام وجاءت أيام ووجدتني معه في .. الوظيفة!

وماكدت - بعد فترة من تحرجى أوظف حتى فعلت ما فعلت.. وقل أن أوضح هذا علي أن أقول أولا أنه كان واحدا من الذين ساهموا في توظيفي إلى جانبه! بصفتي معيدا طبعًا! ويبدو لي - بعد هذه السنين - أنه ربما كان - .. أنتبه - قد أقتنع بتفوقي عليه في كثرة اطلاعي و.. طلاقة لساني! فلساني آحد من السيف وأكثر لمعانا . ويهدر كالسيل. اقتنع قبل كل شيء بتفوق يساري على وسطه! على مالهُ من بين بين ! فالحياة لم يعد لها في هذا العصر .. وسط! واذا كان هناك من وسط فهو في جوهره.. يمين! كانت هذه قناعتي في ذلك الوقت.. وقت التوظيف ويكاد وقت التوظيف يكون دائما.. وساطة! وتصوروا معي معهدًا أو جامعة أو دولة والجامعة دولة، جل وظائفها.. وساطة! فهل يمكن أن يكون فيها خير؟ ان كان هذا الخير فهو خير يعيش .. احتضاره!

نعم ماكدت أوظف حتى شاءت الظروف أو الأقدار - وربما شئت أنا ذلك دون وعي مني! - أن أكون معيده، والمعيدي - بالياء - سبة! و المعيد رتبة كما الاستاذ رتبة! وأرجوا الاتنزعجوا لهذا التعبير، فالحداثة تكون كما الوظيفة تكون ماتكون!

تكون الرتبة مثلا! وتكوز شيئا آخر تعلمه الحداثة الحديثة! وعلم الحداثة كعلم الوظيفة.. منصباً وشهرة والشهرة، كما يقول أحد الكتاب ولا أذكر -للأسف- اسمه، كثير ما تشبه الريح، التي لا يعرف أحد من أين تأتي ولا إلى أين تمضي! وكنت أنا الريح في قوتها الوظيفية! ولعلى أقلل من قدري هنا حين أشبه نفسي بالريح، فالوظيفة لم تجعل مني ريحا، وإنّما جعلت مني.. زوبعة! فأنا إذن الزوبعة.. وفي تعريف الزوبعة قوة لا يتصورها تنكيرها! صار نطقى أنا الزوبعة!

لقد طبقت منذ اليوم الأول قانون الزوبعة، فأنا لم أرض في دروسي أن الكون له معيداً.. أن أكون مطبقا لما يقوله في محاضراته! وكيف أفعل ذلك وأنا أعرف مسبقا أن محاضراته نوع من الهراء المتميز.. وصدقوني أن للهراء تميزه أيضا.. بل قد يكون له سموه في مجال السخرية والفكاهة! وكم لهما من حكمة نادرة المثال! قررت منذ اليوم الأول في عمري الوظيفي أن تكون لي أنا محاضراتي الخاصة كما له هو محاضراته الخاصة. وكنت أحس أن محاضراتي الخاصة تشكل بالنسبة إلى نوعا من الملكية... ملكية من طراز خاص، هي ملكية الثقة بالنفس، وملكية الألم، وملكية السعادة.. ملكية البهجة من أجل كل الذين أحبهم، من أجل المزروعين في عتبات الحياة، ومن أجل من تحمل وجوههم أسفار المآسي الدنيوية.

لقد حرصت بشدة على أن تكون يساريتي ندا لليمينية.. يساريتي النشيطة مقابل يمينته الجامدة في مجال.. الرتبة! لست أدري من قال، وقد يكون شوبنهاور مهما كانت أهمية الرتبة في نظر الطغام والاعداء، مهما كانت فائدتها في جهاز الآلة الحكومية... فإنه من الممكن الانتهاء منها بسهولة! بمعنى طرحها جانبا! وبذلك جعلت المعيد رغم أنف كل الرتب الجامعية. محاضرا بدل أن يكون مطبقا، وهذامع علمي بأن شيئا من هذا القبيل لا يمكن أن يحدث في أية جامعة من جامعات العالم، ومنها جامعات العالم لمتخلف عامة والعالم العربي في بعض أجزائه خاصة. ومع أنه كان هو يتعرض لليسار. بالإشارة الخفيفة طورا وبنوع

من التفصيل طورا آخر.. من باب الفهم والحكم والمقارنة والاختيار في زعمه، فإنّي أنا لم يكن يحلولي الغرق ـ عبر كل كلمة وكل عبارة... إلا في اليسار!

وشعرت أنني اقتربت من رتبته على نحو ما يوم سمح لي بالسفر إلى الخارج لمواصلة الدراسة.. خاصة وأنه كان ممن وافقوا على خروجي هذا وقد اعتبرت ذلك اعترافا ضمنياً منه بأنني اقتربت فعلا من رتبته الخارجية.. أعني أنني سأجيء بعدئذ ـ مثل مجيئه تماما ـ من الخارج لأشغل قلب الرتبة وجناح.. الوظيفة! إلا أن خروجي لم يمنحني ـ لأسباب كثيرة ـ ماكنت أطمح اليه من شهادة ورتبة خارجية.. هذا مع أن المدة، التي قضيتها في الدنيا الخارجية المتطورة، كانت كافية للوصول إلى ذلك وأكثر! الا أن المهم بالنسبة الي آنئذ هو أن رجوعي صفر اليدين بصورة مالم يحرمني من جناح الوظيفة، وقدم لي فوق ذلك ـ عوضا عن .. قلب الرتبة! ـ وظيفة إدارية! ووجدته هو ـ واعذروني إن أنا لم أقل استاذي، فإن هذه الكلمة تثير في نفسي مرضاً! ـ وجدته في قبضة يدي، فكنت اختار له الساعات التي لا يمكن أن تلائمه إطلاقا.. في الصباح الباكر أو في المساء المتأخر، ولكنه لم يكن يحتج.. كان يقبل ما قرره برنامجي في صمت غالب!

وعدت الى الخارج لأقترب من الرتبة بشكل حقيقي، ونلت في هذه المرة ماكنت أريده.. ولا انكر أن العودة إلى الخارج كانت بمساعدته أيضا.. لقناعته ـ كما ذكرت سابقا ـ بمكانتي العليمة وعبقريتي ـ الأدبية، التي كانت تتفتح على مهل .. مع الزحف نحو.. الرتبة! وحين عدت بعد هذا الفوز بالشهادة الخارجية، لم ينخفض لي جناح الوظيفة ـ ولا حب له في هذا الاعتراف! ـ إلا بفضله هو الذي لا أذكر صفته ولا اسمه! ولست أدري لماذا لم أشعر باي حب أو احترام له رغم أنني عدت من الخارج ويمينتي أكثر من يمينته ان كان يمينيا فعلا.. عدت وأنا.. يمين اليمين؟! والظاهر أن السبب في ذلك يعود إلى فيض الإحساس بالتفوق العلمي قبل أي شيء آخر!

ولم يقنعني ماعدت به من يمينية ـ وسُحْقا لليسار! ـ فطلبت العودة إلى الخارج للمرة الثالثة، وكان أيضا ممن وفاقوا على هذه العودة الخارجية.. وكأن عربة نزوحي إلى الخارج مشدودة إلى رغبته! وحاولت بعد انتهاء المدة البقاء في الخارج .. ولم اكن أتصل به ـ استنكافا! إلا بواسطة، ولكن رغبته أصرت على عودتي في الوقت المحدد، فحرمتني بذلك من.. أشياء كثيرة حرمتني قبل كل شيء من.. ذهب اليمين ! وذَهَبُ اليمين.. عملة! فرضخت لإرادته بعد أن أصبح ـ وقد كان لمرتبة دخل في ذلك! ـ مسؤولا مباشراً عن جناحي الوظيفي! وعدت مرغماً.. وفي قلبي غَلْيٌ وغلي وغَلْى! بل في قلبي نار! ونار الحسرة على العملة آصعبُ...نار! وهل هناك اليوم من لا يعاني من عنف هذه النار؟! نار ـ يامن لا أسميه! ـ وأية وظيفة.. هي نار بدون هذه العملة!

وعدت بإرادته إلى وظيفتي.. إلى جناحي الوظيفي، وكل وظيفة تصعد بك نحو الرتبة .. جناح! وهل يحكمنا اليوم غير.. الأجنحة؟ الحكم أجنحة، والأجنحة حركة واندفاع وسبق! والويل لمن لم تسعفه الأجنحة !وماكدت أعود حتى جعل لي ـ رغم احتقاري المبطن له ـ جناحاً يرضي يميني العلمية! عندما تحتقر إنساناً فإنك تحتقره ـ كالعبد يحتقر الملك وكالجاهل يحتقر العالم ـ يميناً ويساراً! جَعَلَنِي رئيس لجْنَة علمية ـ بدافع الاعتراف بعلمي دائما! ـ في الوظيفة! وبذلك وضع نفسه في قبضة يدي عن طيبة هي غفلة.. ذكرتي بالذبابة تضع نفسها في نسيج العنكوب! فأنا الآن أفعل به ـ كلما كان له عندي آمر يخصه ـ ما أريد.. عذابه في يدي لاني ما بلغت بعد رتبته!

ويحضرني بهذه المناسبة قول لثيكرى ان لم تخني الذاكرة .. مفاده أن للحب مجراه مثل كل الاشياء الفانية له بدايته ونموه وذويه.. فهو يخرج براعمه ويتفتح في أشعة الشمس ثم يذبل وينتهي. وأنا أقول ان الكراهية كذلك، ولكنها لا تنتهي .. بل هي تقيم كجرح .. المعدة

1991 / 10 / 26

المـــزاد.. وطـــن!

خطر بذهني ذات يوم.. بشكل عفوي مفاجيء تماما، والخطرة العفوية المفاجئة لا تكون إلا للذهن السليم.. وسلامة الذهن في صدقة! خطر بذهبي أنني أعيش تاريخ غيرى.. آعيش عواطفه وأمجاده وأعيش لغته وحضارته و.. عاداته وتقاليده إلى حد كبير.. روحًا وجسداً! وأنا أعيش ذلك على مدى سنواتي الأربعين أو.. الخمسين، لا أدري! فبقدر ماكانت سنوات غيري ثابتة، كانت سنواتي أنا تقديرية.. والتقدير قدر ومصير! وكم يضيع العمر حين لا يثور المرء على الغد والمصير.. أو ما يتصوره في خضوعه العاطفي قدراً ومصيراً. الذهن السليم يرسمُ قدره ومصيره في سماء غده بسحب يضيء كثافتها ألق الشمس اللاهبة .. كجمرة الحرية!

وكان قد حظر بذهني ما خطر عندما سمعت في تلفزة الغير وأنا مع الغير في كل حين .. بحكم انتمائي الذهني والعاطفي وإليه! ـ مشاركا في حصة من الحصص السمعية البصرية. والحضارة اليوم سمع وبصر بالنسبة الى من لا حضارة تاريخية له ولا فكر، يستدل بقول لأحد الفلاسفة ـ ولست أدري ما إذا كان هذا الفيلسوف ينتمي إلى غيري أو إلى غير غيري! ـ هو أن تاريخ الشعوب يعلّمنا أن الشعوب لم تتعلم شيئا من التاريخ. وقد فهمت من ذلك في الحين أن التاريخ ـ بناء على هذا ـ القول الفلسفي أو المتفلسف ـ مدرسة أو يجب أن تكون.. مدرسة يتعلم فيها كل إنسان ماضيه ويعرف من خلالها ذاته الشخصية لا .. الغيرية! فالغير غير وله ذاته الخاصة المتميزة، فكيف يمكن أن يكون الفرد ـ و هو فرد خلق فرداً ـ ذات غيره؟ الانسان الأصيل لا يكون إلا.. نفسه السوية وذاته التاريخية!

هذا ما أملته على.. - في تجليها المفاجيء! - خطراتي العفوية! وكان أول مافكرت فيه اسمي.. الذي أطلقه على أبي والاسم الذي أطلقته أنا على ابني.. استنادا إلي مأثورت غامضة أقرب إلى الأساطير منها الى التاريخ أو استجابة لعواطف معينة أو حى بها الغير من أجل انتمائي إليه و .. اندماجي الكلي في.. حضارته! ولم يكن في وسعي أن أعود إلى الرواية الشفوية.. فما من رواية شفوية إلا تحتوي على حظ من الخرافة، والخرافة بطبيعتها تمتع الصغير كما تمتع الكبير.. وكم يغدو الكبير صغيرا في زمن التخلف والخرافة! ومن يستطيع ياترى الفصل بين تاريخ التخلف وتاريخ الخرافة والحال أن كليهما.. وهم؟! الوهم يصبح في الايمان بحضارة الغير ولغته وتاريخ أمجاده.. أو هاماً والفضل في هذه الافكار والأسئلة يعود إلى .. خطراتي العفوية المفاجئة! ومن ثم كان علي أن أعود الى كتب غيري التايخية.. ولا بأس أن أكرر أن هذه العودة إلى .. لغته يتطلبها.. الانتماء! - أن أعود اليها لأعرف تاريخ اسمي وتاريخ اسم ابني البكر.

وكان كلاهما نادراً غريباً وما أكثر الأسماء النادرة والغريبة عندنا! وكم من اسم فيها يصلح أن يكون عنوانا لخرافة متخلّفة.. أصلية الى أبعد حدود الاصالة! واذا بي اكتشف أن لي فعلا سميّ في التاريخ كما أن لابني سميه هو الآخر. أعني أنني أحمل اسم شخص تاريخي كما يحمل ابني اسم شخص آخر.. عاش كلاهما في وطني خلال فترة تاريخيه سحقية.. موغلة في التاريخ بالنسبة إلى أنا الذي لم يكن يهتم بالتاريخ ولا له رغبة في معرفته معرفة تربط حاضره بماضيه أو اسمه بسميّه التاريخي!

وأردت من باب الإيثار أن أعرف تاريخ سميّ ابني قبل أن أعرف تاريخ سميّ أنا. فا لإبن زهو أبيه وكبرياؤه وفخره! وفي أثناء بحثي عنه أرشدني من أرشدني إلى المؤرخ الروماني سالوست، فهو المصدر الوحيد فيما يبدو ، في ترجمته إلى لغة الغير - فأنا لا أعرف إلا لغة الغير - طبعا! فكان من بين ما قاله

عن سميّ ابني، وذلك في الفصل الرابع عشر، أنه ذهب إلى رومة والقى خطاباً في مجلس الشيوخ، نَدَّدَ فيه بِسَمّي واتهمه بالبغي والشر والعدوان والخروج عن الطاعة، وبدأه بقوله: زأيها الشيوخ! لقد أوضح لي أبي وهو على فراش الموت أن حقي في المملكة النوميدية لا يتعدى الحكم الاداري، أما الملكية و السيادة. فلكم أنتم. وأن علي أن أبدل كل ما في وسعي من أجل أن أقدم للشعب الروماني في الحرب والسلم كل ما يعود عليه بالنفع الكثير، كما أنه ينبغي لي أن أعتبركم أصدقائي في الدم وأقربائي! فإذا أنا فعلت ذلك ضمنت صداقة قوتكم العسكرية وثروتكم وبهما تقوم أعمدة العرش!....

هذا ما قاله سميٌّ ابني في مجلس الشيوخ. والمنصب في عصرنا هذا عرش، والعكس صحيح أيضا! والظاهر أنه كان هو الآخر يتكلم بعفو الغيرية... يمليها عليه الطموح الى الحكم الاداري في ظل العرش الهنيء! فعدت مسرعًا إلى البحث عن سميٍّ، الذي كنت قد تجاوزته في الصفحات الأولى من الكتاب.. بقصد الوصول إلى سميٍّ ابني من باب الايثار كما ذكرت سابقا. وكان الكتاب كله يتحدث عن حروب سميٌّ وبطولاته و .. مواقفه الأبية.. ويحمل عنوان الحرب منسوبة اليه: وتوقعت من أول وهلة ان يكون سميّ هذا مثل سميّ ابني.. صاحب عفوية غيرية! إلا أن توقعي لم يصدق فيه. ولا أخفي أنني شعرت - وربما بشكل عفوي أيضا - بنوع من الخيبة، وقد يكون ما شعرت به غيرة على نحو ما، فالغيرة الى طموح القلب أقرب، وبسعة الحلم الصق.. وكم حقق سميٍّ من طموحات ومكاسب وأحلام!

فوجدت مؤلف الكتاب يبرز من البداية ما كان يتمتع به من جمال جسمي، وقوة جسدية ومواهب فكرية، وفروسية متميزة.. وذلك منذ أيام شبابه الذي لم ينعم فيه، بما نعم به أبناء قومه من ترف وحياة رخيّة.. وكأنه كان يُعِد نَفْسه ليكون رجل دولة بكل ما تتطلبه الدولة من صفات المجد والجاه! لكن الذي أذهلني معرفته، وأثار إعجابي بشكل خاص - رغم مشاعري

العفوية.. الغيرية ـ هو أنه أرسل رسله، ثم أرسل ابنه ، وفي النهاية ذهب بنفسه إلى رومة ليشتري منها عزة وطنه وكرامته وسيادته بالمال .. بالذهب والفضة والهدايا المتنوعة، لأنه كان مقتنعا قناعة تامة بأن رومة تباع وتشتري في المزاد العلني.. يتمثل هلاكها في وجود الشاري وحقق بذلك ما كان يصبو اليه. إلى أن أسلمته المخيانة في آخر المطاف إلى رومة العدوة!

لقد صدق من قال ـ في تلفزة الغير أيضا ـ مستشهدا.. إن التاريخ سينهض في أوانه ويتكلم! وقد تكلم في عهد الديمقراطية ـ لا في القرن الثاني قبل الميلاد! ـ بصوت جلي جدا: نحن نذهب اليوم إلى رومة لنبيع عزة وطننا وسيادته وكرامته.. فهو الذي يباع ويشترى في عصرنا في المزاد العلني. وإنه لمن المحزن جدا ـ وهذا بغض النظر، مرة أخرى، عن المشاعر العفوية المحددة! ـ ألا نبيعه بالذهب والفضة مثلما فعل سميّ حين اشترى وطنه من غيره وإنما نبيعه بالحنطة والزيت وصابون الغسيل.. لأننا لا نحمل قيمته ولانظافته في أعماق الفكر والوجدان. هذا هو التاريخ، والعصر ليس عصر سميّ يوغرطة، ولا عصر سميّ ابني .. آذر بعل!

1991 / 10 / 26

الخلــط.. أميــة!

. . .وأخيرا دخَلُو القاعة الجميلة، وهي جميلة لأنه تمثل الادارة المتسلطة! لا تم لا! فلنترك السياسة إلى جانب تحمد تبعاتهُ! هي جميلة لأنها واسعة حضراء، والسعة تذكر بالبعد و الامتداد و.. المدى الواسع سعة الطبيعة، والخضرة تذكر بالرونق والبهاء والظل الخضل و.. الجنة! ولا تظنّن أيها الأمي، أن في هذا شيئا من فيض الحس والمبالغة.. فالقاعة لم تخل من الحور العين ـ وقد كنّ أكثر من حوريات! ـ ومن الغزل! وكل طموح على نحو ما .. غزل! لقد دخلوها ما بين مفرنس ومعرب ـ وهذا الرتيب رسمي! ـ ومزدوج.. كل منهم يتفنن في تبختره ويحاول جهده أن يبدو أجمل من الطاووس في نشر ذيله وأناقة حركته الغامرة! ومبعث ذلك كله أن الوزارة دعته لحضور اجتماع.. يصبح بعده عضْواً في لجنة متسلطة! بل قد.. يصبح!

وكان كل منهم يحمل وثيقة معدة .. أعدتها في فترة سابقة لجنة تتكون من رؤساء اللجان، ولو كان تكوين اللجان علامة من علامات التقدم، لكنا اليوم أكثر شعوب العالم تقدماً! قد تكون لهذه صفة محلية، ولكنه على أية حال من الأحوال ـ وكم في أحوال اللجان من كثرة ووفرة يصنع أفرادها شعبا! ـ واقع يجثم على الصدر كالفوضى! وما أتعس شعباً يفتقر إلى الاحساس بالفوضى حتى في اتخاذ الزمارة أداة للمناداة .. رغم ما تعانيه الأعصاب من ثورة ماحقة، وما تعانيه الدماء من فوران قد يتحول إلى تخثر ما حق هو الآخر!

وافتتح الوزاريُّ الاجتماع بكلمات، تنتمي إلى لم الشتات.. شتات الضفتين المتوسطتين، لا علاقة لها باسم الرحمن والقرآن والوطن! فقد كانت الضفة الآخرى.. المنطلق! كانت هي المنطلق، وإلا فما كان الوزاريُّ ليكون وزاريا! كل وظيفة وزارية تقوم في معظم الاحيان ـ وهذا لا ينفي أن يكون

الأمر بصورة مطلقة - على الضفة الأخرى ! لكم هو غريب أن يكون لبلدٍ ما ضفة متميزة ومع ذلك لا يملك ضفة متميزة! ولا تظنن مرة أخرى أيها الأمي، أن في هذا تناقضاً، فما من تناقض إلا وينتفي حين يكون واقعاً! والنفي في هذه الحالة نفي لك وتجاوز عنك! وتكلم عن الوثيقة المعدة.. كلاماً! لعله لم يكن يؤمن به هو نفسه، ولكنَّ الظرف أرغمه على الايمان بذلك بشكل من الاشكال . فالأمر لا يهمه في آخر المطاف، فما هو بحاجة إلى ترقية ولا إلى معادلة! ومن قال إن الإدارة المتسلطة تحتاج إلى معادلة! المعادلة تنتفي عندها كما يتنفى التناقض! ولو لم يكن الأمر كذلك لفتح مجال، ضاق أم اتسع، للسيولة المالية؟ هذه السيولة المالية له وحده.. وخاصة هناك في المآدب المضيافة!

وقد كان آدم.. في صورته المتسلطة! فلم يترك مجالا لحواء التي كانت بجانبه، مع أنها كانت هي التي دعت إلى الاجتماع ولم يكن يبدو عليه أن له ميزة معينة إلا أنه رجل وزاري، والرجل عندنا. آدم تزوَّرَ في منطوق الضفة الأخرى، وتوزّر في منطوق هذه الضفة! فما لآدم يستبد عندنا حتى حين يتعلق الأمر بمجرد الكلام؟ ولعل هذا الاستبداد قد جاءه من وحدته الأولى.. من عزوبته الأولى، فقد كانت وحدة آدم.. عزوبة! ولذلك لم يسمح لحواه بالحديث وكأن الصوت مقصور عليه وحده.. وهو مقصور عليه وحده فعلا ما دام وزاريا.. ينطق الراء غينا تأكيدا لأصالته! فما أن تتدخل حواه الوزارية حتى يقمعها بعنجهيته - ولا ينبغي لكم أن تنزعجوا من هذه الكلمة فهي شامة شامات العصر من الدولار الى النفط والوسط إلى الأسفل.. والوسط أقرب إلى الاسفل منه إلى الأعلى! - بعنجهته الآدمية! وهذه العنجهية ليست عنجهية الشهامة والعزة والاصالة. فالعصر - واويلتاه! - امتهانة وضجعة و.. عورة!

... وأخيرا فتح باب المداخلة - وكل مداخلة موقف! - أمام حواء الوزارية، وأعطيت لها الكلمة.. فتصّورُ الحضور لم يكن في غنى عن توضيح هذا الأمر

أو ذاك وربما ذلك أيضا! فما من طبيعة الوثيقة في إدارتنا المدرسية ـ او في مدرستنا الادارية.. فلا فرق! ـ أن تكون ذات دلاله محددة! أو معاني ـ واضحة. فالمجموعة التي تسهر على اعدادها قد تنتمي وظيفةً وموقفا إلى المجموعة التي تناقشها وتثريها ـ وما أكثر ما كان نتيجة الاثراء عند منظرينا، وكل من يشارك في اعداد وثيقة يعتبر نفسه منظرا! ـ رفضا وبديلا مُبتذّلاً! ـ على وجه متفرد ولكنها لا تنتمي اليها فكرًا وعاطفةً واتجاهًا وتصورا.. يبلغ حد الفلسفة.. وأية فلسفة وفلسفة!

... تكلمت حواء الوزارية، وكان سابقها الوزاري قد أشعرها بأنها لا تزال معزولة لم تأكل من ثمرة السلطة في تسيير الجلسة وسيرورتها على الأقل. وأبغض الحلال عندها جلسة اجتماع لا تشارك فيها! ـ بالحديث والرأي ورفع الصوت.. رفع الرأس والنظر أيضا. وهزّ الحاجب والرموش المسلولة! ـ ذات خلخال! تكلمت وإذا هي إياه.. تحمل كل بلَل الضفة الأخرى وراءتها الغينية، تحمل كل ذلك ولا تكاد تبين! ودعك من هذه الضفة فلسانها البليل من تلك لا من هذه، ونحن يوم لا تستلبنا الا تلك.. أعلى ووسطًا وأسفل وكأن القدر قد جعلنا خطا نازلا منذ أن صرنا نحن حتى... لا نكون نحن وتكون تلك.. السلطة! وكانت الوزارية في حديثها ـ على ما به من بلل منفر! ـ سلطة!

وجاء في.. النهاية دور الاساتذة ليعربو عن رأي ما.. وكل من يدعي إلى اجتماع في بلدنا الطيب ينظر إلى نفسه ـ وقد تنشأ هذه النظرة ـ القيمة مع الدعوة! ـ على أنه استاذ يمشي متثاقلا ويتكلم منظراً! و الخطابة إلى المنظر أقرب منها إلى الاستاذ المتثاقل بما للنفس من فرحة غريزية! وتكلموا فلم يكن لأي منهم في هذه الضفة وفي تلك الضفة فضل الشبه بسحبان وميرابو ولا حتى التشبه بهما في عظمة الضاد وفصاحة الراء الغينية! فلم يعرف سوى القليل منهم جدا... قدر نفسه ومكانته! وأعلن صراحة انتماءه لهذه الضفة

أو لتلك .. وتلك صفة معشوشبة! والعشب ضفة، والاختيار في هذه الحالة هنا أو هناك .. والأصالة ترفض الجمع بصورة مطلقة!

أما من لم يعرفوا قدر أنفسهم ـ وقد كانوا يمثلون الأغلبية الساحقة بشكل واضح وكان يبدوا عليهم كأن لهم في ذلك فخراً وسلطة أو .. إدراك عبير السلطة ـ فقد اختاروا الخلط والجلط.. فصحى وعامية ومزدوجة، وفرنسية وعامية ومزدوجة، يتعاور كل ذلك نطق ثلاثي المخارج... وطبيعة المخارج في مثل هذا الخلط الجلطى أو الجلط الخلطى معروفة! وبذلك سجلوا الحضور الشرعي لهنا، ولهناك.. وأصروا على أن يجمعوا بين هذه الضفة وتلك.. وتبقى تلك الضفة عندهم أفضل ضفة و .. ضفة! وكنت جالسا بدوري في هذه القاعة الخضراء، التي لا تمنحك خضرتها إلا إذا كنت فيها مهندماً، مسربلا في حركاتك ونظراتك الذاتية ... مجتمعًا! كنت جالسا من بين الجلوس.. صامتًا، أراقبُ، وأتتبعُ، واضع من حين لآخر رأسي بين يدي وفمي يغمغم .. كالأرنب وطفر إلى ذهني السؤال الذي القاه خالد بن الوليد على إبن نفيلة فقد سأله ـ أعرب أنت أم نبط؟

قال ابن نفيلة:

ـ عرب استنبطنا ونبط استعربنا!

وهنا خطر بذهني قول الشاعر:

أين امرؤ القيس والعذارى

إذ مال من تحتها الغبيط

استنبط العرب في البوادي

بعدك واستعرب النبيط!

وكان ابن نفيلة مدركاً لما يريد، فاختار.. الوحدة وقد ذكرني سؤال خالد وجواب ابن نفيلة ـ والغمغمة لمّا تتخلّ عن فمي ـ بسؤال بطل رسالة الغفران لأبي هدرش وجوابه له فقد قال له:

- لله درك يا أبا هدْرش! لقد كنت تمارس أوابد وفنديّات. فكيف ألسنتكم؟ أيكون فيكم عرب لا يفْهمون عن الروم وروم لا يفهمون عن العرب كما نجد في أجيال الإنس؟

فيجبه ابو هدْرش الجني:

- هيهات أيها المرحوم (كلمة المرحوم مثبتة في النص!) إنا أهل ذكاء وفطن ولا بد لأحدنا أن يكون عارفاً بجميع الألسن الانسية، ولنا بعد ذلك لسان لا يعرفه الانيس!

وغمغمت - والحديث لخطابي لا يزال يتدفق من فم أحد المتدخلين كالسيل.. حاملا الوحل والجلة والغثاء - أمام نفسي: لك مني، يا أبا هدرش في عالمك الجني... ولله درك ودرك، لك مني ألف تحية وتحية .. بل عدد الألسن الإنسية التي تعرفها. أحييك بأكثر من ذلك .. لأنك لم تتنكر لما لديكم، أنتم معشر الجن، من ذكاء وفطن، ولم تنس أن لك لغة جنية خاصة بك وبأهلك من الجن! كل هذا ولا فخر! فالجن له أصالته العريقة! ويبدو أن غمغمتي قد ضايقت جاري، أو هو ظن أن بي مسّاً من الجن، فقد ضربني بمرفقه في جنبي الأيسر برفق - أتراه كان يقصد قلبي - وطلب مني أن هدأ قليلا وأصغي ! فابتسمت له وصمت، ولا أدري أكانت تلك ابتسامتي أم ابتسامة أبي هدرش الجني الأصيل!

... وأخير فاضت بي الغمغمة، فرفعت يدي .. طالبا نقطة نظام ، فسمح لي بذلك في الحين .. فقد كان الوزاري يعرف أنني لم يسبق لي أن طلبت الخطاب وقلت ما فحواه.. ياجماعة (لم استعمل كلمة الإخوة قصدا .. فهي من الكلمات الباردة!.. اذ كيف يؤمن أحدنا بإخوة يبيعونه بأصوله وفروعه في عين الشمس والقمر؟) نحن بشر بلا عقدة .. حتى أمام القانون! كل اللغات لغاتنا. واللغة لمن يحسنها! فليتكلام كل واحد منا ومنكم.. من هنا وهناك .. باللغة التي يجيدها .. بالفرنسية فقط أو بالعربية أو بأية لغة أخرى،

فلا رقيب، ولا معاقب، ولا عقدة! أما الجمع بين الفرنسية والفصحى والعامية أو بين الفصحى والفرنسية والعامية... فهذا ما لم يعد في الامكان احتماله.. بالنسبة لي على الأقل. هذا الخلط يثير أعصابي وخاصة حين يمنحني احساسا وقد يكون مني أقوله صدمة لكم ، ياجماعة! - بأنني لست بين جمع من المفكرين والمنظرين، وانما انا بين مجموعة من الأميين. فالخلط بين اللغات أمية، ولمثل هذا الخلط مجالاته الخاصة مهما كان له نوعه وطبيعته وقواعده!

وجلست.. بل سكت.. لأني لم أقف للخطابة، وعندها سرت في القاعة غمغمة، ورأيت مجموعة من العيون تلتمع هنا وهناك، ولكنها لم تشتعل كأعواد الكبريت في صناعاتنا الوطنية وتآكلت لتنطفيء... فيما بين الضفتين!

1992/6/17

الشهـــرة .. فرنســـة!

وي وي، ووي وي، ووي وي، ثم آهٍ وآه! وي وآه في الحظ الذي لم يقبِّل جبين حياتي، والقبلة حب واحاطة ودندنة ورعاية و .. سمعة!، ولم يجعلني مفرنسًا، وإنما جعلني معربًا، والتعريب في سيادتنا الوطنية اهمال ونبذ ونفي و .. احتقار وزراية فوق ذلك! وفي كل هذا مأساة لا مثيل لها حتى في وطن وهمي! فالوطن الوهمي له أيضًا شخصيته الوطنية الوهمية في وعيٍ أفراده الاحياء! هذا الحظ أرادني على أن أكون شجرة لا تمنح ظلاً..لا تمنح أحداً ظلاً ولا فَيْئًا، وكأنّني بلا جذور، والجذر أصل الحياة .. وبلا أغصان، والغصن امتداد الحياة . ولا ورق ، والورق أجمل مظهر في حياة الطبيعة! وأرادني كذلك على أن أكون كوكبًا، لا يرغب فيه أحد رغم ما يصدر عنه من حين لأخر من أضواء باهرة والبهر له عادة انعكاسه.. كالحب في تصور الكوكب ـ وأنا الكوكب نفسه... أثناء سيره في فضاءاته الابداعية الزرقاء!

ذلك أن الكوكب كان يعتقد أن أضواءه تلك قادرة على أن تنير بعض ما يكتنف هذا الوطن من ليل ثقيل ثقيل وما أفظع ما في الليل الثقيل من ذ عر ورعب وهلع و نار! .. حلما عميقًا ويقظه مفاجئة! هذا ان كان ثمة يقظة! ففي هذا الليل الثقيل ـ يشعر أبناء هذا الوطن بالرهبة والوحدة و .. الضياع التام! وأبسط صور هذا الضياع التام. الغربة! والغربة في الوطن أشد أنواع الغربة تعاسة. تعاسة مريعه قد تنتهي بموت بئيس لا سلف له ولا خلف! وهل فيكم في يستطيع أن ينكر أن الموت قد يكون له في أجوائه ومحطاتة المتميزّة..المحددة زمانًا ومكاناً.. سلف وخلف؟ وكيف لا تكون هذه الغربة ـ وهي ابنة الليل الثقيل مريعة والحال أنها تجعل المواطن ينتمي ـ بدافع رغبته الاكيدة في مقاومة سلف الموت وخلفه ـ أن تكون له أم أربع واربعين، **لأنه**

لا يستطيع أن يعيش بطريقة أخرى تجسّمُ مدى حبه لوطن الضياع والعجمة و .. الغربة! وتبرز مدى ما لديه من وفاء وعطاء!

أرادني ذلك الحظ على أن أكون شجرة معربة، وكوكبا كاتبًا والريح ـ خريفا ـ تكتب عندنا بأوراق الشجر! وكم من شجرة عندنا حكموا عليها بان تكون عقمية! وقد لا يستغرب هذا في بلدٍ تزدهر فيه العداوة للثقافة، ويتالق فيه الجهل بكل ما في هذا الوطن من خير وجمال وبكل ما لهذا الوطن من مجد وعزة وشموخ! لقد نشرت شجرتي أكثر من ورقة، وأضاء كوكبي أكثر من إضاءة، وبين الورقة والاضاءة مشاعرو آمال وتطلعات واستشرافات كوكبية أجمل ما فيها أنها نشرت كتبا قمرية في نظري، والقمر لكل ليل ضياء! وحملت اسمي النير صحف يومية واسبوعية وتألقت به المجلات والدوريات داخلا وخارجا واكتسبت دراساتي أصداء وأصواتا، والصدى رجع فكر والصوت دفء وجدان، كانت رفيقة الرفق كله ومؤيدة التأييد كله.. زيادة على التقدير والاعتراف وان الانسان العادي ليصبح شيئا ما في الحدود الضيقة حين يجد من يعترف له بطيبته ولو كانت طيبة غفلة، وبصوته، ولو كانت صوتا منكرًا، وبحركته ولو كانت بهلوانية، فما بالك بمن كان هو نفسه شجرة وكوكبا بما لهما من أوراق وأضواء ولكن أوراقي ـ وي ووآسفاه! ـ ظلت جافة يابسة، واليبوسة إنتفاء الخضرة والبرعم والزهر، وأضوائي خافتة، وهل الخفوت شيء آخر غير ضعف الضواء ومرضه؟

ظلت كذلك بالنسبة الى من كنت أريد أن يكون لي منه تعاطف واعتراف وإقرار! نعم، بالنسبة إلى ذلك الذي استبد باسم الوطن في أيام الحرب التحريرية المجيدة.. حتى قال اخواننا في المشرق.. الآدب في الجزائر فرنسي اللغة وطني الاتجاه! فتمّ بذلك الاكتشاف الأعظم! واستبد به كذلك في أيام التبعية المستقلة .. والاستقلال كما عرفته الشعوب الآخرى.. سيادة بكل مكوناتها الكبرى والصغرى دونما تبعية تابعة، استبدّ باسمه وتركني الوك

شعارات فارغة.. لغة عربية، واشتراكية وطنية، وثورة زراعية وكان هو، دون معرفتي، على يقين ممّا يزرعه في الفكر والوجدان والعين و .. الجسد! - ومايرتبط بها من ثورة وثورة، فجعل بذلك من كل ثورة وي وي، وآه من ثورة ظاهرها أمس واليوم - وربما غدا وبعد غدا أيضا ! - وي وي ، وباطنها أمس واليوم - وربما غدا وبعد غدا أيضا - وي وي، وفي ذلك آهٍ وآه! - في ذلك ضياع وطن واختفاء هوية، واندثار قيم مثلى خالدة!

وكان علي لذلك أن أغادر الوطن في منحة مناسبة.. وكل منحة مناسبة مادامت لا تجبرك على إحضار.. شهادة! غادرت الوطن لأتعلم اللغة التي لم أستطيع أن أتعلمها - لما عرفته سنوات عمري من زَحْف! - في وطني رغم الامكانيات المشرقة المتاحة للصغير والكبير.. ولا سيما من الأجانب! سافرت لا تعلم الفرنسية في وطنها. ولكل لغة أصيلة وطنها الخاص بأرضها وسمائها وأزهارها ونجومها، وهل رأيتم - حتى في حياتكم السلبية - لغة تخلو من أرض وأزهار وسماء ونجوم؟ فعلت كل ذلك من أجل أن أقترب من المفرنــس، الذي يستولى - كما أشرت إلى ذلك آنفا - على أرضي وسمائي وأزهاري ونجــومي، ويحرمني من أفق الوطن وصفائه، وكأنه تابعي الخفي.. ينغص حياتي على خفائه.. وأنا أومن بالتابع!

تعلمت الفرنسية في بضع سنوات.. قد تكون ستّاً أو أكثر قليلا.. لهدف رئيسي جدا، وهو أن أقرأ أعمال هذا المفرنس.. وأقف على مضمونها وقيمتها الفنية، وأجعل من قراءتي له مشروع حوار بيني وبينه، وأمد بها جسرا، إلى سماء.. لغته، تلك اللغة التي لا تقترب ولن تقترب من جمال لغتي على.. لساني! كنت أشعر وكأن في ذاتي شخصا ما يوجهني نحوه.. كأن في أعماقي حركة انفعالية غريبة تدفعني اليها واليه.. تدفعني إلى أعماله وشخصه.. هو الآخر! وتذكرني فوق ذلك بقول شكسبير في هاملت: كن مخلصا لنفسك

ولا بد أن يعقب ذلك، كما يعقب الليل النهار، ما يمنعك من أن تكون ضداي شخص آخر! وكان هو هذا الشخص الآخر، وياله من شخص!

وبدأت رحلة اقترابي منه فعلاً، فقرأت أعماله قراءة متأنية واعية، والوعي مساءلة لكل أشكال الحياة، كلما تقدمت فيها ازددت اعجاباً به وبأدبه وأسلوبه ولغته. فكتبت عنه دراسات، نشرتها هنا وهناك.. وأنا في شبه نشوة بما أكتبه عن عبقريته وعن فنه! فقدا كان ـ ولا يزال ـ يمثل بالنسبة إلي العبقرية الوطنية، والعزة القومية.. أقول هذا وفي نفسي هاجس يهتف بي.. لاتنس الشخصية المتفردة، فبدونها تصبح الصفتان المذكورتان ـ في عهد التعددية خاصة! ـ كلتاهما وهما أو أشبه بالوهم!

ودافعت عن جزائرية الآدب المفرنس بحرارة.. لاهبة! وهذا بغض النظر عمن يكتبه وكيف يكتبه! فاللغة ليست عندي انتماء ولا هي هوّية كما أن الأدب في مذهبي ـ وكل رأي مذهب! ـ انتماء فكري لا لغوي والانتماء الفكري يساوي الانتماء الجنسي أو الوطني! ولا ينفي عن الادب جنسيه.. إلا من لم يشب عن الطوق! وكذلك من لم يعرف حيادية اللغة! وإن تعلقت هنا بالآخر! فهذا لويس أراغون يقول عن محمد ديب مثلاً، وهو يقدم ديوانه الشعري «الظل الحارس»: «هذا رجل من بلد لا علاقة له بأشجارنا فذتي، ولا بأنها أرصفتي، ولا بأحجار كنائسنا، ولكنه يتكلم لغة فيون وبيغي». «ويختم مقدمته بهذا الخطاب الرقيق لصاحب الديوان: «يامحمد، يا لهذه الثقة بيني وبينك؟ وهل لدينا ما يفرق بيننا؟ فيبتسم ويجيبني بأشد قصائده قصرا: المستقبل!» «أليس في هذا اعتراف بجزائرية الأشعار التي يقدمها أراغون؟ الأمر من الوضوح بحيث لا يحتاج الكوكب الدري إلى تأكيده!

وفرح الآخر بذلك، لأني خدمته.. وسعت جمهور قرآئه، فأصبح له قراء بالعربية أيضا، وكنت أتمنى أن ينوه بي ولو بكلمة واحدة في اللغة التي كتبت بها.. ويحاول أن يكتب عما أكتبه أنا بلغتي العربية، وأن يقول كلمة حق:

فيها اعتراف منه بوجودي إلى جانبه في هذا الوطن أعبر عما يعبر عنه وأعالج مشكلات وقضايا. عالجها هو أيضا، فكانت أكثر من نقطة لقاء بيننا.. غير أنه لم يحتف بي اطلاقا، ولم يعترف بي قطعا، وحافظ على ما بيني وبينه. هو الآخر.. من بعد في المسافة وفي الفكر على حد سواء. ولم ألبث أن اكتشف أن كل ما يظهره لي عند اللقاء العابر في الرسميات والعاديات! - كل ما يظهره لي ماهو إلا محض نفاق.. منافق! وبذلك جعلني أعيش بعد فترة قصيرة تراكما من التوتر والثورة.. وأصبحت عقدتي في نفسها عقدة، وياويل من تتعقد عقدته!

وقررت حينئذ أن أتخلص من عقدتي بأي ثمن.. والثمن ثمن مهما رخص! وفي أثناء بحثي عن الحل قرأت - وأنا أبحث عن الحلول لمشكلاتي في القراءة! - كلمة للشاعر والناقد الانجليزي الكساندر بوب يقول فيها زعلى الشعراء الذين يبحثون عن الزحام الخالد أن يكتبوا باللاتينية أو الاغريقية، فنحن نكتب في الرمل!س نعم، هذه هي الكلمة.. هذه هي الحقيقة التي هدتني إلى الحل.. لعقدتي ! الكتابة بالعربية كتابة في.. الرمل! ولذلك قررت أن أكتب.. دون تردد بعد ومع سبق الآصرار ان جاز ان أستعير لغة القانون في هذا المجال على الأقل.. باللغة الفرنسية! والكتابة بالفرنسية منافسة له.. للآخر، الذي رفضت فرنسته.. تغريبته أن تضعني في حسابها! سأرغمه على أن يخصص لي حيزا في انشغالاته وهمومه.. ذلك أنني سأكتب بخيال شرقي وحس روحي لم يألفه في تعريبته الأبدية! وأقيم بذلك جسرا للمساواة بيني وبينه مادام قد رفض الجسر الآخر، على مستوى اللغة على الأقل.. والأقل هنا يعني النسبة الضئيلة في حيز هذه التغريبة! فورائي تراث عربي قديم وحديث وراءه تراث فرنسي قديم وحديث - ! والأصالة أصل! - قرار الكتابة بالفرنسية فيما يخصني بصفة نهائية حقيقة. والحقيقة الآن.. فرنسية!

أجل أكتب بالفرنسية.. لأن الكتابة بهذه اللغة قد تمنحني ـ على ما قد يكون في ذلك من انفصام وعقدة! ـ جائزة ما، جائزة البيركامي، الذي اختار أمه صراحة وفضلها على الجزائر.. وكان يحمل عداءه لثورتنا التحريرية قناعة في فكره قبل أن يحمله عاطفة في قلبه وكلمة في فمه! آخذ هذه الجائزة مثلاً، ولكن أخذي لها، إن تم ذلك، لا يمنع من أن آخذ جائزة أخرى من نوع آخر.. مثلا أيضاً.. جائزة نور الدين عبة، التي تمنح ـ كما جاء في الحديث عنها! ـ لكل من يقدم بلاده بصفته انسانا يعيش فيها.. بلا لغة ولا وطن! فهذا مفهوم الكتابة بلغة الآخر!

1990/1/11

القـراءة .. عيـون!

عندما دخلت الطائرة، وقع نظري عليها، والظاهر أنها كانت من ذلك النوع من الناس الذي يحس من يسلط عينيه عليه قبل أن ينظر اليه، فقد رفعت رأسها بسرعة، وغرزت عينيها في وجهي، فبدت عليها الدهشة، وقد اندهشت أنا الآخر، ولعل هذه الدهشة، التي تبادلناها.. كالنظرة!، كانت ذات خصوصية معينة عند كل منا. هذا ممكن حتى بالنسبة إليها طبعا. أما أنا فقد آندهشت لجمالها.. جمال الوجه النير قبل كل شيء وما يحيط به من أشعة القرطين الذهبين الطويلين، وأنوار ثوبها البنفسجي، وبريق شفتيها الأرجواني ونثير شعرها فوق صدرها وكتفيها.. شعرها الفاتح!

وكان أول ما خطر بذهني عندئذ أنها فتاة تستحق ـ دون مبالغة ـ أن يقف المرء نفسه عليها.. ولو كان ذلك لفترة معينة، ولم لا تكون فترة الرحلة نفسها إن عزت الفترات الأخرى، على أقل تقدير؟

أضف إلى ذلك أنني شعرت أن هناك شيئا يجمع بيننا.. صدقه قلبي دون أن أعرف حقيقته وقد تعودت في واقع الأمر على مثل هذه المشاعر المسبقة، التي كثيرا مايدهشني توافقها بعد بداية النظرة أو الفكرة الكاشفة مباشرة.. أو في نهاية المطاف، فالدهشة واقعة على أية حال من الاحوال .. كالنسر الواقع، وأكون أنا.. النسر الطائر! فليس من المستبعد أن تطير في دهشة أخرى!

كان هذا شعوري لأول وهلة، حتى أنني ـ لتعلق نظري بها ـ انشغلت عن المضيفة .. مضيفة الدرجة الأولى طبعا، التي استقبلتني وأشارت لي إلى الكراسي لاختار منها.. الكرسي الذي أريده.

فاعتذرت لها بعد برهة قصيرة وجلست في الصف الذي جلست فيه دهشتي البنفسجية! وكانت قد سبقتني إلى الدرجة الأولى . وكان ذلك أمر طبيعيا، فقد انتظرتني الطائرة، وما كانت لتنتظرها هي .. لاختلاف المكانة والمركز والوظيف!

جلست على مقربة منها، وتطامنت في جلستي، يفصلني عنها كرسيان، كان ذهني يحذف أحدهما ويجلسني قربها.. على حوافي.. البنفسج!

وأخذت أنظر اليها حينا بعد حين، وحين التقت نظراتنا للمرة الثانية.. فكرت على الفور أنني سأنتقل اليوم من دهشة إلى دهشة! فقد كان في نظرتها.. ثم نظراتها مايدل على التحدي السافر، وتساءلت.. أبهذه السرعة تزايلها الدهشة؟ أهكذا يحُلُّ محلها تحدٍ يكاد يكون .. احتقاراً؟ هل يرجع ذلك ياترى إلى أنها سجلت عليَّ موقفاً من المواقف لم ترض عنه.. أثناء اتصال مباشر أو من خلال مشاهدتها لي على الشاشة الصغيرة، فكم من مرة مرَّت صورتي على الشاشة.. وكم كنت أنا شاشة؟!

لابد أن يكون لهذه النظرة المتعالية سبب من الأسباب.. لابد أن تكون لها معرفة بي على نحو من الانحاء لابد من ذلك. فمن أين لي أن أذكر كل الوجوه، التي تمر بي في وظيفتي السامية؟ مثل هذا الوجه لم يمر بالذاكرة، و هو مع ذلك.. ذاكرة!

وأقلعت بنا الطائرة أخيرا، فألقت علي، وهي تسكن خصلا من شعرها الفاتح خلف أذنيها، نظرة غريبة.. خيل إلى انها تهددني، خاصة عندما رفعت حاجبها الأيمن. أتراها تريد أن تفضح نظراتي و .. دهشتي؟ وأعترف أنني لم أرتح لنظرتها المهددة هذه. لذلك تناولت من أمامي احدى المجلات ورحت أتصفح صورها، ولكني كنت أراقبها بطرف عيني بشكل خفي وبعد حين نسيتها ونسيت الصور وسرح فكري فيما يمكن أن ينتظرني في هذه السفرة الخاصة، التي أقوم بها وحدى بعيدا عن رسمياتي ووظيفتي السامية، وإذا بي أشعر بدوري بنظرتها تلسعني كما لسعتها نظرتي في اللحظة الأولي. أتراها تدعوني إلى شيء ما؟

وطلبت مشروبا منعشا، فطلبت مثله، وكأنها تريد أن تنتظم .. أن تدخل معي في مباراة جادة، على أن هذه المباراة لم تبدأ في الحين. فقبل أن تحضر المضيفة المشروب، قدمت لنا أطباق الطعام المتنوع الشهي.. الذي تعلق به الانظار من بعيد، واكتفيت بالنظرة الأولى، ثم رحت أسارقها النظر المشتهي! وأحضر المشروب، ولما شربت أنا، شربت هي الأخرى بعد أن رفعت الكأس دون أن تنظر إلى وتلبست بها عيناي، فرأيتها تمسك الشوكة والموسى بأناقة بالغة.. هل هي تريد أن تعلمني كيف آكل أم أنها تفعل ذلك استهانة بي؟ وحين التفت إلى مصادفة، لاحظت أنها تزم شفيتها وتحرك فمها، وهي تأكل طعامها، على نحو يشبه المضمضة! واستمر الأمر هكذا فما طلبت حاجة ما إلا طلبت مثلها هي أيضا.. واشترت ما اشتريته أنا كذلك.. ومنه العطر والدخان والمشروب! وكم من مرة قلت في نفسي .. يالها من مواطنة غير عادية، - تتحداني بالنظرة والدهشة والشرية والشربة و.. لكن لماذا السخرية؟ فما أنا بمتحدٍ لها في ذلك! ورغم عشقي لجهتها أصبحت نظراتها تقلقني إلى حد ما.

السخرية لا تليق بالجمال، فكيف يسخر الجمال.. بالمنصب؟ إن سلوكها لَيَدُلُّ يقينا على أنها تعرفني وتعرف منصبي السامي، وهل كان البنفسج يسخر مني لو لم تكن الحال هي هذه؟ ربّما يجيب عن هذا السؤال دهشة ما مقبلة. والغريب أنها كانت تلتفت نحوي في بعض الأحيان، وتنظر إلى، وهي توسع عينيها، كأني بها تود اكتشاف شيء ما في مظهري أو فيما.. أخفيه! وبعد ذلك تغمض عينيها على نحو خفيف، فكنت أرى رموشها ترتعش كما لو أنها تؤدي رقصة حالمة أو حلما راقصا! وكانت هذه الرقصة أو كان هذا الحلم يدفع حاجبيها إلى أعلى بالتناوب، الأيمن مرة والأيسر مرة أخرى، وقد يتوقف الأيمن في علوه ثواني معدودة، ثم يعود إلى نوبته! وقد أعياني أن أجد تفسيرا لذلك أهي تنظر إلي من تحت رموشها؟ أتسخر مني.. حتى الرموش؟ أتقول لي.. ابتعد عن خفايا البنفسج، وأعماق الأرجوان، وسواحل الذهب!

ومع ذلك فما إن أنهض لسبب ما، وعيني عليها قَسرًا!، حتى تفتح عينيها وتنثر رموشها في نظرة متسعة كأنما تمسح بها ظلي.. طالبا توسيع الحلبة.. رقصة أو حلمًا كي يشمله! وحين عدت إلى مكاني، قامت هي الأخرى، دون أن.. تتخلى عن نظرتها الساخرة إلى.. نظرتها العادية. أجل، لقد أصبحت نظرتها ساخرة عابثة! وانتابني الشعور بعدم الارتياح لنظرتها مرة أخرى. ورحت أتساءل من جديد.. في نفسي الناظرة المنتظرة.. أتسخر مني حقا أم أنها تسخر من شخص آخر تجدهُ في شكلي وهيأتي؟ أتراني بعثت بها حبا قديمًا، أخذ يعبث بداخلها، فعنّ لها أن تعبث بخارجها وبداخلي؟ أواه، لقد مسحتني بنظرتها وهي عائده إلى مكانها مسحا رهيبًا!

وعندئذ طرأت على ذهني فكرة، لابد أن أسخر منها كما سخرت مني، سأريها أنها لا تستطيع أن تتحداني هكذا دائما وتفعل كل ما أفعل، ذلك أن لي سلاحا خفيا سأقهرها به، وبدأت أتعوّد مرغمًا على النظر إلى البنفسج بسخرية. وظل هذا شأني معها، أنظر اليها وتنظر إلي نظرات كاشفة من الداخل والخارج، إلى أن وصلنا.. باريس والشمس تزرعها ذهبا! فاختلج قلبي فرحًا، سأفعل، إذن مالا تستطيع أن تقلدني في فعله. فالسخرية لها أيضا أسلحة متنوعة.. والوان متعددة قد يكون منها البنفسج!

وافتقدتها في زحمة النزول من الطائرة، وفي أثناء السَّعي إلى شبابيك الخروج، وشعرت بخيبة أمل كبيرة، ومع ذلك تقدمت من الشباك، الذي يخرج منه الفرنسيون من المطار وسلاحي بيدي، دون أن أستطيع السخرية منها وأدهشها على طريقتي الخاصة. والتفت، بعد أن سلمت جواز سفري، وإذا بي أراها ورائي، يفصلني عنها رجلان، لم أستطيع أن أحذف أيا منها، رفعت جواز سفرها في يدها، وهي تبتسم ابتسامة ساخرة منتصرة.. فقد قرأت في عيني أكثر مِمَّا كان في وسعي أن أقرأه أنا في عيون البنفسج!

1 / 1 / 1990

الملتقى .. عجمة!

«نموذج من عربيتنا الكريمة على لسان بعض مسؤولينا»

نحن لا نعرف ـ والله ـ كيف عرفنا شخصية كبيرة عينا في القمة الصف. بتعينينا نفرح ما نكاد، طلبوا منا عقد تعريب المؤتمر. فا تمرنا في الصنوبر القصري. وكان علينا جلسة الافتتاح إدارة الرئاسة المؤتمر. والمفاجأة الشيء كان عندما، وفي تحديد الأشياء الوزارة و الوزارةالحق الأسبقية تعتبر بعين الاعتبار وسائل الوزارة الخاصة. وللوزارة تقرير مؤتمر، والتقرير نعالج نحن المجتمع، التعليم، الهدف عندنا في القمة القاعدة.. والقاعدة القمة.

هذا إلى إضافة الثوابت والمتحاولات، والأساس متحاولات أساسية في ميدان التحايلات. لابد يكون من مثل هذا.. الميادين المؤسساتية، منها المواصل، والمنهجية، والسلوكات والبرامج، والاعادة النظر من ملتقانا هذه!

هذه توجيهاتي الاخوة المتأمرين النظارة! وآضيف الاعادة النظر تكوين اجتماعية، تكوين مهنية، تكوين انسانية، انسانية اجتماعية، تكوين نفسية، إنسانية تجربة! والتجربة الكل.. الكل التجربة تكوين اجتماعية، وكل اجتماعية تكوين هذا التكون حقيقي علينا نعرفه ونجعله ثوابت ميدانية في كل الميادين، وهي كثيرة الميادين، هي علمية، وأدبية جنسية وفي الجامعة جغرافية، اعلامية، فضائية أرضية وتحت أرضية. وكل هذا زيادة على بحرية تحت بحرية و الكل حيوانية محلية نباتية، طائرية جوية، وطائرية أرضية، وغير ذلك من فلسفة النواحي! مرة أخرى نضيف نحن مع تعلم، فتعلم ابداع قيام ثقافية، إبداع مراجعات أصالية، ونحن فوق هذا مع أمالنا، كل آمالنا مرتكز.. اصلاح المؤسسة! فالعلوم اجتماعية وانسانية.. عندها دور أساسي في حل

أزمة.. الحمد لله! سوف نتكم بهذه اللوغة، ولا بد من توجيه هذا اللغوة التوجيه الصحيح. ولكن اللوغة توجيه الرسالة أكثر فأكثر.. إلى اللغة والأكثر يعني الرسالة هدفنا ولكن ـ مع أسف ـ المشاكل أكثر هدفا لنا نحن مشاكل الهدف، والهدف مشاكل الحل، وكل شكل لا وبد من حل على تلك الصفة أو هذه، والصفة الموضوع منطقها، جوهرها! ذلك أننا نحن علينا من هذا المشكلة بسرعة نخرج والا تلك مشكلتنا الأخرى تقع، تعريبية الظروف متعايشة معنا، والمتعايشة تجربة حقة كل واحد منا يتعايشها من لحظة كلها. وهذه هي المشكلة الاشكالية. فعندنا، الاخوة المآمرين، اشكالية تجربة!

بالحق، ونعام! نحن هذه الايام الدراسية... عددنا الوقت غير كاف.. ناقص التحضير عندنا في كل أحوالها.. أو أواسطها وأواخرها وأوائلها. وكلها أوليّات وضروري التحضير أوائل وأواخر واواسط!

دائما ضيق الوقت في اعداد المتأمرات تعريبا وغير تعريب! والوقت على كل حال لا يسمح به هذا المقدمة لتعريب المؤتمرنا هذا ولكن الواجب على المطمئن بهذا الافتتاج التأكيد.. لماذا؟ المجالس العملية مهَّرت عن سابع الجد وأعدت التقارير بيداغوجية.

تسمعونها من الضروري، وهي بيداغوجية، لانها تبين لنا أين وصلت مجالسنا العلمية في مخطوطاتها اجتماعية واقتصادية، وكذلك مخططاتها اعلامية ونفسية.. وتعريبية ذلك مانسمعه في التقريرات هذه!

... نشكر سارح ممثل الفلسفة قدم لنا تقريرا وفيا الفلسفة مهمة في المجتمع. الفلسفة بناء مجتمع على أسوس قوية المهم يلزم الانفتاح على الفكر هام. ونحن نعرف شكسبير قال: الفلسفة حليب المسكنة الحلو. ودانتي قال: الفلسفة معاشرة مع الحكمة لطيفة. وآخر كذلك قال: فسفننا بعد السنة الثلاثين ايمان! لكن الايمان نحن وأين هو؟ قلت يلزم الانفتاح،

يلزم حرية التعبير، التعبير حرية، كل واحد فينا يقول رأيه بالتعبير الواحد الحر والتعبير الحر يولد الحرية اينما كانت. هذه هي عندنا الحرية التعبير، ونحن بالتعبير نسمح للكل بالحرية. والحياة في الحرية دور هام جدا. كل تعبير حُرٌ له دور المهم في شكل المجتمع، و المجتمع دوره انسان الحرية، والحرية تبنى انسان المجتمع، والمجتمع يبنى انسان الحرية، والنهاية كلها حرية. والتعبير عنها واجب وضروري، ضروري وواجب في مجتمع مثل هذا مجتمعنا حرية التعريب يحبها ويضحي من أجل تعريب الاستقلال! وتعريب الاستقلال مهم جدا في هذا القيام الوطنية ورفعها فوق الفضاء عاليا!

... اخواننا ! نعتذر عن الدقائق .. كان التأخير الصحافة كانت تنتظر لابود الوقوف معها و الحديث عن التعريب المؤتمر شيء ضروري مرة أخرى. والهدف تعريب الحرية في المنطلق اساس التعريب، والجوهر في نهاية البداية التعريب، وبداية النهاية التعريب. وهذا في الفروض الاجبارية ـ علينا كلنا، والكل علينا الاعتراف، والاعتراف الصحيح هو هذه الحقيقة بكل جوانبها. وكل جنابة تتطلب الاعتراف بالتعريب حقيقة اكثر فأكثر! كان المقصود على كل حال هذا الاعتذار بعد التأخير. وننطلق الآن في الجدول اليوم.. زميلنا السايل يقدم لنا تقريرا عن منظور تدخل في منهجية الاعادة النظر في الهيكلة الجامعية الغرض التقليل من التجهير الأدمغة العالمة إلى خارج البلاد. ادمغتنا كلها تجاهر ألى أروبا، وتهاجر إلى أمريكا. الأساف الغرب كله أكثر فأكثر يمص طلبتنا من تعلم بالعملة الصعبة في التخصيص في العلوم جميعا كما هي العلوم طبيعية، العلوم كيميائية، العلوم فيزيا نووية والغير من ذلك من العلوم أرضية وفضائية!

... بعد تداخل السايل في تقرير العلوم اجتماعية، استمعنا ـ على ما شاهدتم ـ إلى شكّال المقرر اللغة والأدب العربي، تدم لنا ـ الشكر له ـ و البرنامج المفصل لتعبير اللغة العربية أو تعريبها في العلوم وفي غيرها وفي

تدريس أخرى منظور وطرق جديدة حتى نعوّد لغتنا التكنولوجيا وفي ميادين علوم لاوبد من التعاون معها بينها وبين العربية المفصّحة والمراد من ذلك حرص على تطوير العلوم حديثة بلغوة أو بلغة الابناء والآباء والاجداد. فنعود ـ ان شاء الله ـ كما كنا قبل في العلمية الحضارية والأنفتاح العلمي بشكل أكثر فأكثر ويكون عند المستقبل الدور لنا في تجديد العالم العلمي والعلم العالمي . فالعلم بلا حدود ولا سدود ولا قيود. هو لا يتقدم إلا اذا كان التعاون بينك وبيني وبين الآخر. الآخر عنده أيضا ما يقوله. في العلم لا وبد من الاخد والعطاء ومن المد والرد. وهذا العلم قانون عند كل الأمم المتقدمة راسخ، مستقبل هذا .. العلم نحن نحتاجه بكل قوانا العاطفية والفكرية وكذلك القلبية. فالعلوم اليوم قوة، قوة تخصصت فيها دول معينة، من الضروري أن نلحقها ومثلها نصير على أكمل وجه وأكثر فأكثر.

... بعد كل ما سمعناه لحظات ولحظات قبل، الاخوه الزملاء، نعم، كل ما سمعناه يلزمنا حوله التداخل والتبادل الفكري والحوار العلمي، في الحقيقة الحوار العلمي، هذا حقيقة معروفة، يفتح الطريق للسلم، للتعاطف والتفاهم، كذلك للسير اليد في اليد نحو آفاق الدنيا العالمة الحوار يودي إلى الضمير، يجعل القلب يرى القلب، والعين تحس بالعين، وكذا الاذن ما يخرج من الحوار تأكله من مثل هذا يكون التقارب والمساعدة في العلوم انسانية، وفي العلوم اجتماعية وفي العلوم فلسفية وفي العلوم تربوية وفي باقي العلوم علمية الأخرى، والأخرى، والآخرى!

من مثل هذا الطريق أيضا نقدر ننشىء مانسميه أو نقدر نسميه المجتمع العلمي، أو المجتمع الحديث، أو المجتمع المتطور في الحاضر الراهن المجتمع تطور، وليس يوجد التطور آخر الا التطور العلمي. وكل مجتمع حديث نسميه تطوري الاتجاه، والتطورية هي علوم علمية، اجتماعية، انسانية بانسجام هذا الأشياء الثلاثة مترابطة ومربوطة، بعضها مع بعض، الانسان يوجد

العلم، والعلم يوجد المجتمع، والمجتمع يوجد الانسان، والرابطة بينها هي اللغة. العلم لغة، الانسان لغة، والمجتمع لغة وكل ذلك أشكال وطنية ذاتية هكذا التطور، هكذا التقدم ، فلا التطور ولا التقدم يمكن يكون في جيب الآخر. فالآخر له علمه وانسانه ومجتمعه.. والعلاقة معه الاستفادة العلمية! فهذه هي التطورية الحقيقية اسمحولي الحماس كبير في حديثنا وبهذا المعنى نختم هذا الفترة.. وهي صباحية! وبعد الغداء نعود نسمع التقريرات أكثر فأكثر!

29 / 10 / 92.

السفـــارة .. سعـــادة!

أنصحك، ياخي، اذا أنت أردت، وما من ارادة الا تنبني عادة على مؤهل من المؤهلات، فهذا ما جرت به الأعراف على الأقل، أما في بلد لا عرف فيه ـ ودعك من التقليد.. فالتقاليد عندنا في معظمها.. خارجية! ـ فالمهم الأكيد.. الوساطة! ـ إذا أردت أن تكون سعيدا، وللسعادة في هذا المجال، الذي سأحدثك عنه، أعمار، لا تختلف فيما بينها الا من حيث المحصول وحده: خمس سنوات، أو عشر سنوات أو عشرين سنة، أو أطول من ذلك كعمر الوساطة! اذا أنت أردت أن تكون سعيدا.. فكن سفيرا! واذا لم تكن تعرف معنى السعادة، فإن السفارة ستعلمك أياها بكثير من الوجد! السفارة خلال فترة السعادة أو السفارة ـ فبين الكلمتين شيء من الترادف في أيامنا ـ هذه، يمكنك أن تجمع ما يشاء وكيف تشاء ـ فضلا عن الحياة الحية الرغدة ـ من أشياء وطرف وتحف ولعب ودمًى! وقمة ذلك كله جمع العملة الصعبة، فالعملة الصعبة، ياخي... ودعني أخاطبك بخي، فأنا أحب هذا الخطاب، ولو أنك سألتني عن سبب أو اسباب هذا الحب، لما استطعت إجابتك عن ذلك، فأنت خي وكفى.. وقد يكون في ذلك نمط من الانسانية الوطنية! ـ العملة الصعبة تمكنك من ألف ليلة وليلة.. ظهرا وبطنا، داخليا وخارجيا! ولا أحدثك عما يحيط بالأطراف الأخرى! وقمة العملة الصعبة أيضا.. تجارة ذهبية!

ولا يهمك أصلا أين تكون سفارتك، التي تمثل بها من لا تمثله! فنحن لم نصل بعد إلى معرفة قيمة أين ومتى ولا يعرف قيمةالزمان إلا من تسابق معه من أجل الوطن، ولا يعرف قيمة المكان إلا من عرف قيمة.. الوطن! وهاتان القيمتان هما جوهر الوجود وأساس التقدم والعصرية، فكما يجب على

الانسان.. على المواطن أن يعرف أين يقيم معملاً للسكر أو معملا للورق، يتوفر في كل مكان يحدد لهما.. قصب السكر والماء أو الحلفاء والماء، كذلك يجب عليه أن يُعرف أين يضع سفيرا، يمثل تاريخ الوطن، وقيم الوطن، وأمجاد الوطن، واشعاعات الوطن، لا سياسة الوطن وحدها، فالمواقف السياسية تعبر عنها الجرائد في معظم الأحيان.. دونا حاجة إلى سفارات، ففي الوطن سفارات أجنبية، حريصة على أن تنقل إلى بلدانها كل ما يجد في الموقف السياسي!

لست أشك في أنك تعرف هذا كله، وقد حدثتك عنه.. مواصلة للنصيحة، والمكاسب سعي ووسائط ونصائح و.. سعادة!، ولكن الذي لا تعرفه هو كيف أصبحت أنا سفيراً! ولن أترلك تخمن كثيرا فقد وصلت إلى السفارة.. نصيحةً! وعندما أبديت شيئا من التحرج ، فالمسؤلية كبيرة.. أكبر مني بكثير، قال لي ناصحي وهو يحاورني:

ـ تعلم مني ما يلي: هذه كلمات، سمعتها بدوري مصادفة.. قالها مفكر أو قالتها مفكرة، لست أذكر ذلك بالضبط.. وهو أمر غير مهم على أية حال! قال أو قالت: إن كل ما نسميه بالمعرفة الدبلوماسية في الحياة الخاصة والعامة يكمن في أننا ننجح بالخصائص التي لا نملكها أكثر مما ننجح بالخصائص، التي نملكها.. فغياب الحماس، وغياب الرأي، وغياب الحساسية، يضاف إلى هذا الكنز السلبي شيء من الروح ـ كل هذا يوفر لنا حياة اجتماعية بالمعنى الحقيقي للكلمة، أي يوفر لنا الثروة والمركز! فليكن هذا شعارك! فاتحذت هذا القول المأثور شعاراً فعلاً وأثمر السعي والنصيحة والوساطة، فعينت أول ماعينت في عاصمة افريقية... عينت سفيرا طبعا! واخترت لهذه العاصمة اسمًا خاصا بي فدعوتها المدمدمة، لأني كنت أسمع فيها أصواتا تشبه الدمدمة! وكانت مثل المنفى، فكان عملى فيها شبه معدوم أيضا، فكنت أغتنم كل سانحة لأذهب لمشاهدة الحيوانات الغابية، وكم كنت أسخر من

الأسد على وجه الخصوص! كانت السخرية منه هواي المفضل، فكنت أقول له في كل مرة:

ـ يا لك من خائب! دار الدهر بك ولم تصبح شيئا، ودار بي، وهأنذا أشاهدك من السيارة المسيجة.. المغلقة، وهذا من فضل.. السفارة! لقد سافرت اليك بفكري وعيني ورجلي في سيارة، فأصبحت أراك من قريب.. ينعم كل منا بالنظر إلى الآخر.. السخرية مني والتحدي منك! إني لأعرف أنك تود ـ وأنت تراني بعين خيالك في المأسدة ـ أن تصرخ في وجهي.. ما تفعله ليس من وظيفة.. السفارة. أنت سفير وما أنت بسائح! وظيفة السفارة أن تكون في خدمة .. السياسية بقدر ما تكون في خدمة الثقافة والتجارة، خاصة وأن الموقف السياسي لم يعد له ذلك المعنى القديم.. فقد يكون اتفاقا! لذلك أصبح يتلوا التجارة والثقافة في العصر الحديث! هذا ما كان يجب عليك أن تفعله .. السفارة تمثيلية أسود لا مشاهدة أسود!

كل هذا الذي تقوله، ياخي، ودعنا نعد إلى الأخوة ـ كل هذا صحيح. ولكننا نحن ـ أنا وأمثالي ـ مسميات راحة وسياحة، وربما أيضا كياسة وسياسة، لا مسميات ثقافة وصحافة وسخا.. كدت أقول سخافة.. وهأنا قد قلتها فعلاً أو قولا وفعلاً! فأنا أعتقد أنه من العبث أن ينتظر من الأمّي، الأمي في ثقافة بلاده وحضارتها وتاريخها، أن يكون ممثلا ثقافيا أو سفيرا ثقافيا! فهو لا يمثل في معظم الأحيان الا الثقافة الفرنسية، واللغة الفرنسية.. ولا علاقة له في معظم الأحيان كذلك لا بالثقافة العربية، ولا باللغة العربية! ومن لا علاقة له بالعربية قلما تكون له علاقة بتاريخ الوطن الحضاري، يستوى في ذلك القديم والحديث!

لذلك يكفيك أن تسعى لتكون سفيراً، والسفارة سم قاتل لكل أنواع.. الحرمان! فقد تعين في أي بلد من بلدان العالم دون ان يطلب منك شيء آخر غير معرفة اللغة الفرنسية الوظيفية.. حتى في البلدان العربية، وقد يسعفك

الحظ فتتعلم اللغة العربية ـ إلى حد ما .. مرغما إلى حد كبير! ـ في هذا البلد العربي أو ذاك. وتتعلم أيضا كيف تغني زواحنا كده.. وحنبقى كده!س أما في غيرها من البلدان الأخرى فما أنت بحاجة إليها اطلاقًا. الحاجة الى لغة الأم ليست ضرورة!

أجل هذا هو الواقع! وتصور أنك ـ بمرور الزمن، وتوالي الايام والشهور والسنوات ـ لا تشعر حتى بالخجل حين يخاطبك سفير أصيل بالعربية، والسفير الأصيل يتعلم في كل الظروف و الاحوال قدرا من لغة البلد الذي يمثل بلاده فيه، وغالبا ما يفعل ذلك قبل الالتحاق بمنصبه، وهذا حتى وان اضطرته الظروف ـ لسبب من الاسباب ـ إلى إخفاء معرفته بلغة البلد، كي يكون ذلك أفيد وأنفع له، ويكون هو أقد على نشر ثقافة بلاده، ومسارها الفكري، وخطها السياسي، لا سيما حين يلتقى بمن لهم الكلمة من رجال الفكر والسياسة السائسة! نعم لا تشعر بالخجل حتى حين يخاطبك سفير أصيل بلغتك القومية.. ولا تفهمه!

في سفارة من سفاراتي المتعددة.. وقعت لي حادثة.. أو قصة اذا شئت لم تخجلني ، ولذلك لا أخجل من أن أرويها لكم على الماشي! ملخص القصة انني كنت في حلفة استقبال واقفا مع إخواني العرب، الذين عاشوا في الجزائر.. بلدي، وتعلموا اللهجة الدارجة، فآقترب مني صيني.. وكأنه قد شعر بالانجذاب نحوي وكان قد قدم لي قبل يومين أو ثلاثة في حفلة استقبال أخرى، بسيل من الكلمات، ولما لاحظ أنني لم استجب لما قال ولم أعلق عليه، واكتشف فوق ذلك دهشتي، جمع يديه محييا ونخر، ثم انصرف عني دون أن يحفل كثيرا بمن كان معي.. ربما لأنه اضطرب حين لم أستجب له!

وسألني أحد الواقفين معي:

ـ كان عليك أن تعلق على ماقاله هذا الصيني سلبا أو إيجابا.. لقد كان لطيفا.

قلت بافتخار وضحك :

ـ وبم أعلق؟ اني لا أفهم الصينية!

فثار الواقف إلى جانبي وقال:

ـ شو العمى الزلمة كلمك بالعربي

قلت:

ـ ولكني لم أفهم عنه شيئًا . مافهمت والو!

فقال:

ـ قال لك.. أنا أحب لغتكم العربية. الغزل عند بعض شعرائكم يشبه الغزل عند بعض شعرائنا.. وخاصة شاعر نالاي تاي. بي عندما كنت سفيرا في بغداد، تعلمت هذا البيت الرائع:

ومن عجب أحنو على السهم غائرًا

ويسألني قلبي متى يرجع الرامي

وشكرك قبل أن ينصرف.. هذه هي الرقة، وهذا هو الحس المرهف، هذا هو الأدب! ولكنك لم تفهم كل هذا! فقال آخر:

ـ ماعليهش.. دا دا أصل جزائري!

وقال ثالث:

ـ حقا ما كو جارة ما كو فايدة! هَايْ هِيَ!

وقال رابع:

ـ خلينا توّه، آشنوّ عاد! يزي بربي! فك علينا!

وقال خامس:

ـ دابه هاي الكلمة ديالنا ألحبيب!

وضحكت معهم دون أن أفهم كل ما قالوه وقلت:

ـ أنا أفهم من يكلّمني بالفرنسية! هذا كل ما أفهمه!

ولا تتصور أنني خجلت! فالفرنسية كل طاقتي! وكأني - بك ، ياخي، تفكر مرة أخرى في السفارة.. السفارة المجردة، وترى أنها عديمة الفائدة بالنسبةالى الوطن ولا شك.. والسفارة المجردة هي التي تنعدم فيها معرفة لغة البلد، الذي أنت فيه سفير.. وأي سفير! فقد يحدث لك - وهنا - لا بد أن تكون لك خصوصية معينة - أن تعرف لغة من اللغات.. غير الفرنسية طبعا، ومع ذلك لا تتوقع - في سعيك - أن ترسل سفيرا الى البلد، الذي تعرف لغته.. فأنت لا ترسل إلا إلى بلدٍ لا تدندن فيه الا بفرنيستك .. فالفرنسية دندنة وظيفتك المهجّنة في أغلب الظروف والاحوال . وكونها كذلك يجعلك تحس أنك في غنى عن أية لغة أخرى.. فما من لغة إلا وهي دونها.. تحسن أنك أفضل من كل الأخرين.. لأنها في دمك.. المكتسب!

فاعمل بنصيحة إذن، ياخي، ووطن نفسك على عدم الخجل حتى حين تجدُ في واغادوغو من يقول بعد أن يعرفك.. محمد العيد شاعر كبير في بلاد النفط فأنت لا تعرفه! أقدم لك هذه النصيحة لتكون أيامك سعيدة كأيامي.. ولم لا تكون أسعد من أيامي، فالتطور السريع في المخترعات يفتح لك أبوابًا لمسرات جديدة، ومتع جديدة، ونعم جديدة لم أعرفها أنا! بعد أن أحلت على التقاعد ولم تبق لي سوى السعادة.. والغابة ومأسدة الأولاد في الحديقة.. الشاسعة!

92 / 10 / 09

الحـــزن .. صداقـــة!

إلى س. ب

«اليها وحدها.. تلك التي منحني بمناجاتها ـ دون أن تدري ـ عدسة فكانت هذه الصورة الملتقطة من عمق فيها .. لا قرار له!»

أ. د

التقينا لا كما يكون اللقاء عادة بين إنسانين تممع بينهما الصدف وإنما التقينا روحين حبيبين.. ولا تسألوني الآن عن طبيعة هذا الحب ولا أظن في عمق أعماقي –وهو عمق لا أعرف مداه– أن الصدف هي التي جمعتنا.. جعلتنا نلتقي هكذا بكل هذه الألفة.. هذه الحميمية العميقة. هذا اللقاء أراده قلبانا أو قلبي أنا على الأقل، فقلبي يشكل قلبين –أو يتسع لقلبين لا فرق– في فضائه ورحابته، فقد كان ثمة –وحاولوا أنتم أن تعبروا عما لا تستطيع التعبير عنه كلماتي– كان ثمة جذب وجداني عاصف يلين حين يربط النبضة بالنبضة، والخفقة بالخفقة، وما القلب إلا خفقة الخفقة!

في لقانا حدثني في البداية حديثا أدبيا شاعريا روحيا عذبا.. ومسكني أنا الأدب والشعر والروح والعذوبة! وقد حدثني عن كل ذلك بعذوبة طفل حزين حزين تنبعث صورته من ماضيه الحزين .. الحزين.. وما أقدر الحزن على تكرار نفسه في نبضة القلب الطفل! ورأيتنى أنا تلك الطفلة العذبة الحزينة.. حزنا عميقا! وعرفت عندها ـ والغريب أن معرفني في هذه المرة بالذات وهي أول مرة أيضا ـ كانت خاطفة فالمعرفة و الوعي والادراك.. كل ذلك خطف في خفة تظهر لنا ما في الحياة من فجوة و .. فجوة دَ وّارة! عرفت عندها أن الحزن سيكون لي وحدي.. حتى حين يكون كل شيء يدعوني إلى البهجة!

فليس في الحياة مايدعوني إلى البهجة.. بدونه ـ عرفت أن الحزن سيعيش معي، يسكنني، أرسل أيامي ولياليا في صفحاته وأوراقه.. وكم للحزن من صفحات وأوراق، أراها في وعي الحزين بيضاً كوجهه، وخضراً كقلبه، وزرقا كعينيه، آهٍ! لكم أحب أن يكون عمري الوحيد .. أزرق. فالجمال في عمقي زرقه، والبحر زرقة، والسماء زرقة .. وعمق كلماته كله زرقة.. الزرقة! وفي كل ذلك ـ آه وآه! ـ ضياعي على مشارف الزرقة! ما أفظع أن تمتلكي، يا أختاه ، زرقة لا تستطعين أن تتملكي فيها.. حتى مجرد خيط رهيف أزرق.. يخفف من تصدع القلب، وتهافت.. المهجة المهيضة! وهذا لأنك لا تملكين قلبا ولا وعيا ولا .. سنا في مستوى تلك الزرقة!

لست أدري كم جلست معه.. كل ما أعرفه أن زمني توقف في تلك اللحظة، التي جلست فيها إلى جانبه، فلم أشعر بحركته اطلاقا.. لقد نسيه قلبي ووعي وعيناي.. حتى يدي نسيت الساعة! وحين انتبهت إلى أن عليّ أن انصرف عنه ذهلت عيناي وهما عالقتان بعينه.. بهالته! ولكل زرقة هالة! وما أن سار يسبقني حتى تبعته كَدُمية أدارت مفتاحها حركة ما. وعندما سرت وحدي مبتعدة في فراغ .. رافقتني كلماته، نظراته الوديعة، لمسة كتفه العفوية لكتفي.. وكم كان لها من شرارة تحدت المعطف الحاجب.. ونار أصبعه السادرة فوق رعشة أصبعي ونحن نقرأ كلمات.. حشرجات تمثل العمق العميق من قلبي، كنت قريباً قد نشرتها في مجلة جديدة.. كجدة حزني الجديد. كنت أحس عند قراءته ـ نظراتي تعانق نظراته بشغف جنوني يتوثب فوق السطور.. سطور وجدى، وبين كلماتي .. كلمات بؤسي المقيم! كانت كل نظرة من نظراتي تبحث عن كلمة حب فيما كتبته أنا أوفيما قد تضيفه إليه قراءته هو، فقد كنت أتمنى وأنا أتابع حركة شفتيه من حين لأخر أن يخطيء ذهنيا في نطق كلمة من الكلمات .. تعني الحب، أو تدفعه إلى أن يتحدث عن الحب. أجل، كنت أتمنى أن تقرأ النظرة أختها

النظرة.. حتى حين تحس بها فقط ولا تراها.. فتكون بها كالروح في نوارنيتها وإشراقاتها الخفية.. وتنزل عليها كما ينزل المطر فوق جمرة. محترقة! ولكن ذلك كله لم يحدث.. وبقيت كلمة الحب أمنية! فقد مضى كما ذكرت.. أخذ معه فكري وقلبي وروحي ولم يترك لي - ولعل ذلك لم يكن عن قصد منه! - غير الحزن.. اختفي وكأنه قد ضاع مني إلى الآبد مرة لا تكون بعدها مرة، ولقاء لا يكون بعده لقاء سوى لقائي أنا معه.. مع الحزن!

وشعرت أن الطريق إلى البيت يبتلعني بلا نهاية.. وأنا أسير وأسير تائهة.. كطفلة ظلمها أبواها وظلمها زمانها فخرجت إلى الدنيا وعينها على الأفق البعيد. كنت أعيش في كلماته وفي كلماتي التي نطق بها فأصبحت صوته.. كلماته. وأستعيدها.. أنقلها إلى شفتي، وأضمهما عليها.. أقبلها الف ساعة وساعة وساعة.. على قدر ما يعيه زمني! وتنهال علي هذه الكلمات فاتخيلها أحيانا نسائم صغيرة صغيرة تحوم حولي تحف بي، فأمد اليها يدي كلتيهما.. وأجمعها فيضا.. فيضا صافيا كنظراته وأغطى به وجهى .. مغمضة عيني لا عيش ذهول حزني وسعادته.. وأشعر وكأنني أنام أنام تحضنني وأحضنها نسائم ناعمة، وأنفاس دافئة.. وكلمات عذبه مخملية.. ثم تحملني بعيدا بعيدا في هدأة الليل والبحر والصحو والمدى و .. الأبد! فأنسى أين أنا.. أنا التي تمزقت أعماقها حزنا وكآبة وفجيعة شعرية.. وموتًا بطيئا صامتا في.. صرخة زمني! ما أصعب، أختاهُ، أن نشعر بالحزن دون أمل من أول لقاء!

وعانيت من كل هذا في ليلى ونهاري وكان بحر العذاب يبتلع يوميا.. كل ما في قلبي من ورود وكل ما في عيني من دموع، وكنت التجيء، حين تقترب بي لحظاتي من اليأس، إلى قلمي وأبثه شقاء نفسي، وانكسار قلبي.. علني أفقده.. أفقد حزني، ولكن حزني كان يَحْلُوله في كل مرة أن يحيا ويعربد في كل قصيدة أكتبها أو مقطوعة نثرية أسجّلها أتراه يفعل ذلك لأني أدمن التفكير فيه وأحصى الكلمات التي سمعتها منه في أول لقاءلي معه؟ الأني

أبوح بذلك لنفسي وحدها؟ أم لأن قلبي أصبح يستعذب الحزن ومرارة الكلمة؟ آه من حزن يصبح لي قلبًا وفكرا.. أرضًا وسماءً!

بعد أسبوعين لم أره خلالهما في جامعة حزني.. خيل إلى أنني على أبواب الخمسين وأنا لمَّا اتجاوز العشرين من عمري.. خيل إلى أنني طفلة طفولته التي حدثني عنها خلال اللقاء بكلمات سريعة حزنية حزنا بالغا. كان زمن طفولته زمنا آخر، لكن الحزن واحد، والقلب واحد والروح واحدة.. شاعرة كانت أم غير شاعرة! كل يوم تقريبا كانت تحضنني جامعة حزني، فتبحث عنه عيناي في القاعات والممرات دُون جدوى فأجلس فوق مقعد حجري.. أبوح للشجر ما لم أعد أبوح به لقلمي خشية يَقْظة الحزن وعربدته. ترى أيعرف الشجر الحزن؟ أتنبض عروقه حبًّا هي الأخرى! وأسأل الشجر فعلا، أشاغل نفسي به، غير أنه لا يجيب. أتراني توقعت الاجابة منه حقا؟ ويقلقني صمته. .فأحاول أن أفر منه ومن نفسي كغزالة جريح!

وضاقت بي الكتابة لنفسي ومخاطبة الشجر.. بحثا عن كلمة حنان، ودفقة رقة، واستجابة ضائعة، فكتبت اليه رسالة، ذكرت له فيها أنني لا أتقن لعبة الحياة، وأنني كنت منذ صغرى أحِبُّ أن أقفز فوق حبلُ الموت خفيةً.. أملا في أن أتخلص من وجودي التلقائي هذا.. واخبرته أن حزني قد تجاوز حجم عمري بكثير كثير، وعلمني لغة الهذيان الشاعرة.. الخصبة. وبعد يومين من ذلك كتبت له كلمة.. كتبت له رسالة ثانية بُحْتُ له فيها بأني قد رأيته أخيرا في يوم مجيئه.. في يوم أحده بجامعة حزني .. فطأطأت رأسي وتركت الزمن يركض بي في عالم غربتي وضياعي وأنني بكيت بعد أن رأيته يضاحك هذه ويحي تلك في رفق ثم ينسحب بعيدا عني .. بكيت كما تبكي طفلة مراهقة! ولكني لم أرسل الرسالتين لأني لم أعرف في غربتي كيف أدعوه.. كيف أخاطبه هل أخاطب فيه صديق حزني.. حبيبي.. أبي أو أخاطب فيه ـ وضيعتاه ـ أستاذي!

1993 / 2 / 6

الإدارة.. رسالـــة!

عندما كنت نائب مدير لم تكن لي سلطة كبيرة.. سلطة الربط والحل كما جاء ـ حسبما سمعت ـ .. في إنجيل متى ! ومن هنا كنت ظلاً لمديري، انتظر بفروغ صبر اليوم الذي أصبح فيه .. سطلة! وكانت تطاردني مقولة هيرودوت، وهي ـ كما سمعت أيضًا! ـ لا تفيد السلطة شيئًا في أي مكان يتعلق الأمر فيه بالذكاء! كانت هذه المقولة تطاردني، لأني كنت أريد أن أثبت خطأها فقد كنت مقتنعًا بأن السلطة تستطيع أن تتحكم في الذكاء، الذي لا يقتصر على إسداء النصيحة وحدها، وانما يتجاوزها كذلك الى انجاز الفعل بالفعل لا بالقوة.. الذكاء، الذي يختاره صاحبُه الحكيم ليجعل منه قائده، وعندئذ تستطيع أنت أن تجعلِ من هذا الصاحب خادمًا، أو بعبارة أرقى، تستطيع أن تجعل منه مساعداً لك في مشاريعك المحددة لمستقبلك الجامعي!

وعند الوصول إلى هذا الحد تستطيع أن تهتف.. ما أصدق قول سليمان الحكيم ـ بناء على كنت قد سمعته من بعض الزملاء! ـ بمناسبة ما: الذكاء بئر الحياة لمن ملكهُ! والسلطة تتيح لك أن تمتلكه ولو كان لغيرك! فيصبح الغير أنت، وتصبح أنت الغير في عمل معيَّن، ينفرد هو بعمله، وتنفرد أنت ـ لك الله ـ بملكيته! أليس لممثل هذا الأمر روعته؟ الا يجعلك شيء كهذا تحس أنك خلقت للروعة بل تكون أنت نفسك.. في لحظة معينة.. الروعة ذاتها! فتهتف في جنتك : ما أروع.. الروعة! إذا كان مالي قد كتب لي رسالة الماجستير، فإني أريد أن تكتب لي سلطتي رسالة الدكتوراه!

لم تكن لي سلطة كبيرة كما ذكرت، ومع ذلك أردت أن أبرهن على خطأ المقولة المذكورة! فدعوت أحد المتعاونين إلى مكتبي على انفراد، أعرف فيه

كثيراً من الذكاء المذكور، وقمت لاستقباله حين حضر.. وفي شعوري أنني استقبل رجلاً من طراز سليمان الحكيم في رزانته، ورجاحة عقله، واتساع أفقه، وجدّيته، و.. حكمته! وكان قد خيلّ إلي وقتئذ أن جبينه البارز بشكل متناسق مع شعره ينم عن كل هذه الصفات المذكورة.. كما خيّل الي أنّ نظراته تجسّم مافي رأسه من ذكاء ومار في أعماقه من حِسّ! وغمرني فيض من الحب والاكبار له. وقدمت له فنجان قهوة.. وليس هناك من حيث المبدأ ما يمنع من شراء الذكاء بفنجان قهوة! ورحبت به أكثر من مرة.. وأنا ابتسم له.. وأعرِّض له ابتسامتي وألاطفه على نحو خاص من التلطف والرقة. وبعد حين فاتحته في الموضوع، وأجريتُ معه الحوار التالي:

ـ دعوتك لأني في حاجة اليك وبودّي أن يبقى هذا الأمر سراً بيننا!

ـ أنا تحت أمرك في أي وقت تشاء، والمسألة تبقى بيني وبينك كما ترغب، وهذه كلمة شرف مني!

ـ قد أثقل عليك بما سأطلبه منك فأنت لم تعرف بعد ما أريده منك خلال فترة معينة.. قد تكون قصيرة حتما وحينئذ ستكون تحت أمري فعلاً!

ـ كيف كان الأمر فاني تحت تصرفك ومرني بأية خدمة أو مساعدة وأنا أنفذ!

ـ أنت تعلم أنني مطالب بتقديم رسالة الدكتوراه في مدة محددة ـ وأقول محددة لأنني حددت هذه المدة بنفسي لنفسي! ولهذا أريد أن تساعدني فيها. فأنا أعلم أنك قادر على ذلك على العكس مني أنا .

ـ سأساعدك قدرم طاقتي وعلمي.. أساعدك بكل ما لدي من إمكانيات.. أعرفها أنا في نفسي!

ـ شيء جميل هذا الذي تقوله، يا أستاذ! كنت على يقين من أن حلّ مشكلتي في يدك. كنت أعرف أنك لن تبخل على بذلك ففي الوجه الأصيل يكمن العمل الأصيل! ومع ذلك لا أظن أنك عرفت طبيعة المساعدة التي أريدها منك. وضوح الطلب يسهّل انجاز المهمة!

ـ الست تريد مني المساعدة، التي يريدها الطالب من الأستاذ؟ أليست هي الاشراف والتوجيه؟

ـ حقا.. هي الاشراف والتوجيه، ولكنك نسيت شيئًا ثالثا أكثر أهمية بالنسبة إلي.

ـ أتراك تطلب مني مساعدة مادية أيضا؟

ـ كلا، كلا! لست أطلب منك هذا. أنا في غنًى عنه، والحمد له!

ـ مادام الأمر هكذا فإني اعترف لك.. أنني لم أفهم نوع المساعدة التي تريدها مني في هذه الحالة.

ـ أريد منك مساعدة كتابية.

ـ مساعدة كتابية؟ أعترف ثانية.. لازلت لم أفهم شيئا، قد أكون بطئ الفهم في مثل هذه الأمور! أتراك تريد مني أن أساعدك في كتابتها بخط يدي؟

ـ بعبارة صريحة.. أريد منك الاشراف والتوجيه والكتابة!

ـ أتريد كل هذا مجتمعًا في أنا، فيَّ أنا وحدي؟

ـ هانت قد بدأت تفهم، لم يخب ظني فيك وفي ذكائك، فهذا بالضبط ما أريده منك.

ـ بعبارة أوضح وأكثر صراحة زمن عبارتك.. أنت تريد مني أن أشرف علي نفسي وأوجه نفسي واكتب لك ـ رسالة دكتوراه بخط يدي.

ـ الكتابة بخط اليد ليست مهمة. فالمهم هو تحرير الرسالة.. والضرب عليَّ بالآلة المتوفرة!

ـ هكذا إذن.. الضربُ عليك بالآلة المتوفرة وعلي أنا أن أحرر الرسالة وأقدمها لك لتدافع عنها أمام لجنة المناقشة وتنال ماتريد!

ـ وماذا في ذلك؟ لقد أحضرتك الى جامعتنا لهذا السبب بالذات!

ـ انك لتسيء الظن بي، فأنا اعتبر نفسي انسانًا مستقيمًا لا يسمح لي ضميري بشيء من هذا النوع على الاطلاق، ان نفسي لتعاف مثل هذه المساعدة واني لأكاد

اعتبر طلبك هذا إهانة! انا مستعد لقديم أي نوع آخر من المساعدة. ولكني لست بذلك الاستاذ الذي تطلب منه أن يخرّج على يديه سارقًا.. يسرق مجهود غيره من أجل لقب من الالقاب ، مجهود العالم في مثل هذا النوع من العمل لا يكون إلا لنفسه ان كان يحترم نفسه.. وأنا احترم نفسي!

ـ ان رفضك هذا لن يكون في صالحك، أنسيت أنني نائب المدير؟

ـ كلا لم أنس ذلك، ولكن.. ثِق أن الأمر لا يهمني في شيء، فالحياة الجامعية لها عزتها عند كل باحث أصيل!

وبذلك نهض وانصرف دون أن يكمل قهوته ومن غير أن يعتذر عن رفضه ويظهرلي أسفه لهذا.. مع أن ذلك قد يكلّفه منصبه في جامعتنا . . الموقّرة! وبدأت أخيط مؤامراتي عليه.. خطتها بدايةً بيني وبين نفسي، ثم انتقلت من ذلك إلى عملية التنفيذ في حدود.. سلطتي! فأخذت أطلب من مساعدي أن يسجلوا عليه كل دقيقة يتأخرها عن موعد محاضرة من محاظراته حتى أخصمها من راتبه.. الا أنه استطاع أن يتحداني في هذا الأمر أيضا، فلم يكن يتأخر ثانية واحدة، بل كان يحضر قبل موعد المحاضرة بعشر دقائق قد تمتد في بعض الاحيان إلى نصف ساعة أو أكثر!

وهكذا لم يترك لي الفرصة لاشكوه إلى مديري، رغم ماقد يكون في هذه الشكوى من قلة الجدوى، فقد كان مديري معجبًا به اعجابًا كبيرًا لتمكنه من معارف متنوعة.. لغة وشريعة وأدبًا ونقداً وبلاغة وما يقرب من ذلك، وهذا اضافة إلى أنه كان هو نفسه يريد أن يشترك معه في تحقيق نص من النصوص القديمة، كان يراه ـ في تخصّصه العلمي ـ القمة في تناول القديم الجديد أبداً.. خارجًا عن وظيفته الادارية.. المؤقتة! اذن لم يكن لي أمل في الانتقام منه عن طريقه.. ولا في الاساءة إلى شخصه وعلمه وخلقه بمساعدته.

على أني سرعان ماعدت إلى رغبتي في تحطيم المقولة المذكورة.. بمجرد أن بادرت ظروف أخرى إلى نجدتي ذلك أن وظيفة مديري الادراية

كانت مؤقتة فعلا.. من غير أن يدور بخلدي ـ والحق أقول ـ أن أتمنى له مثل ذلك، فقد دعي إلى القيام بمسؤولية أخرى يحسد عليها، كل مافي الأمر أنه كان يكتنفني احساس دفعني ، عند حدوث هذا النقل المفاجيء، إلى أن أكون أكثر تأسّفًا على ذهابه من أي شخص آخر في وظيفة.. الإدارة! ربما لأني كنت الأقرب إليه.. إداريًا! ومن تم كان تأسفي مبطنًا بالفرحة، فقد كنت المرشّح الأول لتسلم السلطة.. ولونيابةً، قد تسمح بكتابة الرسالة بطريقة هنيّة كما تسمح بتأكيد مقولتي الجديدة، السلطة وحدها تمتلكُ الذكاء في كلِّ الأمور .. الفكرية!

ولَمَّا، لمَّا! ولَمَّا أصبحت السلطة بيدي.. كاملةً، استدعيته مرة أخرى إلى مكتب غير المكتب السابق، لأظهر أمامه ـ عند، حضوره ـ بمظهر مغاير.. غير المظهر السابق، وأجلسه منِّي غير الجلسة السابقة، لكنه وقف ـ حين فتح له الباب ـ على بعد امتار مني وقال بكل صلافة.. اذا كنت أريده من أجل القضية اياها فإنّ موقفه منْهَا لم يتغير ولن يتغير قطعاً، فنظرت اليه نظرة مذيبة، إلا أنه لم يذب، وعاد أدراجه وصلفه ينشر حوله ـ فيما ظهر لي ـ رداء أبيض كا لكفن.. ما كان أبشعه!

وهنا عاودتني رغبتي القديمة للمرة الثالثة، فهذا في ذكائي ـ أو حيلتي والذكاء.. حيلة! إلى ماهو أنفع في النيل منه ومن أمثاله بحقد بليغ! فكتبت رسالة ـ كان من المفروض أن يكتبها هو لي.. على وجه مغاير طبعا! ـ إلى السلطة! وجعلت مصدر الرسالة مجهولاً، أتهمُه فيها بالعمالة المذهبية والسياسية لدولة أجنبية ترفع شعار الصلف ـ كصلفه! ـ والحقد والتحدي! وتصورتُني بذلك قد تخلّصت منه وعاقبته بما هو جدير به، فقد اختفى يومًا كاملاً، كان أول يوم تغيّب فيه عن محاضرته منذ أن جاء إلينا، وكنت أنا الوحيد الذي كان يعرف سبب تغيبه.. وكان السبب رسالة، قد كتبت ، كما كان سبب السبب رسالة لم تكتب! ولكنه جاءني في اليوم الثاني ـ بدافع الذكاء الذي جعله هو الأخر يدرك السبب! ـ وتحدى الجميع ليصل إلي، وفتح الباب، وأطل منه برأسه وصاح بي:

ـ هذه نذالة النذالة، ولكنها نذالة حقيرة متخلّفة لا تضلّل ذكاء السلطة!

وضرب الباب بعد أن محقني بنظرة صلفة.. ـ لست أدري لم جعلتني كلماته هذه عاجزاً حتى عن الحركة.. بله الكلام والرد على غطرسته وغروره وصلفه! وعرفت أنه حصر القضية كلها فيما بيني وبينه.. وخشيت أن يضيع الحبل من يدي قبل أن أتخلص منه أو أنغص عليه حياته على الأقل مادام في الجامعة وعلى ملمس من يدي.. المتسلطة!

وبعد أيام ـ وماكنت بعد قد تمكنت خلالها من خياطة مؤامرتي الثالثة عليه وعلى لحظاته وحياته، التي شعرت على نحو غريب أنها لن تطول بيننا! ـ دخلت مكتبي قبل منتصف الظهيرة بقليل على مألوف عادتي اليومية إلا فيما نذر، فإذا بي أجد فوقه استقالتَهُ.. كانت الكاتبة قد وضعتها في مكان بارز على حدة.

وكان قد كتبها فوق ورقة بيضاء بخط أنيق وحروف كبيرة، كانت تبدو وكأنها تتراقص فوق نصاعة بياضها من .. صلف!

ومع ذلك فالمهم هو أن استقالته هذه قد حرصت ـ هي على الأقل! ـ على أن تسدي إلي خدمة ـ من نوع تلك الخدمة التي رفضها هو ـ كما ينبغي، إذ اتاحت لي أن أحضر استاذاً آخر مكانه، هو الآن يضع ـ بجد ونشاط كبيرين ـ لمساته الأخيرة الذكية في كتابة رسالتي، فأكَّدْت بذلك مقولتي المضادة لمقولة هيرودوت ومقولة عنوان صورتي الذاتية المواظفة: الإدارة.. رسالة!

23 / 2 / 1993

الدخـــول .. علامـــة؟

استاذي.. ودعني أخاطبك هكذا تأدبًا، وهذا النوع من الخطاب يفترضه القرب منك، فأنت في الواقع لست أستاذي، وما أنت بأهل لأن تكون أستاذي، لأن لي اختصاصا آخر لا علاقة له بأستاذيتك.. هذا مع أن الاستاذية يحتاج إليها كل انسان ـ كل انسان شغوف بالمعرفة ـ في شتى أنواع المعارف الانسانية! صدقني أنني أو من بالتخصص كما أومن ـ و لو إلى حد ما ـ بشمولية الإحاطة العلمية، إلا أننا نعيش ـ للأسف الشديد ـ في وقت أصبحت المعرفة فيه عديمة الجدوى والقيمة على المستوى الانساني! فما معنى أن تتعلم كيف تقتل أخاك الانسان دونما ذنب جنته يداه، وكيف تضطهد أخاك الانسان لمجرد أنه لم يجد حلا لمشكلة من مشاكله الكثيرة فاضطر الى التعامل معك، وكيف تهينه لأنه لم يجد من يدافع عن حقه المهضوم سواك، فجاء إليك لمقابلتك.. ورفض المقابلة إهانة! لذلك فأنا هنا ـ صدقني! ـ لأحميك من الأهانة، يا استاذي! أنا مأمور هنا طريقي المنع المنيع!

استاذي! إلى لأعرف أن الظروف ليست في صالحك الآن، الظروف بأكملها، ومنها وجودي هاهنا في الطابق الأرضي، والطابق الأرضي عندنا كما ترى ممر جعل بهوا كبيرا، وهو في الوقت نفسه مدخل واسع ذو أعمدة أثرية.. وانا اليوم أخشى على .. الأعمدة! وأخشى أكثر على هذه الأرائك الجديدة المخصصة للانتظار في المدخل.. البهو.. الممر! انتظار الذي يقابل والذي لا يقابل، الذي يتعطف والذي لا يتعطف، والذي يشعر بمثلك والذي لا يشعر بك الاكما يشعر بالأعمدة الأثرية، خاصة بعد أن صار للحاجب حجاب، وصار للباب أبواب:، رغم ما فوق الأعمدة من أحباب، والسجع هنا ضرورة عفوية! وهذه قضايا أمنية.. وقد قلت لك انني فيها.. مأمور!

أصدقك، يا أستاذي، وصدقتك عندما قلت لي إنك هنا في رحاب الأعمدة الأثرية منذ ما يزيد عن ربع قرن، قضيته استاذا فيها، ومع ذلك فإنك لا تستطيع دخولها إلا بعلامة.. ولست أنا بالذي يعطيك هذه العلامة! وظيفة المأموريه الرفض والمنع والاعتراض و .. أشياء أخرى من هذا القبيل، وأنت لم تعط علامة، فكان حظك أن تبقى في ممر الأعمدة.. نكرة! نكرة عندي وعند كل من لا يعرف فيك.. ربع القرن! فانا حاجب.. ووظيفة الحاجب واحدة مهما تَنوعت.

دوافعها.. حاجب في الباب.. هذا الباب الذي طالما اخترقته ـ الاختراق يصبح في ظروف خاصة عملية غير معقولة رغم الانتماء الى .. المؤسسة ـ دون أن يسألك أحد.. إلى أين أنت ذاهب، لذا نسارع الى منعك الآن من حق.. الانتماء!

إني لأقف حاجبا في هذا المدخل الممر لأني لا أعرفك: وظيفتي أنني لا أعرفك ، وقد لا يعجبك أن تكون وظيفتي أمنية! ولا يهمني في الحقيقة أن تكون مقلوبًا .. في صدرك علة وعلة! فالعجب ألا تكون مقلوبًا في طريقة حياتنا المهكلة! ولم أعرف إلا فيما بعد أنك لا تستطيع لعلة قلبك .. صعود طابقين اثنين، وتفضل لذلك طابقًا واحداً .. تصعد في ارتخاء، تمهّل وهذه الأمور كلها، ومنها مسألة الطابور بشكل عام، تتجاوزني ومع ذلك قد أتجاوز أوامر مأموريتي واسمح لك باختصار الطابقين وجعلهما طابقا واحداً، إلاأن المشكل هو أن في الطابق الأول حاجبًا آخر، يمنعك من المرور من الممر، حقا، قد يسمح لك بالمرور، ولكنك لن تتجاوز نهاية الممر، لأنك ستجد بابًا آخر، له مفتاح مغاير، فلكل جهة مفتاح خاص، عند حاجب ثانٍ، قد يسمع دقاتك، ولكنه لا يفتح لك الباب، لأنه مأمور هو الآخر.. لا يفتح لداخل أو خارج الا إذا حمل علامة أو شعاراً!

ونتيجة ذلك أنه لا مفر.. لا مفر يا أستاذ من صعودك الطابقين من الجهتين الأخرين ـ وافرح.. فأنت لا تصعد إلى ثالث أو رابع.. بهذه الطريقة ينبغي

لك أن تفكر فتخف، امَّا الصعدة! ـ من الطرف الآخر، الجهة الأولى، وهي تقع خلف الممر، وتفضي درجاتها إلى الحاجب.. صاحب المفتاح الذي لا يفتح لك، فتتميز بنوع من التسطح يجعلها هنيّة إلى حد ما. أما الجهة الثانية فانها، كما تعرف أنت وكما أعرف أنا، فقد خبرتها ثلاث مرات قبل ان أواصل طريقي إلى بهو الأعمدة، تشعرك بدوار سواء نظرت إلى نهاية درجاتها من أعلى أو من أسفل.. ولا تصفى أحداً من خطرها صعوداً وهبوطاً، وكنت مرة قد شاهدت شابا جالسا فوق حاجز الطابق الثاني وقد التوت رجلاه حول قضيبين من القضبان الحديدية، فشعرت بالدوار مكانه وقلت في نفسي.. يا له من مغامر متهور . .لو سقط لدقبَت فيه أشياء وأشياء.. قلت لو .. فما كنت لأرجوله ذلك في عز شبابه! لهذه لا أراك.. ولم أرك قادرا على أن تحارب على ثلاث جهات أصعبها وأمرها جهة الأعمدة الأثرية! فإذا كانت لك قضية ما في سطح الأعمدة الأثرية هذه، فعليك أن تريق ماء وجهك ـ إن بقي فيه ماء اطلاقا.. بعد ربع قرن من إراقه الماء فوقها على اختلاف ألوانها وأشكالها.. وما أكثر ما كان اللون واحداً، والشكل واحدا، والطير واحداً والوقوع واحداً. ربع قرن كامل كانت فيه للطير في كل مرة.. سلحة! فقد تعاقبت على الأعمدة .. أعمدة مشكَّلة! لا شك أنك قد فكرت في هذا، ولعلك على حق فيه، ولكن هذا الأمر بالذات لا يهم المأمورية.. ذلك كانت له مأمورية أخرى، بل كانت له ماذا أقول امبراطورية أخرى وإن كانت السلحة على نحو ما واحدة .. نصفية كانت أم.. كاملة! ولذلك كررتها مرتين اثنتين للتاريخ! ولك هنا تاريخك الخاص .. والتاريخ لا يُنسك، لا سيما عند .. صانعه!

هكذا وماكنت لأهتم بما سمعته عنده فيما بعد فقد قيل لي من جملة ما قيل انك.. متنوع المعاناة! وأكثر ما يزعجك، ويدعوك بالحاح إلى اختصار الطابقين، ويسبب لك آلاما حادة.. تهدد مواقعها بالانفجار الخضل، أكثر ما يزعجك أن تحرم من ممارسة معينة، تلازم صباحياتك بحكم تعاطيك لأدوية

بعينها منذ مدة طويلة.. وهي في الحقيقة ممارسة طبيعية ومشروعة في أن واحد.. لكنها لا تكون كذلك إلا في ظروف اعتيادية. وعندما استيعد الآن ملامحك في مرآة ذهني، يخيل الي أنها كانت السبب فيما ظهر عليك من انزعاج حين حلت بينك وبين الدخول في تلك الصباحية.. التي كانت صباحيتي أنا بين الأعمدة!

والذي أعجبني فيك، وليست أجد لي نُدحَةً عن تسجيل هذا الاعجاب، أنك لم تثر رغم ظروفك الخاصة حينها، وانما تغيرت خطاك مع تغير ملامحك فوليت بخطى خفيفة وكأنك هارب من شيء ما أو مدفوع إلى شيء.. ومن يعرف ظروفك يعرف أيّهما الأصوب! أجل، لم أسجل عليك ثورة.. على العكس مما فعله بعض من جاء قبلك وبعض من جاء بعدك ـ ومُنِع من الدخول إلى حرم الأعمدة كما منعت أنت سواء بسواء، وإن اختلفتم جميعا في الأقدمية.. والأقدمية لا تساوي في رحابِنا.. الأعمدة! تلك مرحلة لما نصلها نحن، وليس من الممكن الوصول إليها بسهولة.. فالطبيعة هنا أكثر قدماً وبلاءً!

ولكن ما لنا ولهذا؟ فالأفضل أن أعود بك إلى ما كنا فيه .. أعني إلى ما كنت أنا فيه من أمور.. وإن كنت أحس أنك تجالسني أو أجالسك على نحو من الانحاء! فقد جاءني أحدكم قبلك. وكان قد جاء مبكرا نوعا ما وعندما طلبت منه علامة الدخول. ومنتعه منه لم يتساءل من أين يأتي بالعلامة.. وكآن الأمر لا يعنيه أصلا، وإنَّمَا ثَارَ رأساً وأخذ يرعد ويزبد، وتقدم ليدخل بالقوة، ولكن حراس الأعمدة، الذين تواثبوا من فوق الأرائك المريحة من كل جهة، سدّوا طريقه وحاولوا تهدئته وإفهامه، غير أنه وقف أمامهم صارخا لحظة.. وهو يحك رجليه أرضا بالتناوب.. كقط يشحذ .. مخالبه في سجادة ناعمة ويكور قبضتيه الأثنتين، ثم استدار وخطا نحو الباب، وسمع في الخارج كلمات مواسية، فأسرع مبتعدا ليخفي دموعًا، أخذت تبحث عن

مسار بها إلى عينيه.. بهذا حدثني من جاء يلوم.. المأمورية فيما بعد! على أن الذي جاءا بعدك سلك معنا مسلْكًا آخر، فقد كان من ذلك النوع الذي يتحدى ببرودة دمه.. دونما عنف أو ثورة بل حتى بضحكة في بعض الاحيان! ذلك أنه أخرج كل ما في جيبه من أوراق ثبوتية، من بطاقة تعريف، وبطاقة مهنية، ورخصة سياقة وبطاقة مكتبة وغير ذلك، ووضعها فوق المنصة ـ فالاعمدة لها منصة! ـ أما منا وهو يقول .. اذا لم يكفكم وجهي العتيق علامَةً فهذه كل أوراقي! وضحك ضحكة خفيفة، ثم أضاف.. و ما أنا بخارج من هذا البهو، وما أنا بباحث عن باب آخر أدخل منه إلى القلعة العتيقة.. وما أنا.. ! وما أنا..! وظل يؤانسنا ونؤانسه حتى انتهى موعد الاستقبال وبقي له الباب ـ لمحاولة أخرى ضاحكة ـ مفتوحًا! هكذا.. تسير أمور المإمورية يا أستاذي في بروج الأعمدة! فدعك إذن من المعرفة.. ومن الصداقة، ودعك كذلك من ربع القرن القرين .. قرين الأعمدة .. فهو لا يصلح أن يكون للدخول .. علامة!

1993 / 03 / 20

آه .. الكرسي!

لا أريد أن أحدث في وسطكم ـ ولوسطكم اليوم أبعاد بعيدة! ـ أي نوع من أنواع المفاجأة، ولو أن عدمها كثيرا ما يكون في حد ذاته مفاجأة!

لهذا أقول لكم بدءا من البداية أن هذه الآه ليست آه هم ووجع، ولا هي آه رى وشبعٍ، وانما هي بكل بساطة، ومن غير ما سلاطة ـ وهذا السجع موجه الى المتعففة منكم والمتصوفة، الذين يعيشون بلأ سرار! ـ انما هي شيء آخر. انها آه الكرسي... كما عبر عنها العنوان بتجل ووضوح صحيح. أن هذه الآه تجمع في أعطافها بشكل عام حينا، وبشكل خاص حينا آخر ـ فالحظوظ لها دخل في هذا أيضاً ـ الهم والوجع والري والشبع في آن واحد، ولكنها تبقى مع ذلك لذيذة منعمة مريحة بطريقة فريدة، لأنها آه.. كرسية! أقول هذا لأن الديقمراطية تعني عندي ـ ولعندي هذه دلالة خاصة، ستتضح لكم من خلال صفاتي فيما بعد ـ الحوار، والمناقشة، والجدل ... وكذلك المطارحة، وكلها تعني حرية توصيل الرأي والمعتقد، الا أن المطارحة قد تشكل قمة الحوار في العناد المذهبي أو الفكر المغلق! وحرية التوصيل هذه هي التقى أتاحت لصديق لي، بيني وبينه مودة قديمة حميمة، التقيت به قبل أيام قليلة ـ أتاحت له أن يفاجئني بقوله... يبدو لي أن الديمقراطية عندك لحية، ولو كانت هذه اللحية تتخذ على الخدين المنقبضين شكل هلالين لا معين، ينتهيان بما يشبه كيس التيس! أتراك ترشحت؟ وما أن أجبته بالنفي حتى ودعني على لقاء قريب. ولم يثرني تشبيه صديقي بطبيعة الحال، فقد كان هذا هو رأيه الصريح، ولا كان أي حوار لا يكون رأيا صريحا، ثم ان مودته القديمة لم تكن أبدا تنطوى على عداء لي أو سخرية مني... كانت تعليقاته في أية صورة كانت تتسم بالدقة في الملاحظة، والمرح في التعبير! وأعترف

أن لحيتي كانت قد أطلقتها ظروف وظيفية، وكانت حقيقة كما وصفها، فقد أردتها أن تكون كذلك، الا أنه كان قد نسي شيئا، ولذلك ضحكت وقلت له..

ـ ملاحظتك ناقصة، فأنت لم تذكر فيها أن لحيتي ... منفوشة!

وكان سؤاله عن ترشحي في محله، ذلك أنني كنت قد سئلت عن قضية الترشيح هذه أكثر من مرة، وخاصة بعد أن نشرت بعض الجرائد ما نشرت بحروف مغلظة كحروف اليمين الكاذبة في تصور صاحبها ـ من أوهام بعض الأحزاب في ميلي الى خدمة أهدافها ومبادئها في منطقتي ... ولا أظنني في حاجة الى أن أوضح لكم معنى خدمة الأهداف والمبادىء هاهنا، فالخدمة حديث الساعة، والساعة قريبة بالنسبة إلى هذا الحزب أو ذاك، والخدمة قد تختصر في... ساعة! ومن ثم يحاول كل منها أن يبعد عنه.. الساعة! وفيهم من ينزع عن يده ساعة معصم من أجل ألا يعرف كم بقي من... الساعة! ويبقى بذلك على أمله في الفوز برخاوة .. الكرسي! والكرسي في أعرافنا الجديدة رخاوة! وهذه الرخاوة قد تؤلم القفا إن طال الكرسي وانحنى وكأنه يهنىء الجالس فوقه من خلف بما اكتسبه من رفعة وسمو وعلاء، الا أنها تظل في كل الظروف.. رخاوة!

نعم، سألني عما اذا كنت قد رشحت نفسي، والترشيح أمل في الكرسي وطموح الى السلطة، ولا سيما بالنسبة الى من كان في وظيفتي ومكانتي ومركزي ونيابتي (النيابة هنا مجرد حلم شيق!) دينا وعلما وأدبا و.. فلسفة. والادب في تصوري فلسفة، والفلسفة معاشرة الحكمة على وجه حميم! وطبيعة الحكمة في عصرنا أن تعرف ماذا تريد على التحديد وكيف تمهد السبيل ـ والسبيل هنا لا تجعل منك بالضرورة ابنا من أبناء السبيل، بل قد تكون السبيل من تحديدك وحدك ـ لبلوغه على أفضل طريق! ولايخالطني شك في أنكم كنتم في أعماقكم مستعدين دائما لتتبعوني في سبيلي هذه ـ فالتبعية شرقا وغربا أفضل صفاتكم التي تكاد تتأصل فيكم ان لم تكن قد تأصلت فعلا! ـ وخسئت كل سبيل لا تفضي الى.. كرسي!

ولا مناص لي من أن أعترف أن سؤال صديقي عن مسألة ترشيحي قد نبهني الى شيء مهم، وهو أن اهتمامي كان بصورة مطلقة منصبا على الدين والعلم والأدب و . . . الفلسفة! وقد سبقت الاشارة الى هذه الصفات التي هي من علامات المركز، في حين أنه كان على أن أهتم ضرورةً بالسياسة. وزاد من ايماني وقناعتي بما قاله صديقي، عندما طرح علي سؤاله، قول قرأته للمؤرخ الانجليزي الشهير توينبي.. فحواه كما نقلتْه إلي المصادفة.. أن أكبر عقاب يلقاه من لا يهتمون بالسياسة يكمن في أن يحكمهم من يمارسون السياسة. فالسياسة اذن ممارسة وكرسي. واذا كان امامنا الشافعي قد أشار قديما في أنموذج من نماذج كلامه الى أن سياسة الناس أصعب بكثير من سياسة الدواب، فاني أقول ان سياسة الناس في أيامنا هذه قد أصبحت مساوية لسياسة الدواب! ولست أدري في الحقيقة لماذا لم أهتم قبل اليوم بالسياسة مع أن اهتمامي بالفلسفة كان قد أوصلني منذ مدة الى كلمة صائبة لا فلاطون يقول فيها... ينبغي أن يكون الفلاسفة ملوكا والملوك فلاسفة!

لقد انتهى عند الدايات عندنا، ولكن روحه المستعارة لا تزال مقيمة في عمق الأعماق منا. فما الذي يمنع الفلسفة، وهذا من باب الغلبة، في عهد الديمقراطية حُكْمًا كرسيًا؟ لم لا وقد أصبح الدين عندنا حزبًا، والالحاد حزبًا، والوطنية حزبًا، والخيانة حزبًا، ولكل منها.. من هذه الاحزاب تنويعاته الخاصة، وكل منها يصرخ ويصرخ.. يريد أن يسمع صوته وان لم تكن له خطة معينة للعشاء الذي سيتناوله غدا أعضاؤه المحترمون.. لعشائهم وليس لعشاء غيرهم! التفكير في ذلك يأتي بعد الانتهاء من مأدبة .. الصراخ! لئن كان من العسير على المواطن العادي أن يعرف الحقيقة، حين يرتفع الصراخ من كل جهة، ويميز صوتها بشكل قاطع، فانه ليس من العسير على المتفقه العالم المتفلسف المتأدب أن يعرف ـ بصفاته هذه ـ حقيقة الهدف الذي يصبو اليه ثاقب فكره، وجامح خياله وتصوره. فقد يمنحك جامح الخيال كرسيا بالقوة قبل أن تصل اليه بالفعل!

ورشحت عرقا من جراء الجري في مسار الحملة الفوضوية.. حملة الاتصالات الحزبية قبل أن أترشح فعلا، لكنني كنت قد اتخذت شبه قرار يخص قضية الترشيح هذه ضمن حزبين أو ثلاثة أحزاب. وكما ودعني الصديق نفسه على لقاء، التقيت به بعد ذلك على وداع، فهتف بي وهو يقترب مني:

ـ هل ترشحت؟

ـ قررت الترشيح تقريبا! بقي أن أختار الحزب المناسب!

فمسح شعره بكلتا يديه وقال:

ـ والمبادىء؟ أين فلسفة المبادىء؟ أين أدب المبادىء؟ لا تنس قول امنامنا الشافعي.. من نظف ثوبه قل همه، ومن طَابَ ريحه زاد عقله. لا تنس هذا، ياصديقي!

واستغربت لحظةً أن يفكر صديقي في الامام الشافعي أيضا. أترانا نعيش الآن في وضع حذر هيوب إلى درجة أن كل واحد منا أصبح همَه الوحيد البحثُ عمن يشفع فيه بعد الاستقلال... عفوا بعد الانتخابات؟ كما استغربت كذلك أن يمر بخاطري بيت من لا مية الصغرائي، كنت حفظته صغيرا، يقول فيه:

قد رشحوك لأمر ان فطنت له

فاربأ بنفسك أن ترعى مع المهل

الا أن كل هذا كان بالنسبة الي ثانويا، فقد أصبح قرار فلسفتي منتهيا.

ووضع الصديق يديه فوق كتفي، وأضاف قائلا:

ـ هكذا المبادىء اذن! عاشت المبادىء! تعال. انك لتستحقهما.. صديقا!

وأقبل علي ليقبل هلالي، فتلقيت قبليته وأنا أقول في طرب:

ـ آه... المبدأ كرسي!

الكفــاح .. محاسبــة!

... أخيرا وافق المجلس الموقر على إرسال مرشدين منا الى بلدان أروبية مختلفة.

فقد كان من الضروري الاتصال باخوان لنا هناك... يعيشون في بلدان أجنبية، لها ديانتها وعاداتها وتقاليدها الخاصة، وذلك قصد الاطلاع على حياتهم المادية والروحية هناك... ثم محاولة العودة بهم الى التقاليد الحنيفة...

تقاليد ديننا والى الاعياد البهيجة.. أعيادنا الدينية والوطنية وكل ما يتصل بذلك من مارسيم الاحتفال بها واحيائها حتى تظل قريبة من أفكارهم وعواطفهم، و ممارساتهم العادية... فهم وجه الوطن المشع في الخارج بصورة مطلقة.

وعندما وصلنا هناك وزعنا على عدة دول ومدن، وكان حظي آنا بلد مجاور لأمنا القديمة، لغته لغتها في قسم فيه، بعض عاداته عاداتها أيضا، فأرسلت الى مدينة الملك الواقعة على نهر ساجر، ونزلت فيها بفندق من الدرجة الاولى، وكنت فيه وحيدا، أي لم يرافقني احد من زملائي.

وقدمت لي غرفة تطل على هضبة جميلة، تتخللها بعض الحدائق والغابات الصغيرة التي جعلت للمنظر كله طابعا خاصا بدا لي متميزا جدا، لم أشاهد مثله خلال جولاتي في بلدان ومدن أروبية أخرى.. أو أن مثله فيها لم يجلب انتباهي بهذا الشكل الفريد.. وكأن حساسيتي الجمالية قد نمت وتطورت!

ولكم فرحت لأني سأقضي في هذه الغرفة الجميلة يومين أو ثلاثة أيام دون ان يكلفني ذلك شيء، فالودادية هي التي ستدفع كل التكاليف.. الكل في الكل! وسأصرف مخصصات السفر في أمور أخرى!

وكان أول ماجلب انتباهي هو أن الغرفة كانت تحتوي على ثلاجة، وفي الحين فكرت، بل هتفت بيني و بين نفسي هذا هو النظام وهذه هي الحضارة!

لقد فكر صاحب الفندق في كل شيء، فكل مالديك أو ما قد تأتي به معك من فواكه أو مأكولات، إن أنت لم تشعر برغبة في الأكل بالمطعم، تستطيع ان تحفظه فيه، وتجد فيه على الاقل ماء ـ وقد تضع ذلك أنت بنفسك وعلى هواك ـ نقيا بارداً تشربه عند الحاجة، وكم في الصيف من حاجة الى الماء!، وشعرت بضرورة التعرف على هذه الثلاجة ودفعني فضول غير عادي اليها، فلا شك ان شكلها ـ على صغرها وربما لصغرها ـ جميل من الداخل وقد يكون أجمل من الخارج الناصع البياض.

كان منظرها يغري العين حقا بفتحها واكتشاف عالمها الباطني وما يمكن أن يزخر به من قيم صناعية ومعايير جمالية!

وسارعت عند هذا الحد الى فتحها في لهفة، واذا بعيني لا تقعان الا على محتويَاتها من مشروبات غازية وروحية! واعتراني فجأة شعور ثائر مدمر، كيف؟

أتحتوي غرفتي، وأنا الذي جئت مكافحا ومرشدا إلى السلوك القويم والسيرة الحميدة، على مشروبات كحولية وغازية ـ غير الماء إن وجد ـ لا أحد يدري ما قد يتضمنه غازها من مواد مخدرة، يصعب على مثلي ان يتبين خيط الحلال من خيط الحرام فيها وكما يصعب عليه ان يعرف الحد الفاصل بين النجاسة والطهارة؟

وكيف يمكنني ذلك و أنا لا أعرف غير الماء الطاهر والطهور المطهر؟

ولم ألبث ان قلت لنفسي... ها أنت يا نفسي تكشفين ميداناً أخر للكفاح! لا بد ان تلحقي الأذى بكل كافر وبكل ملحد... كل من لا يعيش كما يتطلب ذلك منه عقيدته وكما يتطلب ذلك منه دينه القويم! وأخذت أردد... أنا له.. أنا له!

ووطنت نفسي على أن أسيء للكافر أنتقم منه في غمرة كفاحي وأسيء للودادية وانتقم منها لان مسؤوليها يعيشون غير المعيشة التي ارتضيها لهم، فهم يقلدون الكافر في كفره حينا، وفي سلوكه وتصرفاته حين آخر.

حقا، لابد أن أسبب الخسارة للكافر، لانه كافر، وأسبب الخسارة للودادية لأنها تابعة له في بلده على نحو ما تخضع لقوانينه وعاداته وأعرافه وتقاليده السيئة.

أسبب للكافر الخسارة باتلاف ما أمكن من المشروبات الكحولية وأسبب الخسارة للودادية باتلاف المشروبات الغازية أو ما يظن أنها من المشروبات الغازية.

ونفذت ما صممت عليه في الحين، فالتقطت زجاجتين من زجاجات الويسكي والكونياك وانطلقت بهما في شموخ نحو دورة المياه وصببت ما تحتويان عليه من سائل ذهبي اللون بفرحة متناهية! وأخذت كذلك زجاجتين غازتين، وقبل أن أصبهما تأملت احداهما قليلا، ثم فتحت لأعرف طعمها، واذا هي فعلا مشروبا غازي عذب المذاق فشربتها ـ فقد كانت صغيرة الحجم ـ دفعة واحدة! واعدت الأخرى الى الثلاجة، على أن أشربها فيما بعد وحين يحين وقتها الاكيد وأتي عليها. لابد ان تكون خسارة الودادية موجعة... على ان تكون خسارة صاحب الفندق أشد وجعاً، وخسارته هو معنوية بطبيعة الحال.. مرتبطة بشعوري نحوه، وكل شيء داخل في أجرة الغرفة! وهزتني عند هذه العبارة فرحة، ففتحت الثلاجة من جديد وشربت زجاجة غازية أخرى!

ونهضت في الصباح... صابح اليوم التالي مغتصبا بما حققته من نضال... فرحا بانتقامي المدمر. وجاء بعدئذ من أخذني الى المحل الذي كان على ان القي فيه ارشادي، وقد وفقت في ادائه على احسن ما يرام... فذلك ما حدثتني به تصفيقات الحضور الخاصة وتهافتهم على مصافحتي بعد ذلك.

ودعيت لتناول الطعام خارج الفندق. وعندما عدت الى الفندق لأستريح قبل ان أخرج للقيام بجولة في المدينة مع أحد افراد الودادية، اتجهت مباشرة الى الثلاجة لتناول مشروب من المشروبات الغازية مع اني لم أكن اشعر بالعطش فقد أردت ان اسبب الخسارة للودادية لا غير ففوجئت بأن كل شيء عوض سواء ما شربته من المشروبات او ما أتلفته منها.

ولكم سررت بذلك لأن كفاحي سيستمر، وضحكت أعماقي وأنا أصب زجاجتين كحولتين أخريين في دورة المياه واثني بما تبقى من الزجاجة الغازية!

وأنهيت مهمتي في أمسية ذلك اليوم باتصال بمجموعة ثانية من جاليتنا هناك، وقررت العودة الى الوطن في اليوم الثاني قبل منتصف النهار.

وواصلت كفاحي في تلك الامسية قبل ان أنام، وقد أتلفت هذه المرة عددا من زجاجات الجعة.. رويت بها دورة المياه مع أنها مرتوية دوما لا تعرف انقطاع الماء اطلاقا... خلافا لم هو عليه الأمر عندنا في حالات عديدة تختلف حدتها بين منطقة وأخرى في الشمال والجنوب على حد سواء! وقمت في الصباح وأنا أتغنى بآياتي ومدائحي وأورادي وكانت فرحتي كبيرة بما حققته من كفاح من ناحية وبعودتي الى عاصمة البلد ومنها الى الوطن من ناحية ثانية... تاركا للودادية ان تدفع ثمن الكل في الكل! وجمعت أغراض ونزلت لتناول فطوري في مطعم الفندق.

وهناك وجدت المرافق في انتظاري وفطرنا معا وكان شابا صموتا!.

وطلبت بعدئذ احضار حقيبتي من الغرفة، فأحضرت الى مكتب الاستقبال بعد حين، فتناولتها أريد الخروج مع مرافقي، ولكن رئيس مكتب الاستقبال طلب مني ان انتظر قليلا، ونادى عاملا آخر وهمس في أذنيه شيئا، ثم قال لي:

ـ اذهب معه الى ذلك المكتب هناك!

فما أردت أخذ حقيبتي، ولكنه طلب مني ان أترك الحقيبة حيث هي الى ان اعود. وما أن دخلت المكتب حتى قدمت لي فاتورة الحساب، وقالت لي المحاسبة.

ـ الودادية لا تدفع ثمن المشروبات الكحولية، التي تناولتها فعليك دفعها أنت!

فأصابني ما يشبه الذهول و كانت أعماقي تصرخ.. لم اشرب، لم تشرب، لم يشرب. من شرب نخب الكفاح؟!

أهذا هو الكل في... الكل؟ لكن فمى صمت صمت مرافقي!

الفهرس

من أعماق الجزائر

صـور سلوكيـة



ولد المؤلف في قرية «دوار تامنجر» بدائرة العنصر، ولاية جيجل في 1934/01/31 والتحق بالمدرسة القرآنية بمسقط رأسه في حوالي الثالثة من عمره.

وبعد انتهاء الحرب انتقل إلى مدينة قسنطينة، فأرسله أحد أقاربه، وهو الشهيد أحمد دودو، إلى مدرسة ابتدائية ثم إلى معهد عبد الحميد بن باديس، الذي قضى فيه أربع سنوات، انتقل بعدها إلى تونس، ودرس في جامع الزيتونة، وعقب ذلك سافر في بعثة إلى بغداد، والتحق فيها بقسم اللغة العربية؛ وعندما حصل على الإجازة «الليسانس» عام 1956، سافر إلى النمسا ودرس في جامعة فيينا الأدبين العربي والفارسي، وحصل على الدكتوراه عام 1961، واشتغل بعد ذلك مدرسا في جامعة فيينا وجامعة كيل بألمانيا ثماني سنوات، وعاد إلى الوطن في مطلع سنة 1969، والتحق بجامعة الجزائر المركزية، وقد تولى بها إدارة معهد اللغة والآداب.

توفي -رحمه الله- في 16 يناير 2004 مخلفا وراءه مجموعة من المؤلفات...

هذه صور من الأعماق فعلا وبأتم معنى الكلمة، تنزل إلى أعماق الإنسان الجزائري، سواء كان يشغل وظيفة إدارية أو منصبا سياسيا، أو يمارس تجارة خاصة أو عملاً من الأعمال الأخرى في المجالات المختلفة. تنزل إلى هذه الأعماق لتظهر لنا ما ترسب فيها خلال فترة قصيرة نسبيا من مشاعر غريبة، ودوافع أكثر غرابة، جعلت عددا كبيرا من أصحابها.. يتنكرون لتاريخنا وثقافتنا وهويتنا ويبتعدون عن أصولنا الروحية والفكرية خلال ثلاثين سنة بمراحل أكثر مما ابتعدوا عنها خلال ما يزيد عن قرن وربع القرن.

وقد حاول المؤلف أن يقرب كل ذلك من وجداننا وحسنا الوطني بأسلوب شيق ولغة مشوقة وأسلوب محكم، وسخرية لطيفة هادفة.. قصد المساهمة في بناء إنسان جزائري جديد يعتز بما أنجز وينجز ويضع نصب عينيه مجد الوطن بكل ما له من مقومات تليدة!



دار الأمة


ISBN 978-9961672020
9789961 672020